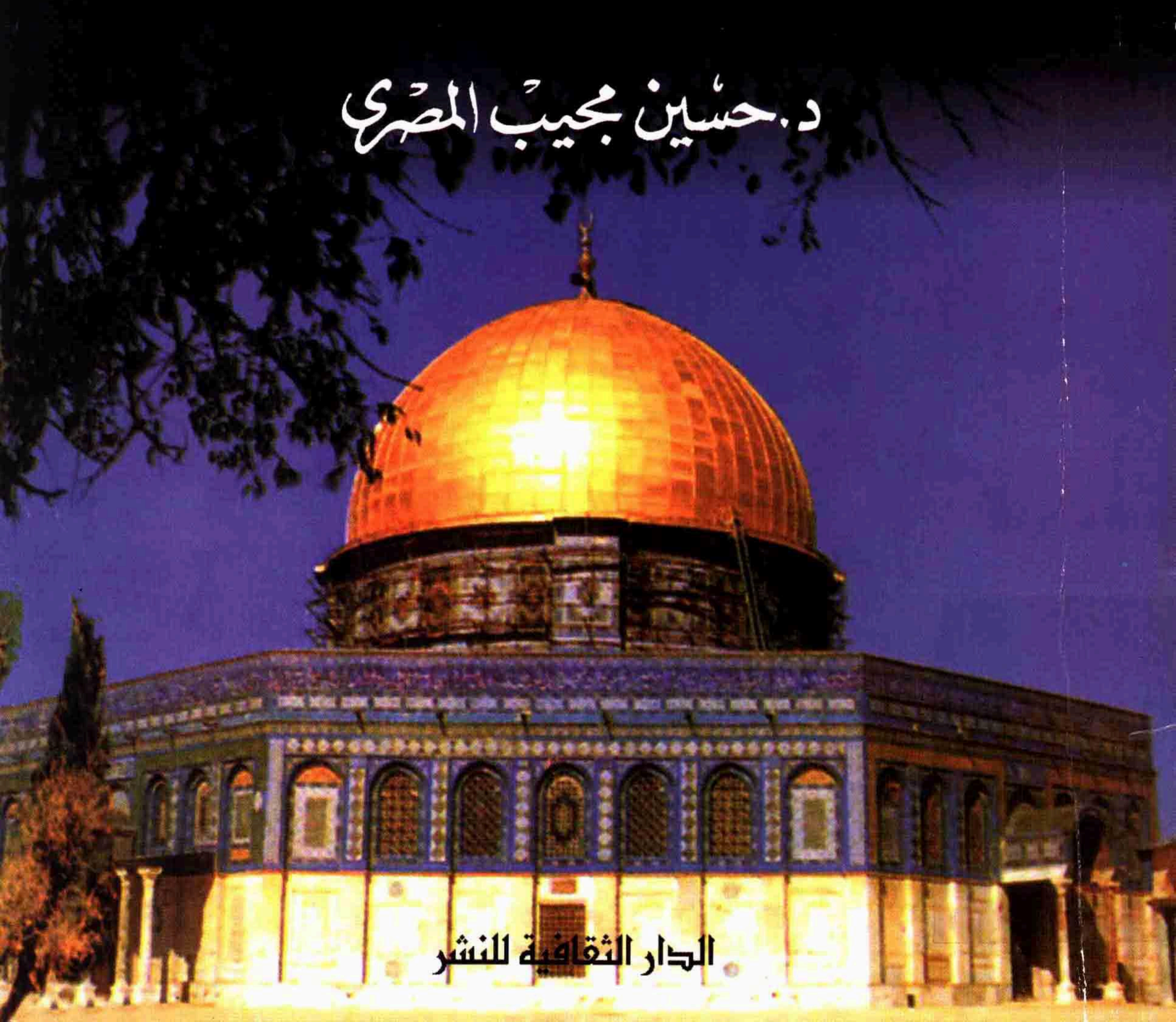
القدس الشريف

بين شعراء الشعوب الإسلامية

د. حسين مجيب المصري



الدار الثقافية للنشر

القدس الشريف

بين شعراء الشعوب الإسلامية

دكتور حسين مجيب المصرى

الدار الثقافية للنشر

عنوان الكتاب : القدس الشريف بين شعراء الشعوب الإسلامية
اسم المؤلف : د . حسين مجيب المصرى
17 x 24 سم . 224 ص .
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 2001/11374
اسم الناشر : الدار الثقافية للنشر

Al-Kods Al-Shareef
Dr Hosien Mogeeb
17 x 24 cm. 224 p.
ISBN: 977 - 339 - 064 - 0

الطبعة الأولى
1422 هـ/ 2002 م

الدار الثقافية للنشر - القاهرة
ص.ب 134 بانوراما اكتوبر 11811 - تليفاكس 4172769 - 4035694
Email: nassar@hotmail.com

إهـــــداء

إلى كل من خـالطت أفئـدتهم بشـاشـة الإيمان ، على تبـــاعـــدهـم فى الأوطان، وتبـــاينـهم فى اللسان، وكانت أولى القبلتين أكبر هَمِّهم خاصةً بعد أن نُزعت من يدهم إلى حين.

الفهرس

*** الشعراء حسب ورود أسماؤهم فى الكتاب ***

الأعشى* امرؤ القيس * الفرذدق* مروان بن الحكم* عمر بن أبى ربيعه* أبو العلاء المعرى* أبو نواس* ابن المظفر الأبيوردي* العماد الأصبهانى* ابن حسان الاندلسى الجليانى* ابن عمر الحلبى الجوانى* ابن محمد الساعاتى* العماد الكاتب* الحكيم بن الفضل* رشيد بن بدر النابلسى* غورى* أحمد شوقى* خليل مطران* حسين عرب* نزار قبانى* صالح جودت* محمود حسن إسماعيل* أحمد سويلم* محمد التهامى* عائشة الخوجا الرازم* إبراهيم عيسى* محسن عبد ربه* عبدالبديع عراق* حسن عبد الله القرشى* محمود مفلح* محمد حليم غالى* كمال رشيد* أحمد تيمور* رشاد محمد يوسف* مصطفى أحمد عبد اللطيف* فاروق جويده* عبدالغفار حامد* هارون هاشم رشيد* يوسف القرضاوى* عبد المنعم عواد* عدنان برازى* محمد عبد العزيز شنب* مصطفى زقزوق* غاده أصلان* عزت عبد الله* محمود على السمان* أحمد فتحى عامر* إبراهيم خليل* أحمد شلبى* على هاشم رشيد* محمد العنانى* محمد إبراهيم أبوسنه* عمر الصاوى* الشاذلى ذوكار* عبدالستار الهانى* نور الدين حمود* محمد حامد الخضرى* حسين مجيب* حمد عاكف* يونس أمره* يحيى بك* نفعى* غانى زاده نديرى* يازجى اوغلو* نشاطى* اسرار ده ده* سزائى قراقوج* رمضان آلتين طاس* عمر لطفى* طوران قوج* فيض أحمد فيض* نبيله إسحق إبراهيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـدمة

لا حاجة لنا بدليل قاطع ولا برهان ساطع، ندعم به ما نذهب إليه من أن القدس، أصبحت أمرًا ذا بال يشغل المتقين والمتفكرين، فى كل أرض تقول لا إله إلا الله، وبذا جرت الأقلام وفاضت القرائح بعدما فعل الصهاينة من أفاعيل وكان لهم ما لهم من أهاويل خصّيصًا.

لذا قام فى نفسى أن أؤدى الأمانة وأبلغ الرسالة من قِبَلى وأنا من وقف عمره وجهده منذ ما يربو على أعوام خمسين فى التعريف بآداب وتواريخ الشعوب الإسلامية ليعلم قارئ العربية ما لم يك يعلم من تراثه الإسلامى. من خوف أن يكون قد عرف أن هذا التراث المجيد ليس إلا فى العربية وكفى. إن تراثنا الإسلامى تتوزعه لغات الشعوب الإسلامية فى تكاملٍ وتساند ومن ظن غير ذلك، فمعرفته بتراثه منقوصة مبتورة، واستخرت الله فخارَ لى أن أخرج كتابًا فى هذا الموضوع ولكن على النطاق الأوسع، أو على التقريب، عكفت على دراسته فى الشعر العربى والفارسى والتركى والأوردى.

وجدت مادة سخية غزيرة فى الشعر العربى ولكنها شحيحة فى شعر اللغات الأخرى، ومردّ ذلك إلى انقطاع سبيلى إلى ما نشر فى مجلات هذه اللغات. فكتبت إلى تلاميذى ومن تربطنى بهم صلة المودة والحميمية فى إيران وتركيا وباكستان، وبسطت إليهم رجاء أن يوافونى بما أعتمد عليه من نصوص. ومن أسف أن معظمهم كان صخرةً لا يتفجر منها ماء.

فقلت حيلتى وكرهت أن يكون عدد الصفحات التى تضمنت أشعار العرب أكثر من الصفحات التى تضمنت شعر غيرهم، وتذكرت المثل الفارسى الذى يقول: «لا ربيع من زهرة واحدة» وما لا يدرك كله، لا يترك جله. بيد أنى قلت فى نفسى إن جهد المقل غير قليل وأن القليل أمارة على الكثير، وآثرت هذا على أن أستيئس وأتقاعس عن الكتابة فى مثل هذا الموضوع الذى شكل فنًا قائمًا بذاته فى الشعر الحديث، ترجمتُ شعرًا ما تيسر النظر فيه من شعر غير عربى إلى شعر عربى ولا غرو ففى رأيى أن الشعر ينبغى أن يترجم شعرًا وإلا فقد روعتَه، كما أن الشعر إذا ترجم شعرًا يكون له مساغ فى ذوق القارئ العربى.

وأخليت ذرعى لدراسة هذه الأشعار على مكث مع التحليل والتعليل والتذوق وربط النتائج بمقدماتها، والتعريف بالحقيقة التاريخية فى موضعها .

وعلى عمد، توخيتُ ألا أثبت أصول النصوص الفارسية والتركية والأوردية التى ترجمتها. وكان ذلك منى على مضض، ذلك أنى تبينت من تجربتى، أن القارئ العربى إذا نظر فى شعرٍ لا علم له بلغته، صدّ عن الكتاب وقال فى نفسه ما لى وكتاب فيه شعرٌ لا علم لى بلغته، ومعلوم أن ذلك يضيق من سيرورة الكتاب، ويجعله خاصًا بمن تخصصوا فى تلك اللغات. وأولى بمثل هذا الكتاب ثم أولى به من حيث مادته أن يعم نفعه، إن موضوعه هو موضوع اليوم الذى يطوف بعقول وقلوب العرب كافة .

فلم يبق إلا أن أقول إنى وجدت نفسى أتجافى عن أصول المنهجية المثلى التى أخذت بها من قبل فى عامة كتبى، ولكن الضرورات تبيح المحظورات .

ولا يبلغ كلام منتهاه قبل أن أتقدم بوافر الشكر وأدعو خالص الدعاء إلى بعض من وافونى بنصوص نشرت فى صحف أو كتب صدرت فى بلاد أخرى غير مصر وأدعو الله لهم بحسن المثوبة لأنهم بسطوا يد العون لشيخ كبير ضرير، لا يرى شعاعًا من شمس ولا يخط حرفًا فى طرسْ. ولقد كان هذا منهم صدقة العلم وأكرم بها من صدقة وبفضل منهم تأتى لى على نحوَ أرتضيه، وإن كنت أملتُ أن أزيد فيه .

والله أسأل السداد والرشاد .

د . حسين مجيب المصرى

القاهرة فى الربيع عام ٢٠٠١م

القدس فى تاريخها

قبل أن نمعن النظر ونتدبر ما قال شعراء الشعوب الإسلامية فى مدينة القدس، نرى من الخير أن نمهد بإطار تاريخى لها نجلّيها فيه صورة ناطقة صادقة، مع عقد كل أوجُلّ ما يتصل به من سبب، رجاء أن نتعرف فى جزم ويقين على البواعث التى بعثت الشعراء على القول فيها بعد أن اجتذبتهم إليها بمواصفاتها والمعروف من شأنها وبهذا من صنيعنا نجد العون على تفهم وتذوق ما نتصدى لدراسته وهو منشودنا ومطلوبنا ومرغوبنا من بحثنا.

وليكن مستهل كلامنا دائراً عليها من حيث جغرافيتها وموقعها بين غيرها من مدائن.

القدس بالضم ثم السكون قال الليث: القدس جبل عظيم بأرض نجد. وقال ابن دريد: قدس أوارة جبل معروف، وقال عرام: بالحجاز جبلان يقال لهما القدسان، قدس الأبيض وقدس الأسود، وهما عند ورقان، فأما القدس الأبيض فيقطع بينه وبين ورقان عقبة يقال لها ركوبة، وهو جبل شامخ ينقاد إلى المتعشى بين العرج والسُقيا، وأما القدس الأسود فيقطع بينها وبين ورقان عقبة يقال لها حمت، والقدسان جميعًا لمزينة، وأموالهم ماشية من الشاه والبعير وهم أهل عمود، والقدس اسم للبيت المقدس[(1)].

هكذا عرض علينا ياقوت الحموى عرض علينا القدس فى معجمه الجغرافى الذى استحببنا أن نبدأ بالاعتماد عليه فى تعيين هذه المدينة وإن لم يعينها بل أورد لنا كلمة قدس على مسميات خارجة عن نطاق بحثنا وكان كل همه أن يعرض علينا كل ما فى جعبته من أسماء تندرج تحت كلمة قدس وإن كان أنهى كلامه بأنها اسم للبيت المقدس وإن كان سماها البيت المقدس لا بيت المقدس. ولنا بعد ذلك أن نعتمد على معجم فارسى فى العصر الحديث يقول: قدس: بضم وسكون مدينة من مدن الأردن وحاضرة القسم الغربى من بلاد الأردن وهى عند المسلمين والمسيحيين واليهود مدينة مقدسة وموضع إجلال واحترام، وهذه المدينة تقع فى جنوب شرق يافا وعلى خمسين ميلا من تلال تقع عليها فى منطقة جبلية وطيبة الماء والهواء، فى تلك المدينة كان هيكل سليمان وكنيسة القبر المقدس وهى كنيسة القيامة وفى معتقد المسيحيين أن المسيح عليه السلام شُنق هناك ودفن وفيها أماكن مسيحية مقدسة أخرى، ومنها الكنيسة الجمانية وكنيسة مريم وفى هذه المدينة يقع المسجد الأقصى ومنه عرج نبينا محمد ﷺ إلى السماء وهذا المسجد هو القبلة الأولى

---

(١) ياقوت الحموى: معجم البلدان ص ٣١١. ج ٤ (بيروت).

وثانى الحرمين وفى هذه المدينة مؤتمر للمسلمين ومركز للمبشرين المسيحيين وفيه متحف ومكتبات ومؤسسات متعددة تجتذب إليها السياح. وقد أدخلتها إسرائيل فى حوزتها عام ١٩٤٨م وهذه المدينة منذ أن أوجدها الكنعانيون سُميت أورشليم وعلى الدوام كانت مركزاً للعبادة وموضع إجلال وإعظام(١).

وهذا المؤلف الإيرانى المعاصر يزيدنا تفصيلاً وله العناية بدقة التحديد ولكنه يقول إنها عاصمة الأردن، وفى موسوعة حديثة أن القدس مدينة مقدسة عتيقة تقع جزئيا فى فلسطين وهى مكان يحج إليه اليهود والمسيحيون والمسلمون(٢).

وعند كلمة جزئيًا نقول إنه ربما كان المقصود من ذلك أن القسم الشرقى من هذه المدينة كان تابعًا للضفة الغربية تحت الحكم الأردنى وأن القسم الغربى منها تابع لإسرائيل ويفيد فى تعرف طبيعتها الجغرافية ما قال أحد المفسرين فى تفسير قوله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١]. باركنا حوله يريد بركات الدين والدنيا لأنه متعبد الأنبياء عليهم السلام ومهبط الوحى وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة(٣).

فكلامه عن المسجد الأقصى لن يكون إلا كلامًا على بيت المقدس وهنا ما لفتنا إلى صفة هذه المدينة من حوله، وما وقعت هذه المدينة على أى طريق رئيسى فى كنعان القديمة، بل كانت تقع فى أطراف البلاد أما سبب ذلك فوقوعها على مرتفعات وعرة من الصعوبة بمكان أن تستوطن ولم يكن للقدس دور مرموق فى ازدهار كنعان فى الزمان الخالى(٤). فيؤخذ من ذلك أنها لم تزدهر تجاريًا لوقوعها على التلال وبُعدها عن طرق التجارة وذلك فى أول أمرها.

وإذا ما شئنا الدقة فى التعيين، قلنا أنها تقع على خط عرض ٣٥ ٤٦ ٤٥ شمال خط الاستواء وعلى خط طول ٣٥ ١٣ ٢٥ شرق جرينتش، وهى هضبة غير مستوية تتراوح فى ارتفاعها بين ٢١٣٠ و٢٤٦٩. أما جوها فهو قارى صحراوى والتفاوت كبير فى

---

(١) على أكبر دهخده: لغت نامه. ص ١٥٤٠٢ - جلددهم. (تهران ١٣٣٤هـ).

(2) Patrick Hanks: Encyclopedie world Dictionary, P:854, Beirut 1974.

(٣) النسفى: تفسير القرآن الجليل. ص ٢٣٦ ج ٢. القاهرة ١٩٣٩م.

(٤) كارين ارمسترونج: ترجمة: فاطمة نصر، محمد عنانى: القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد ص ٢٢. القاهرة ١٩٨٨م.

الحرارة بين ليلها ونهارها وليس بها أنهار بل تحيط بها عيون وتندفع من بعضها جداول عند هبوط الأمطار وموقعها على هضبة يجعلها فى موقع حصين لأن العدو لا يراها من بعيد بينما تستطيع حاميتها رؤية من يهاجمها.

ومن أهم جبالها هو جبل الزيتون وهو من الناحية التاريخية من أهم الجبال المحيطة بتلك المدينة وجبل موريا أو جبل بيت المقدس وقد ورد اسم هذا الجبل فى التوراة فى قصة الذبيح الذى قدمه إبراهيم عليه السلام قربانًا[١].

واسم أورشليم دخلت اللغات الأوروبية فى صورتين هما Jerusalem , Gerusalemme والقدس القديمة تتألف من أربعة أحياء هي: حى المسلمين فى الشمال الشرقى، وفى الجنوب الشرقى حى اليهود الفرنجة الروم فى الشمال الغربى، وفى الجنوب الغربى حى الأرمن أما الأماكن المقدسة للمسلمين والمسيحيين واليهود فأقيم بينها جدران وثمة أرض واسعة مساحتها ٣٠٠×٤٨٠ ثلاثمائة متر فى أربعمائة وثمانون مترًا على أرض مرتفعة وهذه ما تسمى بالحرم الشريف وشوارع القدس ضيقة والمنازل مبنية بالحجر ولها أفنية. وإذا تجاوزنا القديم إلى الحديث ألفينا أن المهاجرين من اليهود يقيمون فيها الأبنية اعتبارًا من عام ١٨٦٠م وفى عام ١٩٢٠ بالأخص اتسعت هذه المنطقة إلى أبعد مدى وتزايد عدد سكان القدس فى القرن العشرين من سبعين ألف إلى مائة ألف نسمة إلى أن بلغ العدد فى عام ١٩٤٦م مائة وأربعة وستين ألفًا وأربعمائة نسمة[٢].

وحسبنا هذا القدر من تمثلنا لتلك المدينة من حيث موقعها الجغرافى، والترتيب بعد ذلك على اسمها.

اسم هذه المدينة «إيلياء» وهى كلمة سريانية فى اللغة السريانية و ينسب إليها أحد الأنبياء وهى كذلك اسم بيت المقدس كما يقال إن هذا الاسم هو اسم الخضر عليه السلام ومعناه الصديق الأكبر[٣]. وقال لنا من له علم بالسريانية أن الرومان هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم عند فتحها.

هذا ما نذكره فى تحفظ والعهدة فيه على الراوى وقد اختلف أهل العلم في اشتقاق كلمة أورشليم حيث إن القدس تسمى أيضًا أورشليم فهناك القائل بأن كلمة أورشليم من «أور» بمعنى موضع أو مدينة و«شالم» وهو اسم إله وثنى لسكان فلسطين الأصليين وهو إله

(١) د. حسن ظاظا: القدس ص ٨ - ١٢ القاهرة ١٩٧٠م.

(2) Islam Ansiklopedisi, s953, G.6, Istanbul 1997.

(٣)برهان الدين: برهان قاطع ص ١٣٧ . تهران.

السلام، فالمدينة بناء عليه كانت منسوبة بإله السلام، ومن قال إن معنى «أور». ميراث وبذا يكون معنى الكلمة ميراث السلام. أما أحبار اليهود فيزعمون أن سام بن نوح قد سماها «شلم» بمعنى السلام. وأن إبراهيم الخليل عليه السلام قد سماها «يراه» بمعنى الخوف في العبرية وقضى الله أن يكون لها الاسمان جميعًا أي الخوف والسلام، وهذه تخريجات بنوا عليها عقائد عن السلام المنبعث عن الرعب. كما قيل أيضًا أن «يرو» في اللغات السامية بمعنى إله وينبنى على ذلك أن يكون معنى المدينة «إله السلام».

بيد أن الأدلة إذا توافرت على أن سام بن نوح هو الذى سمى المدينة باسمها لصح ما قال أحبار اليهود من أن المدينة ترجع إلى عهد سيدنا نوح عليه السلام ولكن أحدًا لم يقل بذلك فمن سوى أحبار اليهود بل إن التوراة نفسها تتحدث عن أورشليم للمرة الأولى فى زمن إبراهيم عليه السلام وكان ذلك عام ١٩٠٠ ق. م. وكان اسمها آنئذ «شاليم» وملكها من أهل فلسطين الأصليين. وقال بعض العلماء أن هذا الاسم هو القدسَ محرفًا فى اليونانية عن النطق الأرامى «قديشتا» ومما يذكر أن اليهود أنفسهم أطلقوا عليها اسم القدس فى الكتاب المقدس كما سميت «مدينة الله» واسم «أورشليم» ليس عبريًا أصيلاً إذ كانت تحمل ذلك الاسم قبل دخول العبريين إليها[1].

وبعد أن عرفنا إذ مر بنا أن القدس تحريف قديشتا فى اليونانية وأن اليهود أطلقوا اسم القدس فى الكتاب المقدس ننظر فى معانى الكلمة فى المعاجم العربية.

القُدْس هو الطهر والبركة وهو اسم ومصدر ويطلق كذلك على أورشليم وعلى جبريل وحظيرة القُدْس هى الجنة والقُدْس: الطهر اسم ومصدر وروح القُدْس عند المسلمين هو جبريل، وبيت المقدس: حرم القدس الشريف والنسبة إليه مَقْدسىٌّ ومُقدَّسىٌّ، العامة تقول لمن زاره أو زار قبر المسيح عليه السلام مُقْدُسٌّى بضم الميم والدال وتجمعه على مقادسة والأرض المقدسة هى أرض فلسطين،[2] وبذا نكونَ قد دخلنا على الموضوع من كل باب وجمعناه من كل طرف وحاولنا الخروج من الخلاف جهد المستطاع وظهرنا على معنى هذه الكلمة وعرفنا استخدامها غير أننا مع ذلك لا نذكر وقوعنا عليها فى نصوص عربية قديمة إلا بيت المقدس كما أطلق على هذه المدينة اسم إيلياء فى العهد الذى كتبه عمر بن الخطاب لأهل المقدس ولقد تكرر ذكر هذا الاسم فى وثيقة العهد ٦ مرات.

---

(١) د. حسن ظاظا: القدس. ص ٩ القاهرة ١٩٧٠م.

(٢) بطرس البستانى: محيط المحيط ص ٧١٩، ٧٢٠، بيروت ١٩٩٣.

أما فى الفارسية القديمة ونعنى بها الفارسية التى كانت فى إيران قبل الإسلام فكان اسمها گنگ دژهخت بمعنى بيت المقدس، أما گنگ دژ فاسم قلعة فى بابل ومكان فى المشرق أما كَنك فبمَعنى منحن ونهر الجنج وبيت المقدَس. (١)

ولكن صاحب المعجم لم يفسر ما يستحق التفسير فأوردنا كلامه على التجهيل.

ولم نقع على هذا الاسم لتلك المدينة فى الشعر الحديث إلا مرة واحدة فى شعر للشاعر نظامى الجنجوى على ما نذكر ولكنها ذكرت ولم تذكر إلا بيت المقدس فى الشعر الفارسى الحديث والمعاصر والفارسية على العموم وكلمة بيت تذكرنا بأنها تأتى كذلك فى العبرية بمعنى بيت العبادة وقد أطلقت على عدة مدن فى الشام وهذا ما يدفع إلى الظن بأنها اكتسبت هذه التسمية لقداسة ما تحتويه. أما من زارها فالصدارة والأولوية لصفوة البرية ﷺ ولقد أسرى بالنبى ﷺ ليلة السبت لسبع عشرة خلت من رمضان، قبل الهجرة بثمانية عشر شهرًا وهو نائم فى بيته ظهرًا وقيل ليلة سبع عشرة من ربيع الأول قبل الهجرة وكانت سنه حين الإسراء اثنتين وخمسين سنة وقيل إن الإسراء كان بجسده كما قيل كان بروحه إلى بيت المقدس ومن هناك إلى السموات بروحه ولقد أسرى به ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى راكبًا البراق صحبة جبريل عليه السلام فنزل ثم أمَّ بالأنبياء عليهم السلام بيت المقدس فصلى بهم، وعرج به تلك الليلة إلى السموات السبع ورأى بها الأنبياء على منازلهم ثم عرج به إلى سدرة المنتهى ورأى جبريل عليه السلام على الصورة التى خلقه الله عليها وفرضت عليه الصلوات الخمس تلك الليلة.

وفى شعبان على رأس ستة عشر شهرًا، وقيل على رأس سبعة عشر شهرًا حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وقال رجل لرسول الله ﷺ : إنى نذرت أن أصلى فى بيت المقدس إن فتح الله عليك مكة، فقال ﷺ : والذى نفسى بيده الصلاة ها هنا أفضل من ألف صلاة فيما سواه فى البلدان. (٢) ولما بلغ النبى بيت المقدس صلى على أطلال هيكل سليمان ومعه إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وارتكز على صخرة يعقوب ثم صعد سراعًا إلى السموات. (٣)

ومما يذكر أن كسرى وهرقل كانا على رأس أعظم دولتين فى عصرهما وهاجت الحرب

---

(١) د. ابراهيم شتا: المعجم الفارسى الكبير، ص ٢٥٠٥، جـ٣ القاهرة ١٩٩٢م.
(٢) المقريزي: إمتاع الأسماع ص ٢٨، ٣٠، ٥٨، ٣٩٦ القاهرة ١٩٤١م.
(٣) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد ص ١٥٣، ١٥٤ القاهرة ١٣٥٤هـ.

بين هاتين الدولتين سجالا وكانت الغلبة للفرس فى البداية وتم إستيلاؤها على فلسطين، ومصر كما غلبت على بيت المقدس وحملت منه الصليب إلا أن الحال تغير غير الحال فدارت الدائرة على الفرس ودخلت فلسطين ومصر والقدس فى حوزة الروم، وتأتى لهرقل أن يسترد الصليب من فارس وكان قد نذر أن إذا ما قُدرَ له أن يسترد الصليب أن يحج ماشيا إلى بيت المقدس ليعيد الصليب إلى موضعه، وهذا ما يجعل لبيت المقدس وما تحويه من أهمية لدى المتحاربين واحتفلوا برجوع الصليب احتفالا جد عظيم، ولما لحق ﷺ بالرفيق الأعلى اختلف المسلمون أين يدفن فقال قائلون: يُدفن فى مكة مسقط رأسه الشريف وقال غيرهم: بل يدفن فى بيت المقدس حيث دفن الأنبياء من قبل مع أن بيت المقدس كان فى حوزة الروم آنئذ،[1] وفى هذا قاطع الدلالة على أن من العرب فى صدر الإسلام من كانوا على علم بمنزلةٍ بيت المقدس وقدسيتها فرغبوا فى أن يكون مرقد النبى ﷺ فيها. ومن أحداث تاريخ بيت المقدس ما له خبر يستطرف ذكره.

بينما كان كسرى ملك الملوك جالسًا على حاشية فى حديقة قصره وكان المجلس مجلس أنس وطرب وعب الشراب عبًا فتمشت فيه سورة الكأس وكان هذا الملك وهو خُشا پارشا يذهب بنفسه ويفخر بملكه ولا غرو فقد كان مائة وعشرون إقليمًا ينضوى تحت لوائه وزينت له نشوته أن يأمر بحضور إحدى حظاياه فى كامل زينتها بين يديه فى مجلس أنسه. إلا أنَّ هذه الحظية أبت الحضور إليه لأنه مخمور، فاستشاط غضبًا وأشير عليه بأن يطردها من قلبه أو أن يقتلها بعصيانها أمره وران الحزن على نفسه طويلاً ومرت الأيام فأمر من يطلبون له حظية أخرى تأتمر بأمره فاعترض رجل يهودى سبيلهم يدعى مردخاى بمدينة شوش وكان هذا اليهودى يكفل ابنة أخ له تسمى أستر ووجد رجال الملك ضالتهم المنشودة وكانت ذات حسن فحملوها إلى القصر مع عمها وأوصاها عمها بإنكار يهوديتها وإخفائها حتى لا يكره منها جنسها فأكرمها الملك إكرامًا لا غاية بعده ووكل بخدمتها سبع جوار ووقعت فى قلبه وآثرها ولم يؤثر عليها كما أن مردخاى عظم قدره وارتفعت منزلته عند الملك واتخذ من ابنة أخيه وسيلته لتحقيق كل ما يريد به تحقيقًا وذلك من طرف خفى خاصة بعد أن عرف أن رجلين يريدان قتل الملك فأسر ذلك إلى أستر فأوقفت الملك على ذلك الخبر فقتلهما، وكان للملك وزير عظيم الحظوة عند الملك وحز ذلك فى نفس مردخاى فدب فى قلبه الحقد والحسد وتربص كلٌ منهما الدوائر بعدوه المبين أما الوزير فصح منه

(١) محمد حسين هيكل. حياة محمد ص ٣٦٣ و ٤٨٤ القاهرة ١٣٥٤هـ.

العزم أن يوقع بمردخاى وأن يثير عليه حقد اليهود فى إيران وأخبر الوزير مليكة أن اليهود فى إيران يضمرون له كل شر فعليه أن يستأصل شأفتهم من البلاد.

ففوض إليه أمر قتل اليهود فى فارس، وعرف اليهود جلية أمرهم وسوء مصيرهم فجزعوا كل الجزع ومضوا إلى مردخاى يطلبون إليه أن يزين لابنة أخيه أن تشفع لليهود عند الملك وتثنيه عما عزم عليه، وتمنت عليه فأمر بإكرام مردخاى واليهود فى فارس وأوغرت صدر الملك على الوزير فصلبه على أعواد كان قد هيأها مردخاى واستوصت باليهود خيراً فى أرجاء المملكة فأقبلت الدنيا على اليهود فى فارس بعد أن أدبرت عنهم ومات الملك خشا پارشا عام ٤٦٦ ق. م ونزح منهم خلق كثير إلى بيت المقدس بعد أن ظفروا بحريتهم وانطلقوا من أسرهم وحسنت حالهم وهكذا تلقتهم مدينة بيت المقدس وهم زرافات زرافات. (١)

قيل إن سليمان عليه السلام هو الذى بنى المسجد فى القدس وكان داود عليه السلام شاء أن يبنيه، فأوحى الله تعالى إليه: أن هذا بيت مقدس وأنك صبغت يدك فى الدماء فلست ببانيه، ولكن ابنك سليمان يبنيه لسلامته من الدماء، فلما ملك سليمان بناه، فلما خلف سليمان داود بعد مماته كان يتجرد للعبادة فى بيت المقدس العام والعامين والشهر والشهرين. يدخل معه الطعام والشراب، وقد أدركه الموت وهو فى بيت المقدس، وكان فى الهند ملك جبار فى الأرض يقال له رزح كان يدعو الناس إلى عبادته فمضى إليه نفر من إسرائيل يشكون إليه ملكهم وإن كان يعمل بطاعة الله، فحشد ملك الهند عساكره ومضى على رأسهم إلى الشام، وصار إلى بيت المقدس ولما كان على مرحلتين منها فامتلأت منهم الأرض وانخلعت قلوب أهل بيت المقدس رعبًا وعزموا على أن يستسلموا له فقال لهم ملكهم: إن ربى قد وعدنى بالظفر ولا خلف لوعده، فعاودوا دعاءهم وتضرعهم. وأمر الله ملكهم بمواجهة ملك الهند وخرج إليه فى نفر قليل من جنده ووقفوا على ربوة ورآهم ملك الهند فحقرهم واستصغرهم، وقال: إنما خرجت من بلادى وجمعت جنودى وبدرت أموالى من أجل هذه الطائفة وأمر بمن شكو إليه من الإسرائيلية فقتلوا لأنهم خدعوه وأرسل يقول لملك إسرائيل: أين صديقك الذى ينصرك ويخلصك من سطوتى؟ فأجابه الملك يقول: يا شقى أنت لا تعلم ما أنت قائل: أتريد أن تغالب الله بقوتك أم تكاثره بقلتك؟ والله معى فى موقفى هذا، ولن يُغلب من كان الله معه، وسوف

(١) د. حسين مجيب المصرى: من أدب الفرس والترك ص ٣٥٩- ٣٦٦. القاهرة ١٩٥٠م.

تعلم ما يَحُل بك! فاستشاط رزح غضبًا وصفّ عساكره وخرج إلى قتال أسا ملك الإسرائيلين وأمر الرماة فرشقوا جنده بالسهام ، ولكن الله أرسل مددًا من الملائكة مددًا إلى بنى إسرائيل فأخذوا السهام ورموا بها الهنود فقتلوا عن آخرهم، فضج بنو إسرائيل بتسبيحهم ودعاءهم، وتراءت الملائكة للهنود ولما رآهم رزح وقع الرعب فى قلبه ونادى فى عساكره يأمرهم بالحملة عليهم، ففعلوا، ولكن الملائكة لم يبقوا منهم أحدًا سوى رزح وعبيده ونسائه، وما رأى ذلك حتى تعلق بأذيال الفرار وهو يقول قتلنى صديق أسا ملك بنى إسرائيل، وسلك رزح ملك الهند ومن معه طريقه إلى البحر فركب سفنه، ولما سارت بهم أرسل الله عليهم هوج الرياح فكانوا من المغرقين(١) .

ويظهر فى تاريخ القدس الملك دواد وقد استولى على حصن فى جبل صهيون لليبوسيين وجعلها حاضرة لملكه ومنذ ذلك الحين بدأ الإسرائيليون يسمون باليهود ،وكان المسجد الأقصى وقبة الصخرة ملكًا ليبوسى يسمى «أرونا» وكان يتخذه جرنا ومربضا لأنعامه ولكن ابتاعه منه دواد بما فيه من أنعام وقيل إن داود جعل من الصخرة التى على الهضبة مذبحًا للرب، وخلف سليمان داود وكان يجنح دائمًا إلى السلم ولا يلجأ إلى الحرب إذا ما اقتضى الأمر إلى العنف .

بل مال إلى الإصلاح ورغب فى أن يجعل عاصمة ملكه أورشليم مدينة عظيمة تعدل فى عظمتها العواصم الأخرى فأقام سورًا حولها وجعل يشيد المعبد الكبير الذى مات أبوه قبل إتمامه كما بنى له قصرًا منيفًا تحدث وبالغ كتاب اليهود فى وصف عظمته وفخامته وفى عام ٩٧٠ ق. م أثناء حكم رحبعام بن سليمان بعث فرعون مصر جيشًا إلى القدس وتكرر زحف جيش مصر على القدس فى عهد فرعون مصر نخاو وتولى عزيا فبنى أبراجًا وحفر آبارًا وزرع البساتين فى أورشليم، وحصن قلعة داود على جبل صهيون حزقيا ملك يهوذا وذلك أنه أوجس خيفة من غزو الأشوريين فردم الآبار خارج المدينة حتى لا ينتفع بها العدو وكذا الجداول الجارية منها ليحول بين الغزاة وبين الشرب وكان ذلك فى عهد الملك الآشورى سنحاريب، وفى عام ٥٨٨ ق. م جيش جيشًا عظيمًا بختنصر ملك بابل ساقه إلى القدس بعد أن استولى على معظم مدن فلسطين وغلب على القدس فخربها و أحرقها بعد أن نهبها وسلبها ثم أوقع فى الأسر معظم من فيها ومضى بهم إلى العراق حيث بقوا فى الأسر سبعين عامًا، وعندما نجح كورش ملك الفرس فى احتلال العراق وإسقاط

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ جـ١ بيروت ١٩٩٥م.

الإمبراطورية البابلية فأطلق سراح اليهود وسمح بأن يعودوا إلى وطنهم ذلك أنهم بذلوا له العون فى حروبه .

قال وهب بن منبه إن الله تعالى أوحى إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له أرميا، حين ظهرت فيهم المعاصي : «أن قم بين ظهراني قومك؛ فأخبرهم بأن لهم قلوبًا لا يفقهون بها وأعينا لا يبصرون بها، وإني تذكرت صلاح آبائهم فعطفني ذلك على أبنائهم» . ولما بعث الله تعالى أرميا إلى بنى إسرائيل فقتلوا الأنبياء وعظمت معاصيهم سلط الله عليهم بختنصر ملك بابل، انتقاما منهم، فأوحى الله إلى أرميا إنى ملك بنى إسرائيل ومنتقم منهم فقم على صخرة بيت المقدس يأتك أمرى ووحيي . فقام أرميا وشق ثيابه، وجعل الرماد على رأسه وخر ساجدًا وهو يقول : «يارب وددت لو أن أمي لم تلدنى حين جعلتنى آخر أنبياء بنى إسرائيل فيكون خراب بيت المقدس وبوار بنى إسرائيل من أجلى . فخاطبه رب العزة قائلا : «ارفع رأسك»، فرفع رأسه فبكى ثم قال : «يارب من تسلط عليهم فقال عبدة النيران لا يخافون عقابى ولا يرجون ثوابى . ثم يا أرميا استمع وحيي أخبرك خبرك وخبر بنى إسرائيل : من قبل أن أخلقك اخترتك، ومن قبل أن أصورك فى رحم أمك قدستك، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك، ومن قبل أن تبلغ نبأتك ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك ولأمر عظيم اجتبيتك فقم مع الملك تسدده وترشده، فكان مع الملك يرشده ويسدده ويأتيه الوحى من الله تعالى حتى عظمت الأحداث ونسى بنو إسرائيل ما نجاهم الله به من عدوهم سنحاريب وجنوده . فأوحى الله إلى أرميا : قم فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمتى عليهم وعرفهم أحداثهم . فلما بلغهم أرميا رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد عصوه وكذبوه فأخذوه وسجنوه وعند ذلك حاصرهم بختنصر ونزل بساحتهم ووطنهم بالخيل وهدم بيت المقدس .

وتفرق بنو إسرائيل فى بابل والشام والحجاز ومصر بعد خراب بيت المقدس ولكن عمرها بشتاسب بن بهراسب الفارسى وملك عليهم رجلاً من آل داود(١) .

وفى عام ٣٣٢ ق . م . غزا الإسكندر الأكبر فلسطين فدخلت فى حوزة اليونان واتفق أن أحد أحبار اليهود وفق فى أن يُرغب الإسكندر فى تعمير القدس . وبعد ممات الإسكندر استولى بطليموس الأول «سوتير» على أورشليم حوالى عام ٣١٠ق . م . وأخذ خلق كثير من أهلها أسرى بعث بهم إلى الإسكندرية . ثم زحف عليها «إنطبوخوس» السلوقى الذى

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء، ٤٤٩ ، ٤٥٣ بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

كان له الملك فى سوريا فى عام ٢٠٣ق . م ولكن استردها منه القائد البطلمى «سكوباس» المصرى عام ١٩٩ ق . م واليهود كانوا أميل إلى حكم السلوقين فساعدوا أنطيوخوس على دخول القلعة ومباغتة المصريين فيها ونال اليهود مكافأتهم على ما بذلوا من عون له وخفف عنهم الضرائب وهكذا تعرضت القدس لمن أرادوا احتلالها فى حروب تعاقبت وكان غزاتها من أجناس تنوعت ، وهذا من الدليل على أنها كانت تجتذب إليها الغزاة ولابد أن يكون لها من شأنها ما يجتذبهم إليها .

ولم تقف هذه الغزوات عند حد فقد غزاها قيصر الروم «بومبى» عام ٦٦ق . م وقتل من اليهود فى القدس خلقًا كثيرًا قيل إن عددهم يربو على اثنى عشر ألفًا ولحق الدمار بالمدينة لأن من يسكنها من اليهود عمدوا إلى التدمير والتحريق حتى لا ينتفع العدو بشىء مما يريد .

وما مر طويل زمان حتى تعرضت القدس ثانية لغزوها ، فقد زحف عليها الحاكم الرومانى «لوقيانوس كراسوس» وكان حاكمًا على سوريا ، وكان من العنف فى الغاية فاقتحم الهيكل ونهبه نهبًا ، وقيل إنه كان ممتلئًا بالنفائس من ذهب وفضة وآنية ثمينة .

ولكننا نجد الفوارق بين مهاجمى تلك المدينة فى علو القدر ونوعية المسلك ، فقد زار «يوليوس قيصر» فلسطين ولم يزرها محاربًا لأنه أذن لليهود فى بناء ما تهدم من أسوارها .

وبذلك لم يكن مقدمه إليها مقدم متعد عليها . ولا نعلم فيم زارها وإن كانت زيارته زيارة من له شأنه العظيم فى التاريخ ، من الدَّليل على أنه كان على وعى من أهميتها وهذا ما حرك رغبته إلى زيارتها .

واتفق أن احتدم النزاع والصراع بين أمراء فيها على أخذ الزكاة من اليهود وادعى كل منهم حقه فى ذلك دون من سواه ، وبذلك وقع الشر بينهم وماجت المدينة بالهرج والمرج . تحين تلك الفرصة من يسمى «هيرودس الأدومى» فاتخذ سبيله إلى المدينة زاحفًا عام ٣٧ ق . م وقد عاضده وشد أزره القائد الرومانى «سوسيوس» ، فحوصرت من كل جهاتها وانهالت عليها قذائف المنجنيق ، وتم اقتحامها ، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة . وهذا من الدليل على أن المحن والشدائد كانت تنزل بها متتالية لا يفرق بين محنة ومحنة إلا عدد من الأعوام لا يُعد كبيرًا .

ولكن أغسطس «قيصر الرومان» كان ينتهج سياسة غير عنيفة ، فعين «هيرودس» على القدس والجزء الجنوبى من فلسطين . وكان ذلك فتح باب للخير عليها فخططها من جديد

وأمر بأسوارها فدُعمت وأقيمت عليها الأبراج الحصينة لحراستها، وأقام حصنًا سماه على اسم «انطونيا» وهو (صاحب كليوباترا). كما أقام حصنًا عظيمًا آخر على هيئة مربع وكان لهذا الحصن برج يراقب منه جند الرومان ما يجرى داخل معبد اليهود، و«هيرودس» لم ينسى معبد اليهود فأعاد بناءه وأمر بتزيينه بالزخارف.

ولكن اليهود فى أورشليم كانوا يناوشون الحامية الرومانية فى اتصال ودوام وذلك فى قلعة انطونيا. ولكن أفضى ذلك إلى العنف فى معاملتهم، وحقد اليهود على الرومان وبلغ هذا الحقد غايته إبان دعوة المسيح عليه السلام. وأثار رجال الدين من اليهود فتنة شعواء مما أسخط عليهم القيصر «كليوديوس» إلى حد أن عبر عن احتدام سخطه بأن أمر بأن يقام له تمثال داخل الهيكل اليهودى، وظل هذا التمثال فى موضعه إلى أن مات هذا القيصر فى العام الرابع والخمسين بعد الميلاد.

ومما سلف ذكره يتبين لنا أن هذه المدينة كانت نهبًا لمن يغلبون عليها بالغزو، كما كانت تتأرجح بين اللين والعنف والهدم والبناء والشدة والرخاء.

ولكن الملحوظ أن العداء بين اليهود والرومان لم يخمد أواره، حتى ضاق قيصر الرومان «فسبازيان» ذرعًا بهذا الوضع وصح منه العزم على أن يقضى قضاء مبرمًا على اليهود، فأمر ابنه «تيتوس» على رأس جيش عظيم لهذه الغاية، وحاول اليهود بكل وسيلة أن يحموا أنفسهم وأخذوا بكل الأسباب إلا أنهم خابوا فى تحقيق رغبتهم وأمر القائد الرومانى بتخريب بيت المقدس عام سبعين للميلاد، ولم يسمح ليهودى بالبقاء فيها فأزعجوا عنها، ويعد هذا بمثابة «السبى الثانى» لهم الذى دام من ٧٠ ميلادية إلى ١٩٤٨ عندما أعلن حاييم وايزمان قيام «إسرائيل».

وكان نيوس الرومان ينقم على اليهود شديد النقمة فأمر بهم فطردوا من بيت المقدس وأضرم النار فيها ومنذئذ ذهب اليهود فى الأرض أباديد فى عام ٧٠م(١).

ولكن عاد اليهود إلى أعمال الشغب وتمردهم فى عهد قيصر الرومان تراجان، وكان ذلك فى عام ١٠٦ للميلاد، ولكن ثورتهم لم تقتصر على بيت المقدس بل امتدت إلى برقة ومصر فى آن واحد. ولما تولى القيصر هدريان صح منه العزم على أن يقضى قضاءًا مبرمًا على كيان اليهود مطلقًا، كما شاء أن يقيم مستعمرة رومانية فى القدس نفسها كما أمر بمنع

---

(1) Le Bon: Les Premieres Civilizatons P. 631. Paris.

الختان عند اليهود علمًا بأن هذا الختان كان عند اليهود وثيق الصلة بدينهم. وهذا بالذات كان عمدة السبب فى قيام الثورة اليهودية الثانية من عام ١٣٢ إلى عام ١٣٥ للميلاد وكانت هذه الثورة على الرومان بزعامة «بركوكبا» أحد زعمائهم وكانت بغيته أن يحول بين الكيان اليهودى وكيانه، وفى زعمه أنه المسيح المخلص ولكن قيل إن اليهود هم الذين أطلقوا عليه هذا اللقب لنجاحهم بعض الشيء فى بدء قيام ثورتهم ولكن قيصر الرومان هدريان وفق فى إخماد ثورتهم بعد أن قتل خلقًا كثيرًا من اليهود. كما أنه قام بتبديل اسم القدس فسماها إيليا كابيتولينا بعد أن شيدها. ولكن تبين لليهود من ذلك أن هذا المسيح المخلص لم يكن إلا دجالا فقاموا بتغيير اسمه من بركوكبا أى ابن الكوكب إلى بركوزيا أى ابن الكذاب. وبذلك تحقق أمل هدريان فيما أراد فى الموقف الذى اتخذه من اليهود(١).

ولكن اليهود بعد أن طردوا من مدينتهم لم ينثنوا عن إعلان حقدهم على الرومان ففى عام ١٣٦ ميلادية رفع من يسمى «بركوكبا» لواء الثورة على الرومان، وترتب على ذلك أن دخل معهم فى حرب شعواء، وفى البداية دارت الدائرة على الرومان ولكن الامبراطور «ايليوس هدريان» سوى المدينة بالأرض هدمًا، ولم يبق فيها من اليهود أحدًا. كما زاد فى تسلطه عليهم فأقام على هيكلهم معبدًا للإله الرومانى «جوبيتر» وأقام فيه تمثالاً لهذا الإله كالتمثال المقام فى معبد الكابيتول، واعتزم أن يغير كل شيء فى تلك المدينة حتى اسمها فسماها «ايليا كابيتولينا» وأمر بمنع اليهود من دخولها، وتوعد بالموت كل يهودى سولت له نفسه أن يدخلها وإن سمح بدخولهم إياها فى العام مرة واحدة ليس غير، كما لم يمنعهم من الوقوف على جدار تبقى من سور المدينة وهو المعروف «بحائط المبكى» وظلت سكنى القدس محظورة على اليهود قرونًا تطاولت.

وهكذا نجد أن أهل بيت المقدس لم يستقروا على حال بل كانوا بين جذر يدفعهم إلى لجة هم فيها يغرقون وإلى مد يحطمهم على الصخور تحطميًا.

وترتب على ذلك أن وقف رجال الدين من اليهود على حائط المبكى يبكون ويرفعون إلى الله كف الدعاء ليكشف عنهم الكرب بعد أن مزق الله ملكهم على يد قياصرة الرومان الذين عسفوهم عسفًا شديدًا وساروا فيهم سيرة الذئاب فى الغنم وبختنصر البابلى الذى دمر ملكهم تدميرًا. أما حائط المبكى هذا فإنه جزء من سور المعبد اليهودى والأرجح أن تاريخه يرجع إلى عهد «هيرودس».

---

(١) د. سيد فرج راشد: القدس عربية إسلامية. ص ١٥٥ - ١٥٦. القاهرة ٢٠٠٠.

ومن عجب أن مدينة القدس ظلت محرمة على اليهود إلا يومًا واحدًا فى العام تجرى دموعهم فيه على حائط المبكى، ودام ذلك حتى ظهر نور الدين الحنيف.

وقد بشر ﷺ أصحابه بفتح بيت المقدس كما أنه ﷺ أخبر عن ظهور الطاعون فيها عند فتحها. ففى عهد عمر انتشر وباء الطاعون انتشارًا فظيعا بحيث إن عدد الذين هلكوا فيه بلغوا سبعين ألفًا فيما لا يزيد عن ثلاثة أيام. ولما طلبت قريش منه ﷺ وصف بيت المقدس قال: «لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر فجلى الله تعالى لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه». وللبخارى زيادة على هذا الحديث فى رواية أخرى(١).

وهذا كله توكيد لأهمية فتح مدينة بيت المقدس وكيف أن فتح المسلمين لها كان خيرًا عظيمًا ولذلك بشر به النبى ﷺ. كما كان نقطة تحول فى تاريخها. ولقد دار حوار بين النبى ﷺ وبين يهودى يقال له عبد الله بن صوريا حين قدم المدينة وكان من كلام بن صوريا للرسول: خصلة إن قلتها آمنت بك. أى ملك يأتيك بما تقوله عبد الله؟ فكان من جوابه ﷺ: يأتينى جبريل. فقال: إنه عدونا ينزل بالقتل والشدة والحرب، ميكائيل يأتى بالسرور والرخاء. فلو كان ميكائيل هو الذى يأتيك آمنا بك لأنه مسدد ملكنا وجبريل مهلك ملكنا فهو عدونا لذلك. ولكن انبرى سلمان الفارسى ليجادل اليهودى مستظهرًا عليه بدليل العقل والنقل ولكن رد اليهودى فقال: لقد عادانا مرارًا وعرفنا منه أن الله أنزل على انبيائنا أن بيت المقدس سوف تتخرب على يد بختنصر وكان ذلك بالغ الشدة علينا ولما ظهرنا على ذلك جاءنا نبى يقال له دانيال ليقتل بختنصر ولكنه لم يظفر به لأن جبريل هو الذى صده عنه فرد سلمان قائلاً: أبهذا العقل غير المسلوك به ضللتم؟(٢).

وفى العام الثالث عشر للهجرة وهو العام الذى توفى فيه أبو بكر الصديق شرع عمر فى تجهيز جيوش المسلمين إلى الشام، فحشد جيشًا عظيمًا قسمه أقسامًا وجعل على كل قسم منه أميرًا عين له البلد الذى يفتحه على أن يكون له إذا وفق فى الاستيلاء عليه، ثم أمد هذا الجيش بجيش تحت إمرة خالد بن الوليد، ولكن عزل «عمر بن الخطاب» خالد بن الوليد وأحل محله «أبا عبيدة بن الجراح» قائدًا عامًا للجيش، وكان فتح دمشق عام أربع عشرة للهجرة فى خلافة عمر(٣).

---

(١) بديع الزمان سعيد النورسى: المكتوبات كليات رسائل النور الجزء الثانى. ترجمة احسان قاسم المصالحى. الطبعة الأولى ص ١٤٢، ٢٣٧. انقرة ١٩٩٢م.

(٢) ابن الجوزى: زاد المسير فى علم التفسير ص ٣٣٧ جـ٤ دمشق ١٣٨٤.

(٣) محمد بن على بن طباطبا: الفخرى ص ٥٤ سنة ١٩٢٧م.

ومضى عمر رضى الله عنه إلى الشام وقيل إن سبب قدومه الشام أن أبا عبيدة لما حاصر بيت المقدس قال له أهلها أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام وأن يكون من يتولى العقد عمر بن الخطاب فكتبه وقدّمه إليهم وهذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم و أموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها . أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله، حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبدالرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان»(١) .

وبالنظر فيما قال عمر، يستبين لنا أنه ضرب المثل الأمثل للحاكم المسلم الورع الوقاف عند حدود الدين القويم السالك سبيل الهدى والرشاد، المتسامح بكل معنى للتسامح فما دمر ولا حرق ولا أكره أحدًا على ما قد يكره كما أشهد الله وأشهد من معه على ما قال رغبة منه فى أن يجعل من وعده وعدًا لا يخلف، وعند فتح عمر لبيت المقدس سلمها له عن رضا وطواعية البطريرك ودخلها على ظهر بعير أبيض وهو فى ثيابه الرثة فى حين كان البيزنطيون فى ثيابهم الفاخرة المزركشة وساد الأمان والاطمئنان فى المدينة ولم يصل فى بيوت العبادة الخاصة بالمسيحيين وقال لو أنه صلى فيها لحولها المسلمون إلى مساجد وفى هذا ما فيه من دليل على تسامحه الذى لم يخطر ببال غيره وصلى فى جانب طريق مزدحم على درجات واستوجب أن يكون المكان فى يد المسيحيين .

---

(١) ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك ص ١٠٤ - ١٠٥ الجزء الثالث طبعة ١٩٣٩م.

وفى مسجد داود رأى عمر ما حوله من أوضار تتقذذ منها النفوس حتى قيل إن المسلمين أطلقوا على كنيسة القيامة «كنيسة القمامة» انتقامًا وبلغ من كمال إيمانه وفرط تواضعه حد أن حمل قمامة مسجد داود فى ثوبه وتبعه من كانوا فى رفقته.

وأقام عمر مسجدًا من خشب ولكن هذا المسجد كان متراحب الأرجاء يتسع لجمع غفير من المسلمين وكانت القبائل العربية التى دخلت فى دين الله تقيم صلاة الجمعة فيه.

وأصبح اليهود و المسيحيون فى بيت المقدس أقلية من أهل الذمة. ووافق عمر على عدم السماح لليهود بسكنى بيت المقدس أخذًا برأى البطريرك صفرو نيوس وأمر بدعوة سبعين أسرة من ساكنى طبرية لسكنى بيت المقدس.

ولقد بويع معاوية بن أبى سفيان فى بيت المقدس وأمر بتشييد قبة الصخرة فى عام ٦٨٨م ومن هذا الموضع عرج ﷺ إلى السماء فصخرة القبة ليس مسجداً ولا يوجد بها محراب وليس بها متسعا لإقامة الصلاة فيه وثمة ممران للسير حولها وأقيم عليها أربعون عمودًا ولم تكن بناءًا غريبًا فى بيت المقدس وإنما كان يحيط بها كنائس وتعد من أعظم الأماكن المقدسة فى المدينة وهى فى موضع أولى قبلتى المسلمين وجاء فى بعض الروايات أن جميع المياه العذبة تنبع من أسفل تلك الصخرة(١) .

ولقد نقل الفاروق رضى الله عنه خطاه فى تلك المدينة المقدسة ليشاهد مقدساتها وهذا ما يغمر القلب بنور الإيمان ويبعث فى النفس الأمن والأمان كما يثير الرغبة فى التعرف على هذه المقدسات على امتداد تاريخها فما مر على تلك المدينة مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامى إلا وجدد المسلمون فيها قديمًا أو أصلحوه كما أقاموا جديدًا. ففى عهد الخلفاء الراشدين أقام عمر بن الخطاب مسجدًا وقد بلغ من احتفائه بالصخرة المشرفة أن أزال ما عليها من غبار كما أقام عليها مصلى.

وفى عهد بنى أمية بنى عبد الملك بن مروان مسجد الصخرة، ورصد لبنائه والإنفاق عليه خراج مصر لسبع سنين، ونقش اسمه على القبة من تاريخ البناء سنة ٧٢ هـ. ثم تبارى خلفاء وأمراء المسلمين فى ترميم وزخرفة هذا المسجد حتى قال أحد المؤرخين الغربيين إن هذا المسجد أروع تحفة معمارية فى هذه الدنيا.

وأقام عبد الملك المسجد الأقصى وأتم بناءه الوليد وتوالى على تجديده وتزيينه كثير من

---

(١) كارين ارمسترونغ : ترجمة د. محمد عنانى، د. فاطمة نصر. القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد ص ٣٧٨، ٤٠٣، القاهرة ١٩٩٨م.

الخلفاء والأمراء على امتداد التاريخ وآخرهم الملك محمد الخامس ملك المغرب الذى فرش المسجد الأقصى بالبسط الفاخرة، كما أقام عدد من أهل البر من المسلمين قبابًا على صحن الصخرة وبجوارها قبة المعراج، وقبة محراب النبى ﷺ، وقبة يوسف، وقبة موسى، وقبة سليمان وقبة الخضر وقبة داوود.

كما أقاموا فى الحرم وحوله مآذن وأروقة وأبوابا وسبلا وصهاريج، وبالذكر حقيق أن كل أثر من هذه الآثار نقش عليه اسم من أقامه وتاريخ إقامته وبذلك يعد أثرًا إسلاميًا قائما بذاته.

وفى داخل المدينة القديمة أقاموا أربعة وثلاثين مسجدًا معظمها فى داخلها كذلك أقاموا زوايا يأوى إليها الحجيج من أطراف العالم الإسلامى كالزاوية النقشبندية للقادمين من أوزبكستان، وزاوية الهنود لأهل الهند، والزاوية القادرية للقادمين من بلاد الأفغان، ولكل هذه الزوايا غرف للإقامة وقد حبست عليها الأوقاف. وفيها تشاهد قبورًا للصحابة رضى الله عنهم وللتابعين من علماء وحكماء ومجاهدين فى سبيل الله.

كما أنشئت مدارس لشتى العلوم وعددها ستة وخمسون مدرسة يحصل العلم فيها الوافدون من أرجاء الأرض.

كما أوقفت عليها المصاحف والمخطوطات النادرة، وكان المسجد الأقصى على الأخص يحوى مكتبة عامرة بما تذكر بمكتبة جامع قرطبة والأزهر والقيروان. كما أن العلماء كانوا يقدمون للنظر فى هذه الكتب من قاصية الشرق والغرب ليطلعوا عليها ويفيدوا منها. وفى المتحف الإسلامى صندوق يحوى مصحفًا كتبه بيده أحد ملوك المغرب وأهداه إلى المسجد الأقصى.

وبالنظر فيما أسلفنا يتبين أن هذه المدينة المقدسة أشبه ماتكون بمتحف إسلامى يضم شتى الآثار الإسلامية كما يرشد إلى عراقتها فى عروبتها(١).

وليس يخفى أن القدس ثالث أقدس المدن فى العالم الإسلامى، فالمدينة الأولى مكة المكرمة والثانية المدينة المنورة والثالثة القدس العربية الفلسطينية الإسلامية. وهى كذلك أكثر البلاد قدسية لدى أصحاب الديانات السماوية، إنها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وإليها أسرى النبى ﷺ ومنها عرج به إلى السماء. فالقدس فيها المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة المشرفة، والمسجد الجامع.

---

(١) إسحاق موسى الحسنى: عروبة بيت المقدس ٥٣ - ٥٦، القاهرة ٢٠٠٠م.

وفى الحديث الشريف : «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام، والمسجد النبوى، والمسجد الأقصى».

وفى الحديث الشريف كذلك : «إن الصلاة فى المسجد الأقصى أفضل من الصلاة فى غيره بخمسمائة مرة».

وفيما نقل عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : «من مات فى بيت المقدس فكأنما مات فى السماء».

وعن الإمام على كرم الله وجهه أنه قال : «وسط الأرضين أرض بيت المقدس، وأرفع الأرض كلها إلى السماء بيت المقدس».

أما مسجدها الأقصى فسمى بهذا الاسم لأنه أبعد المساجد التى تزار ابتغاء الأجر والثواب من المسجد الحرام، وقيل لأنه لم يكن وراءه موضع عبادة، كما قيل سمى بذلك لبعده عن الأقذار والخبائث.

ومن تتمة القول فى المسجد الأقصى أن الأمير أسامة بن منقذ لما زار القدس فى القرن الثانى عشر للميلاد، السادس الهجرى فى فترة الهدنة بين الصليبيين والعرب احتل المسجد الأقصى واعتبره مصلى صغيراً للمسلمين ولكن رهبان النصارى المقيمين فيه لم يقع منهم هذا موقع القبول ورأوا أن الداخلين عليهم ضيوفًا غير مرغوب فيهم، لأنهم دخلوا فى مكان هو للصليبيين المسيحيين.

وبذا نرى كيف أن المسلمين والمسيحيين اشتركا معًا فى الصلاة فى المسجد الأقصى(١) .

ونحن نرى فى ذلك مظهرًا لتسامح المسلمين وأنهم ينظرون إلى الدين نظرة تنم عن إيمان صادق لا يهتم بالمظهر بل بالمخبر ويوقن بأن العبرة ليس بالمكان وكفى.

لقد ورد ذكر المسجد الأقصى مع المسجد الحرام فى آية قرآنية كريمة واحدة مما يضيف أهمية خاصة إليه لاشتراكه مع المسجد الحرام. ويضيف إلى قدسيته ولاشك، كما يجعل له منزلة عند المسلمين لا تدانيها لمسجد سواه حاشا المسجد الحرام الذى فيه الكعبة المشرفة. ففى رأى أنه كان من الأصل فى جنوب الهيكل الذى كان كنيسة أنشأها الإمبرطور جوستنيان، وفى رأى آخر أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما دخل القدس أمر ببناء مسجد على ما كان موقعًا لهيكل الملك داود، وعين المكان على أنه الموضع الذى صلى

---

(1) Arnold : The preaching of Islam. P.90 Landon, 1935.

فيه النبى ﷺ ليلة أسرى به، وهذا المكان بقرب الصخرة التى اكتشفت بعد أن اختفت تحت أكوام من القمامة.

ومما يقال فى تاريخ المسجد الأقصى أن زلزالاً ضرب المدينة ١٣٠هـ فانهدم الجزء الشرقى من المسجد فما كان من الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور إلا أن أمر بقلع صفائح الذهب من أبواب المسجد وسكها نقوداً أنفقت على إصلاح الجزء الذى انهدم من المسجد. ووقع زلزال آخر فى عهد الخليفة المهدى وانهدم ما بنى فى عهد المنصور، و فى عام ١٦٣ أمر الخليفة المهدى بالترميم فزاد فى عرض المسجد ونقص فى طوله.

وفى عام ٤٢٦ هـ كثرت الزلازل ومست الحاجة إلى الترميم فأمر الخليفة العبيدى الظاهر لإعزاز دين الله بإصلاح ما تخرب إلا أنه ضيقه من الشرق والغرب وأزال منه أربعة أروقة.

وفى عام ٤٥٨هـ أمر الخليفة العبيدى المنتصر بالله بتجديد الواجهة الشمالية من المسجد، وفى عام ٤٩٢هـ احتل الصليبيون القدس الشريف وحولوا المسجد إلى كنيسة أسموها «بالا تيوم أوتاميلوم سولومونيس» وأسكنوا فرسانهم فى بعض أجزائه وأقاموا صفا مزدوجًا من القناطر المعقودة على محاذاة الجدار القبلى وجعلوها مخزنا لأسلحتهم. كما اتخذوا من السراديب التى تحت المسجد حظيرة لدوابهم.

وفى عام ٥٨٣ هـ تم للسلطان صلاح الدين الأيوبى تحرير بيت المقدس وإعادة المسجد الأقصى إلى ما كان عليه قبل الاحتلال الصليبى وأزال منه آثار المسيحية. وأمر بأن ينقل إليه المنبر الذى صنعه أهل حلب بأمر من السلطان نور الدين محمود بن زنكى، وتم هذا النقل فى أيام ولده الملك العادل.

وفى عهد الأيوبيين ٥٩٥هـ ومنهم العادل سيف الدين أبو بكر، أخو صلاح الدين والملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه والملك الأفضل نور الدين على والملك العزيز عثمان والملك المعظم عيسى هؤلاء الملوك الأيوبيون تركوا لهم فى المسجد الأقصى آثاراً تنسب إليهم وكان بعض منهم يتولى بنفسه غسله بماء الورد. وفى عام ٦٨٦هـ أمر الملك المنصور قلاوون المملوكى بتعمير سقف المسجد من ناحيته القبلية مما يلى الجهة الغربية كما أن الملك شعبان والسلطان حسن ابن السلطان قلاوون جددا الأبواب الخشبية للمسجد.

أما السلطان الغورى آخر من كانت له السيادة على القدس من سلاطين المماليك أجرى كثيراًمن الإصلاحات فى المسجد الأقصى وأضاف إليه بعض العمائر[١] .

ونقف عند هذا الحد من التأريخ لنقول إن هذا يقدم لنا قواطع البراهين على اهتمام ملوك الإسلام بالمسجد الأقصى . إن عنايتهم بإصلاحه وترميمه يؤكد أنهم كانوا يصنعون ذلك احتسابًا ومرضاة لله تعالى ، فضلاً عن أن دافعهم إلى ذلك كان أمرًا مستوجبًا منهم كملوك من المسلمين . وهو جزء لا يتجزأ من سياستهم ، ويترتب على هذا فى الفهم أن مدينة القدس بلغت بذلك شأوا بعيدًا فى أهميتها وقدسيتها على الإطلاق ولا نكاد نعرف مدينة سواها حظيت بكل هذا الاهتمام ممن كان لهم السلطان فى بلاد الإسلام على شتى العصور ، وإن التواريخ المتقاربة نسبيًا جعلت لها وجودًا فى سير وأعمال هؤلاء الملوك وبذلك خصها الله تعالى برفعة المنزلة وعلو القدر وجعل إقامة مسجدها الذى لا يمكن التفرقة بينه وبينها صنيعا عظيمًا فيه وثاقة الصلة بين الدين والدنيا على سواء ، وقد اضطررنا إلى تعداد التواريخ والدول فى مقام واحد بعد أن ذكرناها فى مواضع من قبل وسوف نذكرها من بعد وذلك ليتمكن القارئ من استيعابها فى موضع واحد بعد مروره بها متفرقة فى أشتات المواضع من كتابنا هذا .

وتعتبر قبة الصخرة أقدم أثر إسلامى فى تاريخ العمارة الإسلامية أمر بتشييدها الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، وكان موقعها مقدسًا من قبل وتقع فى و سط هضبة صخرية واسعة تسمى «الحرم الشريف» . يقع على محورها الرئيسى المسجد الأقصى .

والعمارة السائدة فيها متأثرة بطرز العمارة فى سوريا وبيزنطة والدولة الرومانية وكان سطح البناء من الخارج مغطى بزخارف الفسيفساء ولكن لم يبق منها أثر . أما داخله فلا يزال بعضه مغطى بهذه الزخارف . وألوان هذه الفسيفساء هى الأخضر والأزرق والذهبى وبعض درجات الأبيض والأسود والبنفسجى والأحمر والفضى والرمادى[٢] .

ولما قرَّ قرارُ المسلمين فى بيت المقدس ، ضربوا مسكوكات من النحاس نقش عليها محمد رسول الله - إيلياء فلسطين - محمد رسول الله ، ورسم سيف إضافة إلى كلمة إيلياء وإلى كلمة فلسطين ، وحرف «م» وهلال على الوجه الآخر للعملة وصكوا عملة

---

(١) طه الولى : المساجد فى الإسلام ص ٤٢٠ ، ٤٢٦ بيروت ١٩٨٨م .

(٢) ديوان القدس : أضواء على مدينة القدس ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، القاهرة ١٩٨٦م .

أخرى جاء على أحد وجهيها لا إله إلا الله - محمد رسول الله إيلياء، وفى عمله ثالثة لا إله إلا الله وحده - لله الملك، وفلس واف - محمد رسول الله، ضرب فلسطين بلد.

وما كان للمسلمين عهد من قبل بمثل هذه العملة الإسلامية العريقة فى إسلاميتها بما نقش على وجهها وإنما كان التداول بالدينار البيزنطى إضافة إلى مسكوكات برونزية بيزنطية أخرى ودراهم فضية ساسانية وكذلك مسكوكات فضية حميرية، وهذا ما يشير إلى أن هذه العملة التى صكت على هذا النحو إنما تعلن فى صراحة عن أن القدس إسلامية ما فى ذلك من ريب كما أنها تبين أن المسلمين استقلوا بعملتهم عن عملة غيرهم وذلك شاهد على تميزهم وظهورهم فى تاريخهم.

ومنذ الفتح العمرى لمدينة القدس، لقبها العرب والمسلمون بألقاب تعددت وتنوعت هى المسجد الأقصى والقرية والأقصى والمدينة الجديدة وهو ترجمة لاسمها الرومانى (إيلياء كابتولينا) والزيتون والساهرة والمطهر والأرض المباركة والأرض المقدسة والبيت المقدس وبيت المقدس ومقدس وبيت القدس والقدس المحروس وبيت ا لله المقدس والقدس الشريف وقدس شريف والقدس [١]. وملحوظ أن المسلمين خلعوا على تلك المدينة أعظم ما يخلع عليها من صفات ويكفينا أن نشير إلى تسميتها بالأقصى مرتين فكأن وجود المسجد الأقصى فيها هو عنوان لها أى أنه اسم على مسمى ونضيف إلى ذلك أننا نجد اسم الأقصا منتهيا بالألف قبل أن يكتب منتهيا بالياء وذلك أنه انتهى بالألف فى رسم المصحف وهذا يسمو بها ويباركها. إن ما أسلفنا ذكره من عملتها واسمها بينة تشهد على منزلتها فى نفوس المسلمين وتبين إلى أى حد بعيد اعتزوا فى حوزتهم وعنوا كل العناية بالرفع من شأنها ووضعها فى منزلتها وجعلها مفخرة لأهل لا إله إلا الله قاطبة.

وهنا ذكر الصليبيين:

فقد مضوا إلى الساحل إلى بيت المقدس، وأوهموا الناس أنهم إنما جاءوا ليستردوا ما كان فى حوزة الروم من المدن ولكن هذا الادعاء لم يجد أذنا مصغية من أهل البلاد وعرفوا أنه زور وبهتان وتقدم الصليبيون وضربوا الحصار على بيت المقدس، فجاءهم الأفضل من مصر لاستنقاذ المدينة منهم. ولكن رجحت كفة الصليبيين وعمد الفرنج إلى تقتيل المسلمين فى القدس سبعة أيام، قيل وفى المسجد الأقصى وحده قتل من المسلمين ما يربو على سبعين ألف إنسان منهم عدد جم من العلماء والعباد والزهاد. وغنموا ما لا يدخل تحت

---

(١) محمد هاشم موسى غوشه : فتح بيت المقدس، ص ١٠٢، ١٠٩، القدس ١٩٩٥م.

حصر. كما أن الصليبيين المسيحيين لم يقتصروا على إذايتهم وتقتيلهم للمسلمين بل تجاوزوا ذلك إلى جمع اليهود كنيستهم وأحرقوه عليهم، وهدموا المساجد وقبر الخليل عليه السلام وأحرقوا المصاحف.

ويقول التاريخ إنهم أظهروا تعصبا بغيضًا مقيتًا فكانوا يجبرون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالى بيوتهم، ويحرقونهم تحريقًا وينبشون قبورهم ويجرونهم على سطح الأرض ويقتلونهم فوق جثث من قتلوا.

ويقول ابن خلكان إن الملك الأفضل تسلم القدس من سقمان بن ارتق، وكان الأفضل يريد أن يتسلمها بلا قتال من سقمان وايلغازى بدون حرب فلم يجيباه، ونصب المجانيق عليها فغلب عليها.

وكان الأمير آتسز بن اوق الخوارزمى التركى انتزع القدس من المصريين قبل استيلائه على دمشق سنة نيف وستين وأربعمائة.

ثم استولى الصليبيون على القدس ثانية وأعملوا القتل فى المسلمين جميعًا ونهب العسكر الإسلامى وكان الصليبيون يغيرون على كل بلد صادفوه يقتلون من فيه ويحرقون المصاحف ويرتكبون البشاعات والشناعات فهام الناس على وجوههم لا يلوون على شىء[(١)].

وفى قول أن المسلمين على امتداد التاريخ عدّو القدس حدًا لبلادهم، وفى امكان اعدائهم أن يتسللوا منها إلى اعجاز حيث تتم لهم السيطرة على الكعبة وقبر الرسول ﷺ، وهذا ما قوى من عزيمتهم على العناية بتحصينها وضرب الأسوار حولها[(٢)].

ونحن وإن تلقينا هذا بشىء من التحفظ نقول على التقريب إن القدس كانت أشبه شىء بالرباط والرباط أشبه شىء بثكنة فيها الجند بخيولهم يرقبون العدو إذا حدثته نفسه بالإغارة على البلاد فكأن القدس ثغر.

وهذا ما يضيف فضلاً إلى ما للقدس من فضل فعلاوة على قدسيتها كان لها أهمية مرموقة فى نظر المسلمين من حيث كونها تصد عنهم عدوهم.

ويذكر بعد ذلك صلاح الدين الأيوبى وفتحه لمدينة القدس، وللعماد الأصبهانى كتاب كتبه عن السلطان صلا ح الدين الأيوبى إلى ديوان الخلافة ببغداد مبشرًا بفتح بيت المقدس

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام، الجزء الأول ص ٢٨٢، ٢٨٣، ١٩٢٥م

(٢) معين أحمد محمود ترجمت : على منتظمى : بيت المقدس دراسلام ص ١٩ تهران.

عام خمسمائة وثلاثة وثمانين للهجرة جاء فيه قوله : «الحمد لله الذى أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ومكن دينه المرتضى وبدل الأمان بالمخافة»(١) .

والمدرك من هذا النص أن صلاح الدين الأيوبى فى عداد حماة الإسلام الذين يزودون عن زماره ويجاهدون أعداءه شأن المجاهدين فى سبيل الله .

فقد حمل السلطان صلاح الدين الأيوبى على القدس ولم يكن فيها من اليهود إلا ربان واحد يدفع إتاوة للملك ليبقى فيها . ولكن لما رأى الفرنج أن المسلمين أشد قوة منهم أرسلوا صاحب الرملة إلى صلاح الدين فى طلب الأمان، ولكن السلطان أبى ذلك وكرهه كراهة شديدة لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بالمسلمين وقال باليان صاحب الرملة : اعلم أيها السلطان أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، فإذا رأينا أن الموت لا بد منه فو الله لنقتلن أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا ولا نترككم تغنمون منا دينارا، ولا درهمًا ولا تأسرون منا رجلا ولا امرأة، فإذا فرغنا من ذلك اضربنا الصخرة والمسجد الأقصى ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا إلا قتلناه. ثم خرجنا إليكم كلنا وعندئذ لا يقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء ونظفر كرماء»(٢) .

فاستشار صلاح الدين أهل مشورته فاجتمعت كلمتهم على الأمان. فقبل صلاح الدين بذل الأمان للفرنج، وقبل منهم الفداء وكان يريد أن يلقن الصليبيين درسًا فى مكارم الأخلاق وسماحة الإسلام وهو على يقين من أن أوروبا أعدت عدتها وجمعت جيوشها لفتح القبر المقدس، وتكون النهاية مأثما فى كل بيت من البيوت فى الغرب ويهب أهل أوروبا إلى جمع شملهم أكثر مما جمعوا فى القرن الماضى وتعود البلاد إلى خرابها .

على أن صلاح الدين لو أعمل القتل فى إفرنج القدس لما خرج عن مجرى العادة فى زمانه، وما قيل إنه عمل السوء لأنه بذلك يكون سقاهم بالكأس التى سقوا بها، وملحوظ أن هذا من سماحته وصفاء دخيلته وكرم خلقه مما أكسبه في الغرب سيرة عطرة وبوأه مكانًا عليا فى النفوس، وكانت سياسته سياسة رشيدة حكيمة ثبطت همة الكنسية البابوية عن شدة الرغبة فى الرحيل إلى الشرق المقدس. وفى هذا من تمجيد صلاح الدين والإشادة

---

(١) انيس المقدسى : تطور الأساليب النثرية ص ٢٩٢، ١٨٩ جـ١ بيروت ١٩٣٥ .

(٢) محمد كرد على : خطط الشام ص ٦٠ جـ٢ . بيروت ١٩٢٥ .

بحسن صنيعه يقول الشاعر :

وفيت لهم حتى أحبوك ساطيــــا ... بهم ووفاء العهد قيد المخاصم
فخانوا فخابوا فانتدوا فتلاوموا ... فقالوا خذلنا بارتكاب الجرائم
وخص صلاح الدين با لنصر إذ أتى ... بقلب سليم راحما للمسالم
فخطوا بأرجاء الهياكل صــورة ... لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم
يدين لها قــس ويرقى بوصفها ... ويكتبه يشفى به فى التمائم[١]

ومما يسترعى النظر أن المسلمين واليهود والنصارى فى القدس أيام صلاح الدين كانوا على وفاق فما نشب بينهم قتال ولا وقع خلاف فى المذهب يثير الحفيظة والحقد فى النفوس بل تسامحوا وتعايشوا فى أمن وسلام وذلك مردود إلى صلاح الدين الحاكم الإسلامى الذى يعمل وفق تعاليم وأصول الدين الحنيف. فصلح بال من فى القدس من أصحاب الديانات السماوية الثلاث.

وفى بيت المقدس أقام الربط للمتصوفة كما أسس المدارس الشافعية وفى القدس اتجه إلى المسجد الأقصى فصلى فيه، وسبح بحمد ربه واستغفر ولا غرو فهو المؤمن الموقن الذى عرف أن هذا الفتح من فضل الله على المسلمين وعليه ثم اتجه إلى قبة الصخرة وأنزل الصليب الذهبى الذى علق فوقها ووضع مكانه الهلال وأراد بعض الجند أن يشفوا غيظهم من المصلين وأن يغلقوا كنيسة القيامة وأن يحيلوها إلى مسجد للمسلمين ولكن صلاح الدين أبى ذلك لتقواه وأريحيته وأمر بأن تفتح أبواب الكنيسة للمسيحيين كما أعلن على رءوس الأشهاد أن كل من شاء أن يدخل القدس حاجا فليطمئن. وبذلك كان دخول صلاح الدين القدس أشبه ما يكون بدخولهم فى عهد عمر.

كما كان من صلاح الدين أن أرسل إلى المعتصمين بالمدينة يبشرهم أن يخرجوا سالمين كما أن كل أميرة تخرج فى حاشيتها مكرمة معززة وفرض دية على الخارجين من المدينة عشرة دنانير على الموسرين ودينار على المعوذين ولما عرف أن فقراء المدينة تضيق يدهم حتى على دفع دينار واحد فدفع من صلب ماله أربعة آلاف للفقراء[٢].

كما شيد صلاح الدين مسجداً إلى الجنوب الغربى من المسجد الأقصى سمى بمسجد النساء وأمر بإزالة الآثار المسيحية الموجودة فى مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

---

(١) محمد كرد على: خطط الشام ص ٦١، ج ٢٠.
(٢) عبد الحميد الكاتب : القدس. ص ١١٩، ١٢٠، القاهرة ١٩٩٨م.

وواقع الحال أن صلاح الدين الأيوبى يستوقفنا بما صنع فى القدس دليلاً قاطعًا على تسامحه وطيب قلبه وتقواه ويقيم الفارق البعيد بينه وبين كثير وكثير ممن سواه الذين فتحوا بيت المقدس.

ومما يروى أنه بسط رعايته وعنايته على زوجات وبنات الفرسان اللواتى هربن إلى القدس بعد أن وقعن فى الأسر وورد أزواجهن وأبنائهن موارد الهلكة فى القتال فلما فديت هؤلاء النساء، مثلن بين يدى صلاح الدين وهن يبكين جازعات. ولما سألهن ما خطبهن، وعرف ما عرف عنهن، طلب معرفة مكان سجن أزواجهن ثم أطلق سراحهم وأمر لكل امرأة منهن بمبلغ من خزانته الخاصة يتناسب مع ما كن يملكن من أرض.

ولقد غمرت الفرحة والطمأنينة قلوب المسلمين أجمعين باسترجاع الحرم الشريف وبلغ من فرط سرورهم أن نشروا هذه البشرى فى بلاد الإسلام كما أن عماد الدين زنكى زفّ التهانى فى سبعين رسالة فى ذلك اليوم الذى استردت فيه القدس وأمر صلاح الدين بحمل منبراً رائعًا للجامع الذى كان نور الدين أمر بتصميمه فى حلب قبل عشرين عاما. وفى هذا الجامع نقش على محرابه هو:

«باسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإصلاح هذا المحراب وتجديد المسجد الأقصى، بدافع التقوى، خادم ووكيل الله يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، عندما انتصر على يدى الله فى شهر الهجرة من السنة ٥٨٣، ويضرع إلى الله أن يهب له الشكر لهذه المكرمة ويجعله مشاركًا فى إسقاط الذنوب، من خلال رحمته وغفرانه»(١).

وأقام صلاح الدين فى المدينة ثمانية وعشرين يومًا أمر فيها بإزالة ما خلفه الصليبيون فيها من آثار وما ذاك إلا رغبة منه فى أن يرد عليها مظهرها الإسلامى وكان للقدس قلعة مستطيلة مبنية بالحجر للدفاع عن أحد المداخل الرئيسية للمدينة وهى مقر إقامة والى بيت المقدس فرممها صلاح الدين وزودها بالرجال والعتاد وعين فيها من يعاونه من جنود.

وهذا من الدليل أنه لم يكن هدامًا وكفى بل كان إلى ذلك مصلحًا مبقيًا على ما فى بقائه النفع.

ولقد أشرنا سلفًا إلى المدرسة الصلاحية التى كان يدرس فيها المذهب الشافعى وأقامها صلاح الدين، ونضيف إلى ذلك المدرسة الأفضلية نسبة إلى الملك الأفضل نور الدين بن

---

(١) ستانلى لين بوول: ترجمة: فاروق أبو جابر، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس ص ١٩٦، ١٩٧، القاهرة ١٩٩٥م.

صلاح الدين ووقفها على فقهاء المذهب المالكى والمدرسة الميمونية التى أنشأها فارس الدين أبو سعيد خازندار صلاح الدين، كما أنشئت المدرسة النحوية التى أنشأها الملك المعظم عيسى بن عادل ووقفها على تدريس النحو وكان هذا الملك عظيم العناية ببيت المقدس والحركة العلمية فيها فقد كان أديبًا نحويا شاعرًا صاحب ديوان وأمر بتجديد المدرسة النصرية التى تنسب إلى الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسى الشافعى وجعلها زاوية لقراءة القرآن الكريم ودراسة النحو وفى عهد الأيوبيين الذى كثر فيه إنشاء المدارس أنشئت المدرسة المعظمية والمدرسة الأمجدية والعزية والأوحدية.

وهذا يؤكد اهتمام الأيوبيين بالحركة العلمية فى بيت المقدس فضلاً عن إقامة الخوانق والزوايا التى يقيم فيها المتصوفة ومن هذه الخوانق الخانقاه الصلاحية نسبة إلى صلاح الدين وهذه الخوانق والزوايا مظهر إلى الرغبة فى الإعلاء من شأن الدين الحنيف ولا يخفى أن التصوف أقوى تيار إسلامى وهو ذروة التقوى، وفى بيت المقدس بيمارستان أنشأه الفاطميون فأمر بتعميره وحبس عليه المياه شحيحة فى القدس منذ طويل الزمان فاهتم الأيوبيون بحفر الآبار وأكثروا بإقامة الأسبلة لسقاية عابر الطريق وسكان المدينة على السواء[1].

وحسبنا هذا من قولنا عما أنجز صلاح الدين والأيوبيون من مظاهر الحضارة فى شتى جوانبها فى مدينة القدس.

أما فى عصر المماليك فكان للقدس منزلتها كمركز من مراكز الحضارة الإسلامية فبعد أن زايلها الصليبيون ارتحلت إليها أسر لا تحصى من أرجاء العالم الإسلامى فطابت لهم مستقرًا ومقاما. كما أن بيت المقدس فى عهد المماليك كانت مثابة للعلماء ولهذا ما لا يخفى من سبب، بعد أن مر بنا كيف كثرت بها المدارس وعمرت بمن يطلبون العلم فى مدارسها فى عصر المماليك. كما أن الدولة المملوكية بسطت سلطانها فى تلك المدينة وفى مناحى الحياة بها. ومعلوم أن الدولة المملوكية فى عصرها كانت قاعدة للحضارة الإسلامية. وكان المماليك متحكمين فى الأراضى الزراعية حولها كما عظم اهتمامهم برجال الدين فيها، فأسندوا إليهم مناصبهم وبذلك نشروا علمهم فى بلاد المسلمين من أقصاها إلى أقصاها. وإبان عهد المماليك نفى كثير من أمرائهم إليها فى صحبة أسرهم

(١) عبد العزيز محمود عبد الدايم: بيت المقدس فى العصر الأيوبى ٥٦٧ - ٦٤٨هـ - ١١٧١ - ١٢٥٠م (مع دراسة تمهيدية لمكانتها فى العصر الإسلامى ص ١٧٤ - ١٩٩ القاهرة ١٩٨٩م.

وأتباعهم، وهذا ما أدى إلى ازدحام تلك المدينة بالمماليك ومن هؤلاء المماليك من كان يميل إلى سكناها ليهدأ نفسا وينعم بالا بمنأى عما تموج به الحياة السياسية مما يرنق صفو عيشهم بل إن من هؤلاء الأمراء من انقطع للعبادة فيها وعاش مجاوراً متبتلاً[1] . وكأننا به آثر أن يقيم منها فى جو روحى من نور.

وقد أولى سلاطين المماليك عناية ملحوظة بالقدس، من حيث كونها مكان له عظيم القدسية لثلاث ديانات هى الإسلام والمسيحية واليهودية. وكان غير المسلمين فيها لهم كل حقوق للمسلمين فى الدولة. وذلك يتأكد ويبدو فى وضوح بالنظر فى تلك المراسيم التى كان يبعث بها سلاطين المماليك إلى نواب مدينة القدس، وقد تضمنت الحض على منح الرهبان كل الحرية فى أداء طقوسهم الدينية فى كنائسهم وعدم التعرض لهم بما يسئ إلى مشاعرهم الدينية الخاصة بهم.

كما أمروا بإعفائهم من المكوس التى تجبى من الحجاج المسيحيين عند زيارتهم لكنيسة القيامة وغيرها من مزاراتهم ومقدساتهم التى هي خاصة بهم. كما تجاوزوا ذلك فى مجاملاتهم والرفق بهم فما أخذت منهم رسوم على الأغذية التى ترد إليهم من أوروبا. كما لم تجبى منهم رسوم إذا ما سافروا داخل وخارج الدولة المملوكية. كما رعت حمايتهم من الاعتداء عليهم أى اعتداء كان فى النفس أو المال.

أما الحجاج المسيحيين ا لذين يزورون المدينة فعين لهم حرس لتطمئن نفوسهم، كما أوصى سلاطين المماليك بالرفق واللين فى جباية بعض الرسوم من القساوسة والرهبان الفقراء.

وفى عام ٨٨٠ للهجرة زار السلطان المملوكى قايتباى مدينة القدس فى رفقة من الأمراء والوزراء ورجال حاشيته وفيها أقام أياماً ثلاثة يسأل عما يواجه أهلها من مشاكل وصعاب فتصدى لحلها وجعل من نفسه محكماً فيما شجر بينهم. كما تصدق على الفقراء فيها بمال جزيل. واستجاب لمطالبهم فى عدالة وسماحة ولين جانب. كما أمر بترميم سقف كنيسة المهد ببيت لحم[2] .

وما ذكرناه فيما سبق يتضمن الحجة الدامغة على ما كان لسلاطين المماليك من تسامح غمروا به القدس ومن يسكنونها وكذا من يقدمون إليها لأداء مناسك حجهم، هؤلاء

(١) د. على السيد على : القدس فى العصر المملوكى. ص ٧٣، ٧٤. القاهرة ١٩٨٦م.

(٢) د. عبدالمعطى البيومى : القدس في العلاقات المملوكية الفرنجية. ص ٣١. القاهرة ١٩٩٩م.

السلاطين كانوا يأتمرون بأمر الدين الحنيف كما لم يخف عليهم أن القدس مدينة لها حرمتها وقدسيتها مما يستلزم إليها نظرةً تتفق مع منزلتها الدينية عمومًا وبالتالى لرعاية جانب ساكنيها، إنهم جعلوا هذا أصلاً من أصول سياستهم إبان عصرهم وكانوا ينفذون سياستهم على نحو رسمى لا وفق هوى كل سلطان على حده.

وللكلام أن ينساق بنا إلى العهد العثمانى: وأول ما يقال فى هذا الصدد أن السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠م) ضم إى مملكته عديدًا من البلاد العربية، تمتاز بالطابع الإسلامى العريق، و يتزايد فيها المسلمون وتعد العالم الإسلامى السنى الذى يجابه القوى المسيحية على كل الجبهات.

ولقد درء العثمانيون الخطر البرتغالى عن البلاد الإسلامية فقد كانت خطتهم مدبرة مبيتة على الاستيلاء على مكة المكرمة والمدينة المنورة ثم الزحف إلى بيت المقدس والاستيلاء على المسجد الأقصى[١] بأهميتها كمدية يغلبون عليها مع أهمية مكة والمدينة وبعد عودة سنان باشا من غزة قصد مدينة القدس، وبعد أن أصدر السلطان سليم أمره بقتل العصاه والمتمردين فى مدينتى غزة ورام الله، ثم مضى إلى القدس وحيث زار مزارات الأنبياء عليهم السلام والصخرة المشرفة كما زار مرقد سيدنا إبراهيم عليه السلام، ولما زفت إليه البشرى بفتح القدس استبشر وسر سرورًا لا مزيد عليه من جنوده فأنعم عليهم وأحسن جائزتهم، ولما قدم إيه مشايخ العرب مفتاح القدس اعلنوا ولائهم ومبايعتهم للسلطان العثمانى وقدموا إليه فروض الطاعة.

وقدم من قبل شاه ايران سفيريزف التهانى. كما أن قدم مدينة القدس ملتمسًا اعفاء بلاده من الجزية السنوية المفروضة عليها فتم هذا الإعفاء وعقدت معاهدة بين الدولة العثمانية وأسبانيا على هذا[٢].

وهذا كله يستدل به على منزلة القدس عند سلطان العثمانيين وكيف طاب نفسا بفتحها بالذات، وكيف سر حين استقبله مشايخ العرب فيا بالإجلال والاعظام. بل بالطمأنينة على أن سلطان المسلمين قد فتحها فحماها ممن يغير عليها من اعداد الدين و كيف ان خبر هذا النصر بلغ ايران التى ارسلت من قبل الشاه سفيرها لزف التهانى مع أن الدولة الفارسية دولة سيعية بتمام المعنى ولكن إسلامية القدس كانت لها الرجحان والصدارة. أما سفير

---

(١) أكمل الدين إحسان: العرب فى ظل الرابطة العثمانية ص ٨٧جـ٢ ترجمة د. صالح سعداوى. القاهرة ١٩٩٣م.
(٢) كامل باشا: تاريخ سياسى دولت عليه عثمانية ١٥٦ , ١٥٧، ١٦١، استانبول، ١٣٢٧هـ.

أسبانيا فعبر عن تحين فرصة بلاده لنيل ما تطلب بمناسبة استيلاء العثمانيين على القدس.

وقد أولم سكان القدس للسلطان العثماني سليم الأول وليمة أقاموها في الفناء الواسع عند الصخرة.

ثم تبوأ العرش بعده ابنه السلطان سليمان القانوني وأنشأ المدرسة الرصاصية ومسجد الطور كما أمر بسك عملة تحمل اسمه وفرضت على الحجاج المسيحيين رسوم يدفعونها عند ولوجهم كنيسة القيامة وفي عهد السلطان العثماني أحمد الأول ابن محمد الثالث (١٦٠٣م) حرم بيع الخمور في القدس تحريمًا باتًا[١] وأمر هذا السلطان بتحريم الخمر في تلك المدينة يستبين منه أنه أراد أن يفرغ عليها طابعًا إسلاميًا دون أى طابع آخر وأنه إنما أراد مرضاة الله.

ومن المعلوم أن أهل القدس استقبلوا العثمانيين بكل إعظام وترحاب ذلك أنهم أدركوا أنهم مقبلون على عصر جديد من الحضارة والازدهار بعد أن أصبحت دولة المماليك على حفير هار فلقد انقطع جريان هبات الأوقاف كما كسدت التجارة وساءت الحال كثيرًا بإغارة قطّاع الطرق من البدو وترويعهم للآمنين ولما قدم العثمانيون تغير الحال غير الحال وأتت الحقول أكلها بعد أن ضربها البدو من قبل غير أن الأتراك لم يسكنوا القدس وإنما سكنها منهم الحكام والموظفون وكان لهم عدد غير كبير من الجند مستقرون في قلعتها ولكن في عهد السلطان سليمان القانوني بن السلطان سليم الأول فقد أمر هذا السلطان ببناء أسوار للمدينة، قيل بعد أن رأى فيما يرى النائم أن الرسول ﷺ أمره ببناء الأسوار والحصون لتحصين القدس ومن هذه التحصينات سور أحاط بالمدينة يبلغ الميلين طولا وبهذا السور أربعة وثلاثون برجًا وسبع بوابات وبذا أصبحت مدينة القدس مدينة حصينة بتمام المعنى لأول مرة منذ أن لم يكن لها هذه الصفة قبل ثلاثمائة عام. ومضى سليمان القانوني في خطط الإصلاح فأقام نافورات وشق القنوات والبحيرات كما أنشأ بحيرة تنساب منها المياه للري والشرب وكان متسامحًا فأذن لليهود المهاجرين من أسبانيا بسكنى المدينة وذلك في عام ١٤٩٢م وتم التعايش في سلام بين اليهود وغيرهم كما تزايد عدد سكان المدينة في منتصف القرن السادس عشر فبلغ ثلاثة أضعاف ما كان وراجت التجارة وكثرت الأسواق وعمرت بالسلع وظهرت صناعات لم يكن لها من قبل وجود مثل صناعة

---

(١) عارف باشا العارف : تاريخ القدس ص ١٠٣ القاهرة ١٩٩٤م.

الجلود والصابون . وكثرت الصناعات والحرف فبلغت أربعين طائفة ولكل طائفة يرأسها نقيب وكذلك كان للفنانين طوائف خاصة بهم مثل طائفة المغنيين والراقصين . ومن بعد أصبحت القدس متصرفية بعد أن كانت سنجق وذلك مردود إلى زيادة سكانها وازدهار الحياة فيها وأهميتها الدينية .

واهتم السلطان سليمان بالحرم الشريف وأمر بترميم الجزء الخارجي من قبة الصخرة، وغلف الجزء الأسفل بالرخام، وزينت قبة السلسلة ببديع الزخارف، وأنشأ نافورة عظيمة فى الفناء الأمامى للمسجد الأقصى وأعيد بناء ما تخرب من أوقاف الحرم والمدارس وتنازل عن حقه فى رسوم دخول الحجاج وذلك لتمويل تلاوة القرآن فى قبة الصخرة لمدة عام واحد . كما قامت زوجته الروسية الأصل واسمها ركسلانه وتعرف عند الترك بحرم سلطان بإقامة تكية فى القدس عام ١٥٥١م، ومجمع كبير يشمل مسجداً ورباطًا ومدرسة وخانًا ومطبخًا يمد طلبة العلم والمتصوفين والفقراء بوجبات مجانية . كما أن حياة الاستقرار التى عمرت بها المدينة حسنت أوضاع الذميين . كما أن الحرية التى كانت لليهود فى المدينة كانت موضع عجب لدى الحجاج المسيحيين القادمين من أوروبا . ولقد تقلد اليهود بعض المناصب الحكومية فى المدينة وما خطر مثل هذا على بال أحد فى أوربا، كما كانت المحاكم تقبل شهادة اليهود[(١)] .

ولا مراء فى أن فضل العثمانيين على المدينة غير مجحود وإنما اهتم هؤلاء السلاطين بها بدافع دينى لاشك فيه وهذا من شأنهم معلوم فهم السلاطين المسلمون المصلحون الذين كانت عهودهم عهود ازدهار للإسلام فى أرجاء الأرض واستحقوا بذلك أن يعرفوا بحماة الإسلام واستحق سليم الأول لقب خادم الحرمين الشريفين .

والنقلة بعد ذلك إلى عصر محمد على فلما رفع والى مصر محمد على راية العصيان على تركيا فى عهد السلطان محمود الثانى، أمر ولده إبراهيم باشا على جيش عظيم إلى الشام فاحتل القدس عام ١٨٣١م . وكاد يحتل استانبول لولا تدخل الدول الأوروبية التى كبحت جماحه ولكن تم الصلح بين الفريقين على أن تكون القدس فى حوزة البيت العلوى .

ولكن زايل القدس إبراهيم باشا بعد بضعة أشهر وقامت الثورة فيها وذلك أنه أمر بتجنيد من فى القدس من الفتيان كما أمر بجمع السلاح من سكان المدينة ونزع النفوذ من

---

(١) كارين ارمسترونج ترجمة د. فاطمة نصر د. محمد عنانى : القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد ص ٥٢٥، ٥٣٨ القاهرة ١٩٩٨م .

جميع الزعماء وأصحاب الإقطاع كما أصدر الأمر بنفى كل من لم يصدع بأمره فطاب اليهود من سكانها بذلك نفسا والمسيحيون ولكن اشتد غضب المسلمين وجعل الأتراك يحرضون المسلمين على الثورة فاندلعت نار ثورتهم.

ولكن زعماء المسلمين فى القدس تحينوا فرصة غيبة إبراهيم باشا إلى يافا فعقدوا اجتماع ضمهم جميعًا وقرروا إعلان الثورة وقيل إن هؤلاء الثوار كانوا جميعًا شاكى السلاح وعددهم عشرة آلاف فشد هؤلاء على جنود إبراهيم باشا فى القلعة ودارت رحى القتال بين ساكنى القدس وبين جند إبراهيم باشا وكادت الدائرة تدور فى شوارع المدينة على جند إبراهيم باشا ولكن أشيع أن إبراهيم باشا يجيش جيشًا عظيمًا يغير به على القدس وبذلك خارت عزيمتهم وفتت تلك الإشاعة فى عضدهم فغلب جند إبراهيم باشا عليهم كما أن جنده هدموا الحوانيت ونهبوها، كما أغاروا على الأموال شأن المنتصرين. وزاد الجند من غلوائهم من نشوة نصرهم فقبضوا على أعيان المدينة وسجنوهم فى القلعة، ولكن مدينة نابلس أمدت من يقاتلون فى القدس بألفى مقاتل لشد أزرهم. وانزوى من يحكم القدس من جند إبراهيم على نفسه فانزوى وجنده فى القلعة طلبًا للعافية ولكن عاد المتقاتلون إلى قتالهم فى المدينة وكان هذا القتال بين سكانها والجند وساد الهرج والمرج وما تبع ذلك من مجاعة ومخافة. وطلب إبراهيم باشا من أبيه محمد على باشا مددًا لجيشه فأمده بتسعة آلاف مقاتل ولكن كانت الحرب سجالاً بين ثوار القدس وإبراهيم باشا وأرسل محمد على باشا من مصر مددًا عظيمًا وأبحر محمد على باشا من الاسكندرية والتقى بابنه فى يافا وتشاوروا فى أمر ثوار القدس ولكن اتفق أن ثورة القدس خبا أوارها دون قتال ولكن عادت الثورة من جديد فأمر بضرب عنق اثنين من زعمائها. كما أن حال هذا البلد بلغ المدى فى السوء فقد انتشر وباء الكوليرا فيها فأودى بحياة ناس كثيرين. وأقام إبراهيم باشا فى القدس عشرة أعوام ثم عاد إلى مصر ومن الشعراء من مدح إبراهيم بقصيدة عصماء لا نذكر قائلها وإن كنا نذكر منها أبياتًا ثلاثة:

عرج أخا البأساء نحو بنى العلا والثم ثرى أعتابهم متذللا
لو قيل إبراهيم جاء محاربًا سقطوا ولو كان الكلام تقولا
فى عهده ترعى الضوارى والظبى وبعهده أمسى الزمان مجملا

ونحن نورد هذه الأبيات متحفظين والأرجح أنها قيلت فى إبراهيم باشا وإن كنا لا نملك قطع الشك باليقين وفى عهد إبراهيم أنشأ جانب من الثكنات عند باب الخليل وجددت

عمارة القصر القديم وأنشئت طاحونة هوائية وهى الأولى التى يطحن فيها المقدسيون قمحهم وبنيت الزاوية الإبراهيمية الكائنة فى الشمال من ضريح النبى داود على جبل صهيون وأنشئت سلسلة من القلاع لحراسة الطريق بين يافا والقدس وتطورت البلاد على عهده تطوراً ملحوظًا فقد منع الرشوة واهتم بتمهيد الطرق وسمح للأجانب من التجار أن يزاولوا التجارة فى القدس. وألغى الضريبة التى كانت حراس الكنيسة يجبونها منذ عهد صلاح الدين الأيوبى، وشجعّ الزراع على غرس الأشجار المثمرة. وأدخل على البلاد أنواعًا جديدة من المحاصيل الزراعية وجلب العديد من البدو وأسكنهم فى المدينة وساوى بين المسلمين واليهود والنصارى فأبطل عادة ترجل اليهود والنصارى عند مرورهم بالمسلمين. إلا إنه كلف المسيحيين بدفع الجزية لقاء تجنيد المسلمين[١]. ومما نلتفت إليه أن إبراهيم باشا أقام فى القدس عشر سنين ولنا أن نستدل بذلك على أنه عدَّها أشبه شيء بعاصمة لإقليم له فيه الحكم ولم يكتف بفتحها والاهتمام بإدخال الإصلاح على آثارها ويمكن القول إنه آثرها على كل البلدان التى تم له فتحها مما يجعل لها تاريخًا متميزاً لها إبان حكمه. قضى إبراهيم باشا فى الحكم فى القدس من عام ١٨٣١م إلى عام ١٨٤١م وكانت أعوامًا تموج بالحروب والثورات ولذلك وجد أهلها القرار والأمان بعد أن جلى المصريون عنها وأيقنوا أن مدينتهم عادت إلى العثمانيين وهذا يبين الفرق بين احتلال المصريين والعثمانيين. ونعود إلى العثمانيين بعد جلاء إبراهيم باشا مع المصريين فنقول إن السلطان عبدالمجيد العثمانى الذى تولى الحكم فى عام ١٨٣٩م. نظم المحاكم وسن قانون التجنيد الإجبارى وأمر بالمساواة بين سكان القدس من رعاياه وبين رعايا الدول الأجنبية وقضى على الرشوة التى كانت متفشية وكان عدد سكان القدس آن إذ عشرين ألف منهم ألف من المسيحيين وفرضت الجندية على المسلمين والمسيحيين جميعًا.

واهتم هذا السلطان بإصلاح العمائر فأنفق مالاً جزيلاً على هذه العمائر.

ولما قامت الحرب بين روسيا وتركيا فى القرم وكان النصر حليف الترك، سُر أهل القدس بهذا النصر، وكان لأهل القدس شخصيتهم المستقلة والاعتزاز بها، ومن الدليل على ذلك أنهم ثاروا على متصرف وهو حاكم المدينة وهو من قبل العثمانيين لأنه قبل من انجلترا وفرنسا أن ترفع أعلامهما على قنصلياتهما. وقيل إنهم مزقوا العلم الفرنسى عام

---

(١) عارف باشا العارف: تاريخ القدس ص ١١٤ القاهرة ١٩٩٤م.

١٨٤٣م فكأن أهل القدس لم يكونوا خاضعين خانعين لحكم دولة العثمانيين فلقد عارضوها فى سياستها.

استشعر أهل القدس أن لهم حرية التصرف فى بلدهم فجعلوا يبنون المنازل خارج سورها وفى عهد السلطان عبدالعزيز عام ١٨٧١م جعلت القدس تتصل بتركيا رأسًا. وقام أهلها بإصلاحات معمارية خاصة بهم وقلدوا العثمانيين فى لبس الطربوش وتزايد عددهم فأصبحوا ثمانية وستين ألفا وفى عهد عبدالحميد الثانى ١٨٧٦م وفى عام ١٨٧٧م أنشئ مجلس المبعوثين وهو مجلس شورى ومثل القدس فى هذا المجلس أحد رجالاتها. فكأن القدس أتمت صنع تاريخها بنفسها مستشعرة قوتها وأهميتها بين البلاد وذلك على عهد العثمانيين، أما أن تبلغ بها الجرأة إلى حد أن تعارض الحاكم العثمانى فى رفع العلم الفرنسى والإنجليزى فشاهد بأنها إنما تعتز بإسلاميتها ولا تقبل شعاراً لغير المسلمين أن يبدو فيها وكل هذا من البرهان على أنها كانت تعتز بكيانها على التدريج مستشرفة أياما مقبلة تحظى فيها بمكان مستقل لها. إنها فى عهد محمد على أى في عهد المصريين لأن محمد على كان صاحب مصر بعد أن تحدى تركيا واستقل بها عنهم وملحوظ أنهم كانوا أميل إلى العثمانيين ولعل لبسهم للطربوش يعد شعاراً جديداً له يرحب بتبعيتهم للعثمانيين. وفى عهد السلطان عبد الحميد الثانى أصدر أمرًا يسمح لليهود أن يدخلوا القدس للعبادة ليس إلا ولكن شريطة ألا يبقوا فى المدينة ما يزيد على ثلاثة أشهر ونرى فى هذا تقييداً يشير إلى استبعاد اليهود عن سكنى القدس كما أصدر قانونًا يمنع تجارة الرقيق. ومد خط السكة الحديد من يافا إلى القدس ١٨٩٢م كما أقيم برج جديد على السور ورم السبيل المعروف بسبيل قايتباى ١٨٨٢م ومنع إدخال التليفون واستعمل اللاسلكى، ورصفت شوارع المدينة رصفًا جديداً وبنيت المدرسة الرشيدية وأنفق مالٌ جزيل على عمارة الحرم القدسى. وفى عهد عبد الحميد كذلك زار القدس امبراطور ألمانيا غليوم. واهتم الأوربيون اهتمامًا ملحوظًا بالقدس فتنافسوا فى إقامة قنصليات لهم. وكان فى المدينة عدد الموظفين الاتراك قليلاً ولكن العرب فيها كانت لهم السيطرة والرأى ومرجع الرأى إليهم، ومن ثمة يبدو جليًا أن القدس جعلت تقيم لها كيانًا عربيًا على التدريج ولما قامت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٧ انهزم الاتراك فيها فخسروا معظم ما كان لهم ومنه القدس فاحتلها الانجليز ١٩١٧م.

ونلتفت إلى عروبة القدس فى العهد العثمانى فنجد أن للقدس قاضيا عربيا واسع النفوذ جليل القدر مسموع القولة فكان يحكم فى جميع الشئون المذهبية إضافة إلى حكمه فى مسائل الشرع وشئون الأوقاف وكل ما يندرج تحت هذا ويتصل به .

وثمة ملحظ آخر لعمل قاضى القدس فكان يستقبل قناصل الدول الأجنبية فى ديوانه ويتطلع على أوراق اعتمادهم ويعترف بتمثيلهم لبلادهم فى بلده وهو مانحهم إذنه بمزاولة أعمالهم وعليه واجب حمايتهم وهذا ما يؤيد أن القاضى العربى المقدسى كانت له كذلك صفة سياسية وأن تكون هذه الصفة السياسية لرجل الشرع أكيد الدليل على أن القدس كانت عربية إسلامية بكل ما تتسع له الكلمة من معنى، كما أن الأمر كله كان تحت نفوذ الزعماء وأصحاب الإقطاع من المشايخ . وفى عام ١٨٤٠م كان فيها مجلس مؤلف من عدد من وجوه المدينة وممثلى طوائفها كما كان لواء القدس فى البرلمان العثمانى يمثل بثلاث نواب، وكان قاضى المسلمين يحدد أسعار السلع ليضمن للناس العيش الرغيد، وكانت تلك المدينة مركزًا تجاريًا هامًا فقد كانت تصدر الصابون إلى مصر والقمح إلى إنجلترا وبعض البلاد الأوربية، وهذا كله يشهد بأنها كانت مدينة عربية أصيلة ولكن فى أواخر عهد الأتراك استشعر أهل القدس نزعتهم القومية فتألفت فيها جمعيات عربية ترمى إلى الاستقلال عن العثمانيين ولما أيقن الأتراك هذا من شأنهم اعتزموا أن يضربوا على أيديهم ويخمدوا ثورتهم فعهدوا إلى أحد قوادهم جمال باشا، فألف ديوانًا سيقَ إليه زعماء حركة العرب من سكان القدس فحوكموا ونفذ فيهم أحكام بالسجن والقتل، وقام بالثورة من يدعى الشريف حسين بن على فانضم إليه وآزره العرب من جميع البلدان ومنهم الفلسطينيون الذين فروا من الجيش التركى وانضموا إليه وانضم منهم أيضًا فريق إلى الجيش الإنجليزى محالفه وحصل الشريف حسين من القائد الإنجليزى مكماهون على عهود رسمية باستقلال بلاد العرب إذا انتصر الإنجليز، وانتصر الإنجليزواحتل الجيش البريطانى القدس فى عام ١٩١٧م، بعد أن غلب عليها عنوة وكان قائد الجيش إدموند اللنبى .

أما احتلال اللنبى للقدس فى هذا التاريخ يعد نتيجة لمقدمة فقد التقت إنجلترا بزعماء الحركة الصهيونية وفرنسا وخططت لإقامة قاعدة استعمارية صهيونية على أرض فلسطين وانتهى ذلك بوعد بلفور ١٩١٧م فقد أعلن فى صورة خطاب من وزير الخارجية البريطانى إلى المليونير الصهيونى لورد روتشتلد جاء فيه : «إن حكومة جلالة الملك تنظر بارتياح إلى

إقامة وطن قومى للشعب اليهودى وسوف تسعى مسعاها وتبذل كل ما فى وسعها لتحقيق هذا من مشيئتها، ولكن على أن لا يكون فى ذلك مضرة تمس الحقوق الدينية والقانونية لغير اليهود فى هذه المنطقة ولا بالحقوق السياسية لليهود فى أى دولة يسكنونها أو يقيمون فيها»، وكان الوعد فى ٢ نوفمبر ١٩١٧م، واحتلال الانجليز فى ٩ ديسمبر ١٩١٧م.

أما احتلال القدس بتمامها فكان فى عام ١٩١٨م، وفى أوائل عام ١٩١٩ قرر المؤتمر القومى الذى انعقد فى القدس التمسك بعروبة القدس، وماجت القدس بالإضطرابات ١٩٢٠، وفى عام ١٩٣٣ بدأت العصابات الصهيونية تقوم بنشاطها وقامت الثورة العربية ضد الإنجليز فى عام ١٩٣٦م. ودامت ثلاث سنوات وفى مدينة بلودان بسوريا عام ١٩٣٧م انعقد مؤتمر عربى من أهم قراراته عدّ فلسطين جزءًا لا يمكن أن ينفصل عن الوطن العربى والاعتراض على إقامة دولة يهودية فيها، وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها. تأتىّ للصهاينة بقوة السلاح أن تنتزع ما تبقى للعرب وحققت نصرًا على الجيوش العربية المتفرقة عام ١٩٤٨م.

وشهد العالم بعد مرور ١٨١٣ سنة دولة إسرائيل بعد أن محا هدريان عام ١٣٥م أورشليم من الوجود. وأعلن الصهاينة اليهود فى أرجاء العالم بأن يهاجروا إلى فلسطين وإقامة الدولة الصهيونية وتحقيق حلم الأجيال فى استرداد أرض إسرائيل، واشتركت فرنسا وإنجلترا مع إسرائيل فى عام ١٩٥٦م واعتدت على الدول العربية وفى يونيه من عام ١٩٦٧م قامت بالاعتداء على الدول العربية وهى مصر وسوريا والأردن وفى يونية خسر العرب المعركة الأولى ولكن العرب لم يلقوا بأسلحتهم بعد. (١)

ونعود إلى القدس ومسجدها الأقصى. فما من ريب فى رفعة قدر هذا المسجد عند المسلمين فى المشارق والمغارب وذلك لأسباب من نافلة القول أن نردد ذكرها لأنها متعارفة معلومة، واليهود اليوم يقولون أن هذا المسجد يقع فى مكان يطلقون عليه اسم «معبد صهيون» أو «هيكل سليمان» والصهاينة لهم الرغبة فى هدم هذا المسجد وإعادة بناء الهيكل فى موضعه وهم يجهرون بهذه الرغبة فإن حاخامهم الأكبر «مردخاى اليهود» يقول: - «إنما نحن شديدو الرغبة فى هدم هذا المسجد ومحوه من الأرض محوًا لنقيم فى مكانه هيكل سليمان» وهذه المقولة عينها يرددها حاخام وإرهابى آخر يدعى «مائير كاهان» الذى يضيف إلى ذلك إعلانه الرغبة فى إزالة قبة الصخرة وقد أقسم بالله جهد أيمانه ليبذلن كل

---

(١) د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة. ص ٢٧٨، ٢٧٩. القاهرة ١٩٧٤م.

ما فى وسعه لتحقيق ذلك، ووقع ذلك موقع القبول وطابت به نفس الصهاينة ففى ٢١ أغسطس ١٩٦٩م أوعزوا إلى من يدعى «دنيس روهان» أن يضرم النار فى المسجد الأقصى. وفى إبريل من عام ١٩٨٠ حاول الإرهابى الصهيونى الأشهر «مائير كاهان» بتفجير مادة شديدة الانفجار فى المسجد. وفى ٨ إبريل من عام ١٩٨٢ قامت منظمة إرهابية تدعى «كاه» بزرع كمية كبيرة من المتفجرات على مدخل القدس، ولكن القائمين على حراسة المسجد أبطلوا مفعولها قبل أن تنفجر وبذلك ردّ الله سهمهم فى نحرهم. وفى العاشر من إبريل من عام ١٩٨٢م قامت جماعة صهيونية إرهابية من قبل «مائير كاهان» بمحاولة اقتحام المسجد وفى صد المقتحمين استشهد اثنان من المصلين فى ساحة المسجد، كما ثبت أنهم حفروا نفقًا تحته للوصول إليه وكان فى ٢١ مارس عام ١٩٨٩م ولكن حبط عمل المعتدين.

وفى ٢٧ فبراير عام ١٩٨٤م حاول إرهابيون مسلحون دخول المسجد من باب الرحمة ولكن رجال الأمن صدوهم وأبطلوا كيدهم بعد أن تم قتل الفلسطينيين قتلاً عاما الذين وجدوا هنالك. وفى ١٤ يناير ١٩٨٦م شاءَ جماعة من أعضاء الكنيست دخول المسجد تحت حراسة من الجند ولكن الشباب المنتسبين إلى الحركة الإسلامية غلقوا أبواب المسجد فما تحقق للراغبين الأمل فى دخوله. ولقد حاول أعضاء الكنيست غير مرة أن يدخلوا المسجد ولكن هيهات. وبعد تلك المحاولات التى خابت والجهود التى ذهبت سُدىً شحذ اليهود الصهاينة عزائمهم ونشروا جنودهم خارج المسجد ليتحكموا فى دخول المسلمين إلى المسجد واستطاعوا أن يمنعوا الشباب المسلمين من دخوله نكاية فيهم وشفاء لموجدتهم وأدى الصدام بين الفريقين إلى جراح مشخنة. وفى ٨ أكتوبر ١٩٩٠ هجم المعتدون على المسجد مستندين إلى بطش السلاح فانجلى هذا الهجوم عن مقتل ثلاثين شهيدًا ممن دافعوا عن حرمة مسجدهم أما الجرحى فبلغوا ثمانمائة، وهذا كله ساطع البرهان على موقف الصهاينة من المسجد الذى حماه الله من عدوانهم الأثيم وكان الغرض من ذلك هدم مقدسات أخرى وزعزعة أسس أماكن أخرى تمهيدًا لهدمها فيما بعد ولكن ما شاء الله تعالى كان رغم تكرار العدوان.[1]

إن دولة إسرائيل يمكن أن يطلق عليها أكثر من اسم كدولة القراصنة ودولة الإرهابيين

---

(1) Mektup Dergisi, 559 - 14 Kasim (istanbul 1996).

وقاعدة الإرهاب. والمسلمون يعدونها بحق دولة إرهابية فهى دولة أسسها إرهابيون استعماريون وعلينا نحن المسلمين يجدر بنا الجهاد لتخليص المسجد الأقصى من الاحتلال. إن إسرائيل تقوم على مبدأ الاستيلاء على الأراضى الإسلامية التى تقع فى منطقة البحار السبعة ومنذ عام ١٩٤٨ إلى يومنا الحاضر توالى إسرائيل عدوانها لتحقيق هذا الهدف الذى ترمقه على الرغم من وجود منظمة إسلامية تنبرى لها وتحول بينها وبين ما تبغى وهى منظمة حماس. إن إسرائيل تحاول جهدها أن تقضى على الأوقاف الإسلامية فى فلسطين ولكن ظلم اليهود ليس له من دوام.

إن ظلم اليهود لا يشمل البشر وحدهم بل ينال كذلك آثار المسلمين ومقدساتهم لقد خربوا المقابر فى القدس، وما يسمى حائط المبكى هو حجتهم فى الاستيلاء على المسجد الأقصى ويقولون أن حائط المبكى هو الأثر الوحيد الباقى من آثارهم.[١]

ولا شك أن هذا زعم باطل ورأى لابد له من تجريح فلا ربيع من زهرة واحدة كما يقول المثل الفارسى وإن أثرًا واحدًا لهم لا يبرر حقهم فى الإستيلاء على المسجد الأقصى الذى عرفنا ما عرفنا عنه من تاريخ مقدس للمسلمين على امتداد عصور تاريخهم.

نحن فى هذا الصدد لا نرغب فى حديث طويل قد يكون الحديث الطويل مملول أى أننا لا نرغب فى التعريف بما سبق ذكره وعرفه تاريخ الإسلام بحذافيره فى عهد الرسول ﷺ رلكن لا بأس من أن نكمل ذلك بالتعريف والإيضاح فى عصور تلت عصر النبى ﷺ فنقول إن ديار بيت المقدس مركز سياحة صوفية إسلامية ومسيحية على حد سواء

فمن المعلوم أن رابعة العدوية تلك المتصوفة الأولى قد زارت القدس وتلى تلوها سائحات من الصوفيات المجهولات لا علم لنا بشأنهن واسمهن على التحديد مثل (طافية) و(لبابة) إلا بعضهن اللائى ذكرهن ابن الجوزى، كما أن الشيخ عبد الغنى النابلسى الصوفى قصد من سوريا مع بعض الصوفية بيت المقدس لزيارتها، وكذلك قدم من مصر الصوفى الأشهر ذو النون المصرى إليها والتقى فيها برابعة العدوية، ومن قول ذى النون المصرى عند الصخرة: (كل عاص مستوحش، وكل مطيع مستأنس، وكل خائف راج طالب، وكل قانع غنى، وكل محب ذليل). هنا نجد كيف أن هذا الصوفى الواصل يموج قلبه بالإيمان حين وجوده فى القدس ويفيض روحانية بمثل هذا الكلام بعد أن حركها وقوفه بالصخرة كما قَدِمَ من العراق أبو بكر محمد بن أبى بكر الجرجانى وأبو محمد سعد بن

(1) Faruk kose: Mescid-i Aksa Davsi. Mektup Dergisi, ss 16- 18 kasim, istambul 1996.

السمعانى إلى القدس لزيارتها ولم يفترقا حتى عاد إلى العراق، كما شهد القدس من الصوفية عبد الله بن عامر العامرى وأبو عبد الله محمد بن محمد، وأبو الحسن على بن محمد البغدادى. وفى الحجاز أورد عبد الله بن المبارك أنه مر بامرأة وهو فى طريقه إلى الحج، وسألها: أين تريدين؟ فقالت (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) فعلم أنها قضت مناسك الحج وتريد بعد ذلك بيت المقدس وهذا كله شاهد صدق بأن القدس كانت مهوى أفئدة المتصوفة وهم من هم فى تقواهم وتمام إيمانهم وكان هذا دأب المتصوفة القادمين من سوريا ومصر والعراق والحجاز وغيرها من الأقطار العربية. وكثيرًا ما كانوا يتفقون على مكان يجمعهم فى القدس ليأخذوا بأطراف الأحاديث بينهم ثم يقصدون بعد ذلك الحجاز يأُمُون بيت الله العتيق فى مكة، أو ليشتركوا فى جهاد فى سبيل الله وهم منطلقون إليه من أرض القدس. فكأن التصوف وأصوله وتعاليمه والجهاد فى سبيل الله كان سببًا فى اجتماع الصوفية وتتمة لأداء المناسك الدينية عند طائفة من المسلمين اشتهروا بالإيمان والورع والتعبد كما أن الدكتور جمال حمدان أضاف سببين آخرين هما الجوار والدفن فى القدس، وكان مثل هذا لدى المسيحيين. (١)

وهذا كله لا يدع ظلاً من الشك عند من له مسكة من فهم خاصًا بالأولوية والصدارة التى للقدس وإنه شمس ساطعة أمام الحق أمام شمعة عند من يتكلفون ويتعسفون ويعتصرون الصخر.

وفى مقال لمن يدعى سراب ياووز بعنوان القدس وحديث عن المدينة يعقد فيه الصلة بين الشرق الأوسط والتاريخ والجغرافيا ويقصد بذلك الزمن الذى فيه سفكت دماء الأبرياء وبنى فيه هيكل لتذبيح الأبرياء على امتداد العصور ويشير إلى أقدام الغرباء الذين وطئت أقدامهم هذه المنطقة المقدسة وصوبوا بطش سلاحهم إلى أبنائها، ولكن لما تحدث هذا الكاتب عن القدس و المدينة وقَرَنَ بينهما وكان من باب أولى بين فلسطين والمدينة، فما من ريب من أن القدس تخص الأمة الإسلامية بتمامها وهى كمدينة رمز للحضارة والمدنية الإسلامية، وهذا ما ينبغى التنويه به والتنبيه عليه بين الفينة والفينة حتى لا ينسى المسلمون قضيتهم هذه الهامة التى على جانب عظيم من الأهمية. ويترتب على ذلك أن المسجد الأقصى فى يومنا هذا له هويته الإسلامية وحضارتها فى وقت واحد معًا. (٢)

---

(١) فؤاد إبراهيم عباس: موسوعة بيت المقدس ص ٦٩ - ٧١. القاهرة ٢٠٠٠.

(2) Serap Yavaz : Mektup, Dergisi SS. 2 - 3- Kasim Istanbul, 1996.

إن تلك المدينة الجريحة أقدم الأماكن فى التاريخ لها مالها من رفعة المكانة عند أصحاب الديانات السماوية ولذا كانت محط نظر الدول التى تحرص على التوسع وتسعى إلى السيطرة على مناطق جذب فى العالم، لقد عرفنا كيف تعاقب على حكم هذه المدينة ما تعاقب من دول قديمًا وحديثًا على امتداد التاريخ، وعرفنا كيف أن من الدول القديمة من عصفت بهذه المدينة عصفًا وسوتها بالأرض هدمًا وكيف أن بعض الصليبيين قاموا بشى لحوم المسلمين وأكلها ولكن صلاح الدين أصلح من شأن هذه المدينة ومن بعده العثمانيون.

كما عرفنا كيف هدم المسجد الأقصى ثم أعيد بناؤه إلى أن قام الخليفة الأموى بإعادة بنائه فبقى على هيئته التى نشاهدها اليوم له. ثم استقرت القدس منذ استيلاء السلطان العثمانى سليم الأول ودامت على هذا من شأنها طيلة أربعمائة عام، ويقول «موشى شاريد» أحد رؤساء الوزارة فى إسرائيل فى كتاب له عنوانه «القدس» ما يلى: (لم ينل الإسرائيليون كبشر من الاحترام مثل ما نالوا فى عهد الحكم العثمانى)[(١)] . ويتضح من كلام هذا الكاتب كيف أن العثمانيين بالذات أجلوّا هذه المدينة إجلالاً وصرفوا عنها كل ما وقع فيها من ضروب الشر والذل وذلك لأنهم مسلمون موقنون ولم يخفى عليهم ما لهذه المدينة من مظهر إسلامى واضح فاعتزوا بها على أنها مدينتهم وهم المسلمون أصحابها.

إن القدس قبلة المسلمين الأولى وموضع اهتمام الناس فى كل مكان أنها مكان شريف وإن ثمة صلة تربط بين القدس وبين البشر جميعًا وكأنما كان تكوين تراب هذه المدينة من ترابِ كل بقعة من بقاع هذه الأرض وهذا رمز للترابط بين البشر فى كل زمان ومكان. إن أول جريمة قتل فى الأرض كانت فيها، وهى قتل قابيل لأخيه هابيل، وطفت سفينة نوح على الماء على مقربة منها، ولا شك أن اهتمام المسلمين بها يفوق اهتمامهم بكل مدينة سواها فالمسلمون يؤمنون بالأنبياء جميعًا. إن جميع الأبنية فى القدس لها الأهمية عند المسلمين والعيش فيها مأمولٌ عند كل مسلم وعليه فوجود اليهود فيها يُعد وجودًا تاريخيًا ليس إلا[(٢)].

وفى عام ١٨٩٧ م عقد ما يعرف بالمؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بازل بسويسرا وظهرت المؤسسة الصهيونية العالمية، وفى عام ١٩١٧م كان يعرف بوعد بلفور الخاص

---

(1) Nedim Diyemli : Sehir Kudus, SS - 4 - 5 Kasim (istambul 1996).

(2) A. Haydar Maksal: Mektup Dergisi Kudus - u serif, SS: 6 - 8 Kasim Hstambul 1996.

بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، وفى عام ١٩٤٨م كان قرار بتقسيم فلسطين تمهيداً لقيام دولة إسرائيل. أما فى عام ١٩٦٧ كان احتلال القدس، وفى عام ١٩٧٧ زار الرئيس السادات إسرائيل وكانت هذه الزيارة خللاً فى الصف العربى إزاء إسرائيل.

ولقد سعت إسرائيل مسعاها لتهديد القدس وهى المدينة العربية الإسلامية وكان ذلك صدمة جدُّ عنيفة للعرب والمسلمين فى الدنيا من أقصاها إلى أقصاها. ومازالت إسرائيل تقوم بحفائرها تحت المسجد الأقصى للبحث عن آثار لها غير مكترثة بشعور المسلمين كما اعتزمت إقامة مدينة سياحية تحت هذا المسجد مما يؤكد أن المسجد الأقصى سوف ينهار عاجلاً وبلغ من جرأة إسرائيل واستهتارها العنيد إلى حد أنها حددت موعداً يستوى فيه المسجد الأقصى بالأرض هدما. (١)

ولا ينسى التاريخ ولن ينسى ما فعل الصهاينة بالعرب من أفاعيل وأهاويل ونسوق المثل لذلك مذابح صبراو شاتيلا التى قيل فيها إن التقتيل والتذبيح دام فيها أربعين ساعة متوالية وقتل فيها أكثر من ثلاثة آلاف شخص، كما قتل فى مسجد الخليل فى فجر رمضان من المسلمين من كانوا يؤدون صلاة الفجر، كما قُتلَ من قُتل فى النفق بالقدس وذكر الحديث عن تلك البشاعات والشناعات طويل طويل والقَليل أمارَة على الكثير.

والأزهر الشريف يقف مدافعًا عن القدس إحقاقًا للحق وإبطالاً للباطل ويقول إنه يرفض تدويل القدس مع شدة الكراهة، وأى انتهاك لحرمة المقدسات الإسلامية فيها وعلى رأسها المسجد الأقصى كما يؤكد أن حق العرب والمسلمين فى القدس يؤيده الواقع التاريخى فإنها لا شك للعرب على الأخص والمسلمين على الأعم منذ أن فتحها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وظلت قرونًا متعاقبة فى ظل أهل لا إله إلا الله، والأزهر من حيث كونه أكبر مؤسسة دينية إسلامية فى العالم يعلن هذا مدافعًا عن حق المسلمين فى القدس وإن كره المنكرون الظالمون ورجال الأزهر الشريف وعلى رأسهم فضيلة الإمام الأكبر واقفون بالمرصاد لما يزيفه الصهاينة من تزييف لحقيقة الحقائق هذه نعنى بها مدينة القدس والمسجد الأقصى كما أنهم لا يألون جهداً فى عقد الندوات للتذكير بهذه الحقيقة وإعلانها على رءوس الأشهاد كما قال فى جزم ويقين أن القدس أمانة فى أعناق المسلمين فى الآفاق. كما إنه يدعو إلى الجهاد من أجل تحرير القدس والمسجد الأقصى. أما مقولة

---

(١) د. يوسف القرضاوى : القدس قضية كل مسلم. ص ١٧ القاهرة ١٩٩٨م.

«السيادة الإلهية» على القدس فهى حق يراد به الباطل فالسيادة لله وحده لذلك نرفض السيادة الإلهية على المقدسات وتدويل القدس لأن المراد بذلك هو ضياع حق المسلمين فى القدس والمسجد الأقصى وسيطرة إسرائيل عليه .(١)

وفى نظرنا أن كلامنا فى هذا الصدد لا يقارب تمامه ما لم ننظر فى كتاب من كتب الرحلات، هو «سفرنامه» للشاعر الإيرانى «ناصر خسرو» المتوفى عام «٤٨١» هـ إنه من مشاهير الشعراء فى تاريخ الأدب الفارسى ومنذ صدر شبابه كان ميالاً إلى دراسة الأديان وإلى الأسفار . حتى قيل إنه زار الهند وأفغانستان وتركستان لاكتساب العلم ثم شد رحاله إلى الحجاز وفى ٤٣٧هـ زار الحجاز وآسيا الصغرى وسوريا ومصر، وهو على المذهب الشيعى من «الإسماعيلية» وكان دعاة هذا المذهب وفى البلاد التى زارها تعرف على أهل العلم فيها وعلى مذاهبهم ثم دون رحلته ولها منزلة مرموقة بين كتب الرحلات .(٢)

ورحلته تلك من الأهيمة بمكان عظيم، فقد خص بيت المقدس فيها بأربع وعشرين صفحة وكلامه كثير التفاصيل، لذا نقع فيه على مالم نقع فيه من قبل ونعرف منه المزيد والجديد .

يقول ناصر خسرو :

«بيت المقدس» إن أهل الشام يطلقون هذا الاسم على القدس وما حولها، ومن أهل هذه النواحى من لم يستطع سبيلاً إلى حج بيت الله فيمضى لزيارة القدس وهناك يقف وينحر الذبائح فى عيد الأضحى وتلك عادة معلومة عندهم، واجتمع فيها من الزوار عشرون ألفًا فى أول شهر ذى الحجة، كما أنهم يختنون أبناءهم، كما أن كثيرًا من تركيا والبلاد الأخرى يقدمها كثير من المسيحيين واليهود وهم هناك يزورون الكنائس والبيع .

إن سواد ورساتيق بيت المقدس كلها جبلية، وفيها أشجار الزيتون والتين وغيرهما وكلها لا تروى والنعم هناك وفيرة . وهناك يملأ رؤساء القرى الآبار بزيت الزيتون ويرسلون هذا الزيت إلى أطراف العالم . وقد مر بسمعى أن أحدًا رأى النبى ﷺ فيما يرى النائم ورغب إليه أن يعينه على العيش فكان من رده ﷺ قوله له : «إن الخبز وزيت الشام علىّ أنا» . ثم يصف بيت المقدس فيقول :

إنها مدينة على رأس جبل ولا وجود فيها لماء إلا ماء المطر، وفى الرساتيق عيون، ولكن

---

(١) محمود عبد الغنى عاشور : جريدة صوت الأزهر، العدد ٥١ . القاهرة ٢٠٠٠م .

(٢) د. رضا زاده شفق : تاريخ أدبيات ايران ص ١٤١ – ١٤٧ تهران ١٣٢١ .

لا وجود لها فى المدينة، لأن المدينة مقامة على صخرة، إنها مدينة كبيرة وجدت فيها من سكانها ٢٠ ألف رجل، كما أن فيها أسواق وأبنية شامخة، كما أن جميع طرقها مرصوفة بالحجارة، وفى كل ناحية جبل وربوة، ولكنهم يسويان الجبال والربى[١] بالأرض هدمًا، فإذا هطل المطر نظفت جميع الطرق، وفى المدينة صناع كثير. وثم جامع محاط بسور فإذا تجاوزناه واجهنا صحراء مترامية الأطراف، ويقولون إنها صحراء يوم القيامة وسوف يحشر الناس فيها، ولذا قدم خلق كثير من أطراف الدنيا وأقاموا فيها، حتى يدركهم الموت فى هذه المدينة ويكونوا عند قيام الساعة فى أرض الميعاد.

وعلى حافة تلك الصحراء مقبرة كبيرة ومواضع فسيحة تقام فيها الصلاة، وهناك يرفعون أكف الدعاء ويستجيب الله دعاءهم.

وبين المدينة والصحراء واد عميق كأنه خندق عليه أبنية عالية وهذه المبانى على طراز أبنية الأسلاف ورأيت قبة عظيمة من حجر ومر بسمعى قولهم إن تحتها بيت فرعون وأن هذا الوادى هو وادى جهنم، وسألت بعضهم: «منذ الذى أطلق هذا الاسم على تلك الدار؟»، فقيل لى: إنه فى عهد خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أغار جيشه على هذه الصحراء وحينما نظر إلى هذا الوادى قال: إن هذا وادى جهنم. ويقول العوام إن كل من اقترب من هذا الوادى سمع صوت أهل جهنم، ويقول إنه مضى إلى هناك، بيد أنه لم يسمع شيئًا. وهذا من قوله يعنى أنه لا يصف شيئًا ولا يذكره ما لم يشاهده بأم عينيه.

ثم يوالى القول فيقول إنه لما مضى من هناك خرج من المدينة واتجه إلى الجنوب وجد منخفضًا وفيه ينبوعًا ينبجس ماؤه من الحجر، ويسمونه «عين السلوان»، وقد أقاموا أبنية عظيمة على حافة هذا الينبوع وماء هذا الينبوع يجرى إلى قرية أقاموا فيها الأبنية وفيها بساتين، وقيل لى: إن كل من اغتسل بماء هذا الينبوع شفى من كل مرضٍ ووجع، وأوقفوا على هذا الينبوع أوقافًا كثيرة.

وفى بيت المقدس مستشفى «بيمارستان» عظيم وقد حبست عليه الحبوس كما يقدم فيه للمرضى شتى الأدوية والأطباء فيه تجرى عليهم المرتبات من الأوقاف. وثمة مسجد بالقرب من هذا البيمارستان، و من أجل حجر الصخرة، أقاموا عليها مسجدًا، وحجر هذه الصخرة هو أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يجعله قبلة، فامتثل موسى أمر ربه، ولم يعش بعد ذلك طويلاً، كما كانت وفاته فى هذا الموضع ولما كان عصر سليمان

(١) الرُبى: جمع ربوة.

عليه السلام. كما كانت الصخرة قبلة، أقاموا مسجداً حول الصخرة، فكانت الصخرة فى وسط المسجد والمحراب، وحتى عهد نبينا محمد المصطفى ﷺ كانت هذه القبلة قبلة المسلمين، وكانوا يولون وجوههم شطر هذه القبلة فى صلواتهم، حتى إلى أن قضى الله سبحانه وتعالى أن تكون الكعبة هى القبلة.

وأرض المسجد مرصوفة بالحجارة وقد صنعت نقوش عليه كما نقش كتابة بالمينا على الإيوان وكتب فيها لقب سلطان مصر ولكن الرحالة لم يذكر اسمًا لهذا السلطان ونحن نتجاوز عن ذكره متحفظين ما لم نقطع الشك باليقين. ثم يوالى الوصف فيقول إذا ما وقع شعاع الشمس على هذه الكتابة تلألأت هذه الكتابة على نحو تحار فيه الألباب، وعلى هذا المسجد قبة عظيمة مطلية بالذهب، وفيها نقوش بديعة وثمة باب كثير النقوش يسمى باب داود عليه السلام. ثم يتصدى ناصر خسرو لذكر المساحات فى دقة متناهية. وثمة قبة تسمى قبة يعقوب عليه السلام لأن فيها كانت صلاته. وثمة رواق فى صحن المسجد، وفيه أماكن للصلاة ومحاريب جميلة، وفى هذا الرواق كثير من المتصوفة الذين يجاورون فيه ويؤدون الصلاة هناك.

وفى الركن الشمالى من المسجد يوجد رواق جميل وعليه قبة كبيرة. وقد كتب عليها «هذا محراب زكريا النبى عليه السلام». وقيل إنه كان يصلى فيه على الدوام.

ثم يقول إن لهذا المسجد عتبات وهذه الأبواب مزدانة بالنقوش من الحديد والنحاس الدمشقى وعليها حلقات ومسامير ويقال إن هذا قد صنعه سليمان بن داود عليه السلام لأبيه، ثم يتصدى فى وصف الأبواب فيذكر ما يسمى «بباب الرحمة، وباب التوبة، ويقال إن هذا الباب تقبل الله فيه توبة «داود عليه السلام»، وعلى عتبة المسجد نقوش بديعة ودهليزه مفروش بالبسط وله خدام كثيرون، ويمضى كثير من الناس إلى مكان توبة «داود عليه السلام». وهناك يتوبون إلى الله متابًا وأملهم أن يتوب الله عليهم.

وأمام الحائط الشمالى للمسجد سرداب يهبط إليه بدرجات كثيرة وعليه سقف من الحجر فوق أعمدة رخامية وفيه مهد «عيسى عليه السلام» وهو من الحجر وكبير بحيث يتسع لصلاة المصلين ويقول ناصر خسرو إنه هناك صلى. وهذا المهد هو المهد الذى كان عيسى عليه السلام فيه وهو صبى وكلم فيه الناس، وقد جعلوا هذا المهد فى موضع المحراب، وفى هذا المسجد محراب السيدة «مريم عليها السلام» وقد كتبت الآيات القرآنية الكريمة التى نزلت فى حق «زكريا ومريم» على هذا المحراب، كما قيل إن مولد «عيسى عليه

السلام» كان فى هذا المسجد، وثمة حجر من هذه الأعمدة عليه علامة إصبعين، ويقال إن مريم أثناء وضع حملها أمسكت هذا الحجر بإصبعين من أصابعها وهذا المسجد معروف بمهد «عيسى عليه السلام»، وثمة قناديل كثيرة مدلاة وهى من نحاس وفضة مضاءة طوال الليالى.

وبعده مسجد آخر أكبر من المسجد السالف ذكره، وهو ضعف مسجد مهد عيسى مرتين، وهو ما يعرف بالمسجد الأقصى، إنه ذلك المسجد الذى جاء الله تعالى بمصطفاه ﷺ إليه من مكة ليلة المعراج، ومنه عرج به إلى السماء، وهو كثير الزخارف، مفروش بالبسط الفاخرة، وفيه خدام يقومون على خدمة داخليه، وفيه أعمدة تزدان رءوسها بالزخارف، وله قبة عظيمة تزدان بالميناء، وبه كثير من القناديل ومحرابه كبير. وعلى جانبيه عمودان من الرخام فى لون العقيق، وفى الجهة اليمنى ما يعرف بمحراب معاوية أما فى الجهة اليسرى فمحراب عمر رضى الله عنه. وسقفه مغطى بالخشب وهو فيه نقوش تزينه، وله أبواب تعددت ومنها باب من نحاس كأن هذا النحاس ذهب، كما أنه محلى بنقوش من فضة، ويقال إن الخليفة العباسى المأمون أرسله من بغداد، وإذا ما فتحت جميع أبواب المسجد غمره النور حتى بدا كأنه بلا سقف، أما حين يهطل المطر وتعصف الرياح فتغلق هذه الأبواب ويدخل النور من المسجد مما فى جداره من كوات. وفى جهاته الأربع صناديق كل منها باسم كل مدينة من مدن الشام والعراق وعندها يجلس المجاورون، كما هو الشأن فى مكة شرفها الله تعالى، وفيه أعمدة من الرخام ذى الألوان، وسقوف المسجد مكسوة بالرصاص.

ويتابع الرحالة الفارسى كلامه فيقول: إنه رأى فى المدينة بركة ماء عظيمة، يأتيها الماء من الجبل، ويتجمع فيها ومنها الماء يصل إلى المدينة. وفى المدينة حياض كثيرة تمتلئ من ماء المطر وليس من ماء إلا ماء المطر. ويقال إن سليمان عليه السلام هو الذى صنع تلك الحياض، ومياه القدس أنقى وأعذب المياه وأصفى من كل ماء.

قلت إن مدينة بيت المقدس تقوم على رأس جبل، وليست فى أرض سهلة، ولكن أرض مسجدها مستوية، ومن أبواب المسجد باب يسمى باب النبى ﷺ، وهو إلى جانب القبلة أى إنه إلى الجنوب. وهو واسع، وثمة موضع يقال إن حمزة عم الرسول ﷺ جلس فيه.

باب يسمى باب (الحطة) وهو الباب الذى أمر الله تعالى بنى إسرائيل أن يدخلوا منه.

وفى القرآن الكريم : ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة :٥٨]

وباب السكينة وهو الباب الذى وضع فيه الله تعالى تابوت السكينة وقد أخذته الملائكة وأبواب المسجد الأقصى تسعة .

أما قبة الصخرة ، فقد مر بسمعى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان عندها وكان حين ذاك إسحاق عليه السلام ، طفلاً ، صعد عليها وهناك أثر قدمه وعند الصخرة جمهرة من العباد والمجاورين وقد زينت ببسط من حرير . وتدلى فوق الصخرة قنديل من فضة . وهذه القناديل صنعها سلطان مصر وقدمها . ورأيت هناك شموعًا صنعت من كافور وعنبر وقيل أن سلطان مصر يرسل كل عام شموعًا كثيرة ومن هذه الشموع شمعة عظيمة الحجم كتب عليها اسم السلطان بالذهب .

واتفق أهل العلم على أن الصلاة هناك تعدل خمسًا وعشرين ألف صلاة فى ثوابها عند الله ، أما الصلاة فى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة فتعدل خمسين ألف صلاة ، أما فى مكة المكرمة فالصلاة بمائة ألف صلاة .

وثمة قبة تتدلى منها سلسلة صنعها داود عليه السلام ولذلك سميت بقية السلسلة . وهناك قبة جبريل عليه السلام وليس فى أرضها بسط ولكن أرضها مرصوفة بالحجارة ويقال إنه فى ليلة المعراج طلب من النبى أن يركب منها إلى البراق ويعرج فى السماء : وثمة قبة أخرى تسمى قبة الرسول وفيها صلى (عليه الصلاة والسلام) ليلة المعراج ووضع يده على الصخرة ، و لما خرج ، ارتفعت الصخرة إجلالاً له . ولكنه ﷺ وضع يده ثانية عليها فاستقرت فى موضعها ، وهى إلى الآن تبدو نصف معلقة ، وتعظيم هذه القبة لأنه عندما ركب البراق . ولما ارتفعت الصخرة وأصبح مكانها خاليًا تركت تحتها فراغًا يشبه الغار وهو مضاء بالشمع على الدوام . وهناك حجر يعرف بكرسى سليمان عليه السلام ، وكان سليمان يجلس عليه أثناء بناء المسجد ويقول ناصر خسرو بعد ذلك : إن هذا ما رأيته فى جامع بيت المقدس وتَصديت لوصفه .

وبعد زيارة بيت المقدس سلكت الطريق لزيارة مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام وكان ذلك فى يوم الأربعاء غرة ذى القعدة سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة .

ثم غادر بيت المقدس إلى أرض الحجاز إلا أنه عاد إلى بيت المقدس فى الخامس من محرم سنة تسع وثلاثين وأربعمائة للهجرة ليقول : إن للمسيحيين فيها كنيسة تسمى «بيعة

القمامة» وهم يعظمونها من الروم خلق كثير. كما يزورها ملك الروم فى خفية. وفى عهد عزيز مصر (الحاكم بأمر الله)، كان مقدم قيصر الروم إليها. وعرف (الحاكم) هذا الخبر، وأرسل من قبله مبعوثًا إليه، وقال له: «إن الحاكم بعثنى إليك وهو يقول لك: لا تحسبن أنى لم أعلم مقدمك ولكن كن على ثقة بأنى لا أريد إيذاءك».

ولقد أمر الحاكم بتخريب تلك الكنيسة، وظلت خربة مدة من الزمان، ولكن القيصر أرسل الرسل إلى الحاكم يحملون الهدايا يطلبون الصلح معه والإذن بإعادة عمارة الكنيسة.

وهذه الكنيسة واسعة تتسع لثمانية آلاف شخص وزينت الكنيسة بصورة عيسى (عليه السلام) راكبًا مطية وصور أخرى للأنبياء مثل: إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب وأبناؤه عليهم السلام، ويغسل خدام الكنيسة الصور حتى لا يعلوها الغبار، ثم يقول ناصر خسرو: إن النقوش والزخارف كثيرة يطول الكلام بشرحها.

وفى تلك الكنيسة موضع به قسمان رسمت فى الأول صورة للجنة وفى القسم الآخر صورة لجهنم، وفى الكنيسة كثير من الرهبان والقسيسيين يقرأون الإنجيل ويصلون ويتعبدون ليل نهار»(١).

هل ما أوردناه من كلام «ناصر خسرو» فى إجمال بعد عدم ذكر تفاصيل مثل وصف المسافات والأحجام وما يتعلق بها.

ومن الحق أن نقول إن هذا الرحالة، صدقنا القول عما رأته عينه وتلقاه من سمعه وأكد أن القدس مدينة إسلامية بكل ما تتسع له الكلمة من معنى وإنه لمحقق مدقق.

أما بعد إذ عرفنا القدس فى كتاب فارسى ظهر فى الزمان الخالى، فالرأى أن نعرفها كذلك فى كتاب فارسى صدر فى اليوم الحالى.

منذ تأسيس دولة إسرائيل، أى منذ عام ١٩٤٨م، وطدت إسرائيل عزمها على أن تجد وسيلة أية وسيلة لطرد العرب من فلسطين، وأن توفر وسائل توطين اليهود فيها بالتدريج، وبعد حرب يونيو ١٩٦٧م استولت إسرائيل على معظم مدن فلسطين واستولت على بيت المقدس، ومنذ ذلك التاريخ بالذات توافرت جهودها لتغيير وجه بيت المقدس وتبديل ما يجرى عليها من صفات لتجعل منها مدينة يهودية بالذات فى جميع معالمها، وبناء عليه

---

(١) ناصر خسرو: سفر نامه من ص ٣٤ - ٦٣. تهران ١٣٥٦ ش.

ظهرت بعض وسائلها إلى غايتها، فأضرمت النار فى المسجد الأقصى فى ١١ أغسطس ١٩٦٩م فذهب جانب كبير من المسجد الأقصى طعمة للنيران، وكذا أحرق منبر صلاح الدين الأيوبى، وادعت إسرائيل أن هذا الحريق لم يكن بفعل فاعل بل بسبب خلل فى الكهرباء، واتضح بعد التحقيق أن هذا كان منها ادعاءاً كاذبًا.

ولقد طردت وشردت العرب من ديارهم بحجة البحث عن آثار يهودية قديمة وضرورة الحفر للكشف عنها وترتب على أعمال الحفر أن هدمت ديار العرب.

وقال وزير الأوقاف الإسرائيلى فى ١٢ أغسطس من عام ١٩٦٩م فى محاضرة دينية له ما نصه:

(إن تحرير بيت المقدس، أتاح لنا فرصة الأماكن المقدسة المسيحية وجزء من مقدسات المسلمين، تحت نفوذ وسيطرة إسرائيل، وأن ترد جميع المقدسات اليهودية إلى اليهود، ولكن لإسرائيل مقدسات أخرى فى الضفة الشرقية لنهر الأردن).

وأعلن بن جوريون أول وزير إسرائيلى على رءوس الأشهاد قائلا: (إن دولة إسرائيل بدون بيت المقدس وما لم تجدد مبانى بيت المقدس لا معنى لوجود إسرائيل).

واليوم اتخذت القدس معالم أخرى، فقد كثرت فيها الحفائر، وهدمت إسرائيل الديار القديمة وأقامت مكانها ديار حديثة الطراز[١].

فما ورد عن القدس فى الغابر والحاضر يظهرنا على تاريخها فى تمام الوضوح إلا أن هذا الكتاب الفارسى الحديث يؤكد نية إسرائيل المبيتة إزاء القدس ويشرح لنا فى تفصيل، تلك البواعث التى بعثت الشعراء فى بلاد تقول لا إله إلا الله على أن تتحرك فيهم قرائحهم وتبعثهم بعثًا على أن يقولوا شعرًا منطلقين على سجيتهم معلنين عما تكن قرارة نفوسهم، وما كانوا إلا على الصواب والحق المبين فيما هم قائلون.

---

(١) د. سيد جعفر حميدى: تاريخ أورشليم، ص ٢٧٣، ٢٧٤ (تهران ١٣٦٤).

الفصل الأول

القدس فى الشعر العربى

بعد إذ عرفنا ما عرفنا من تاريخ القدس على وجه التفصيل، يجدر بنا وما أجدر، أن نفسح موضعًا لننظر نظرة تدبر وتذوق فيما فاضت به قرائح شعراء العرب من شعر قالوه فيها. ونحن بذا إنما نستوعب الحقائق التى ظهرنا عليها من قبل إضافة إلى تمثلها فى الشعر، وخاصة أن هذا الشعر يعد ولا ريب فنًا قائمًا بذاته فى تاريخ الشعر العربى، والظن أنه لم ينل بعد اللفتة ا لتى يستحقها ممن يؤرخون هذا الشعر، ولنجعل البدء بما أشير إليها فى الشعر الجاهلى. فنجد أن الأعشى قال:

وقد طقت للمال آفــــاقه عمان، فحمص فأورى شلم

فمعنى أورى شلم هذا معبد الإله سالم اليبوسى نسبة إلى اليبوسيين الذين حكموها.

أما استخدام التسمية (بيت المقدس) لها فقد أشار إليها امرؤ القيس فى قوله:

فأدركته يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس

و(ثوب المقدس) هنا بمعنى ثوب الراهب ا لذى يقدم بيت المقدس[1]. ونحن من هذين المثلين ندرك أن عرب الجاهلية أطلقوا عليها بيت المقدس وإيلياء واسم «أورى شلم» وهو بفتح الشين وكسر اللام، وفصل (أورى) عن (شلم) كما جاء فى قول الأعشى، وثوب الراهب فى شعر امرئ القيس دليل على أن الرهبان أى المسيحيين كانوا يقدمونها. وهاتان معلوماتان جديدتان نظهر عليهما من هذين البيتين.

والنقلة بعد ذلك إلى الشعر الإسلامى. أو على التحديد فى عصر بنى أمية فنجد أن الفرزدق يقول فى قصيدة يتصدى فيها بالهجاء لجرير وقومه:

ومنا الذى لا ينطق النـاس عنـــده ولكن هو المســتـــأذن المتنصف
تراهم قــعــودا حــوله وعـيــونهم مكســرة أبصــارها مــا تصــرف
وبيـــتــان: بيت الله نحـــن ولاته وبيت بأعلى إيليــاء مــشــرف

(١) فؤاد إبراهيم عباس: موسوعة بيت المقدس. ص ٦٠، ٦١. القاهرة ٢٠٠٠.

وندرك من البيت الثالث أن الشاعر يقصد إلى الاعتزاز والفخر بقومه الذين هم يحافظون على بيت الله الحرام وبيت المقدس فكأنه يقرن فى كلامه بين أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وهذا يرشد إلى أن لهذه المدينة قدسيتها بين قدسية غيرها مما يرفع من قدرها ومنزلتها بينهما .

وفى شعر قاله مروان بن الحكم يتجه فيه بالخطاب إلى الفرزدق وكان مروان عاملاً على المدينة لمعاوية قائلاً :

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها   إن كنت تارك ما أمرتك فاجلس

ودع المدينة إنها مرهوبة   واعمد لمكة أو لبيت المقدس

فلبيت المقدس ذكر إلى جانب مكة المكرمة ، ويمضى بنا الكلام إلى عمر بن أبى ربيعة فى بيتين له مشهورين :

أيها المنكح الثريا سهيلا   عمرك الله كيف يلتقيان

هى غورية إذا ما استقلت   وسهيل إذا استقل يمانى

وفى رواية أنها شامية ولكن كلمة غورية : نسبة إلى غور الأردن بين بيت المقدس ودمشق فالإشارة إلى ما حول ما يقع على مقربة من بيت المقدس ويحدد الإشارة إليها .

وننتقل بعد ذلك إلى أبى العلاء المعرى ا لذى يقول :

يا شاكى النوب انهض طالبا حلبا   نهوض مضنى لحسم الداء ملتمس

واخلع حذاك إذا حاذيتها ورعا   كفعل موسى كليم الله فى القدس

وهنا نقف على قدسية بيت المقدس وقال :

وبعين سلوان التى فى قدسها   طعم يوهم أنه من زمزم

وعين سلوان التى يذكرها أبو العلاء بالقرب من القدس ، إنه يتحدث عن وطنه فيحدده ويشير إليه مع معالمه من بعيد ومن معالمه أو حدوده «عين سلوان» وهى قريبة من القدس والشاعر وإن لم يذكر القدس تحديداً إلا أنه يشير إلى ما يقرب منها ونحن نعلم أن الله جل من قائل بارك المسجد الأقصى وما حوله ، فلنا أن نقول إنه ألمح إلى القدس ومن التقاليد التى عرفت آنئذ التبرك والتشرف بزيارة القدس بعد أداء مناسك الحج وفى هذا يقول أبو نواس فى عصرهِ العباسى :

وأصبحن قد فوزن من نهر غطرس   وهن من البيت المقدس زور

ويقول المعلى بن ظريف ، مولى المهدى :

يا صباح إني قد حججت وزرت بيت المقدس

فهذه الأبيات السالف ذكرها ترشد إلى قدسية هذه المدينة فى نفوس شعراء العرب على مدى طويل وفيها إيقان بأن العادة جرت بأن الحاج كان يؤم بيت المقدس على أن هذا تتمة لزيارته بيت الله وفى هذا ما فيه من تقديس لهذه الزيارة يتلو فى مرتبته تقديس بيت الله .

وبعد العصر العباسى نجد من الشعراء من يعربون عن فرط أساهُم على ضياع القدس بعد أن غلب الفرنجة عليها فيقول ابن المظفر الأبيوردى :

وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظت كل نائم؟
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدا رماحهم والدين واهى الدعائم

إن هذا الشاعر يستنكر من جند المسلمين أن يولوا الأدبار أمام جند الفرنجة ويريد ليوقظ هممهم ويلهب حماستهم ويرغبهم فى أن يجاهدوا أعداء دينهم ولا تنقضى حسرة منه لا جزع على احتلال الصليبيين للقدس . وهو بهذا من كلامه إنما يعبر عن شعور مسلم بتلك النكبة التى فجعت المسلمين فى القدس مدينتهم العربية المقدسة(١) .

ومدح أكثر من شاعر عربى صلاح الدين الأيوبي وزف إليه التهنئة فى انتصاره على الصليبيين حين حرر القدس . كما أن الشعراء قالوا وأطالوا فى عهد المماليك لوصف الصراع حولها التى انتهت بعودة القدس إلى العرب ومن هؤلاء ابن المجاور ، وابن مطروح ، وابن النبيه ، وابن سناء الملك ، والبهاء زهير ، والشهاب الحلبى ، والعماد الأصبهانى وغيرهم . وحسبنا تلك الإشارة التى تغنى عن العبارة وتؤيد عروبة القدس بما لا يحتمل شكًا ولا تأويلاً ويكفى من القلادة ما أحاط بالعنق .

وإذا نظرنا فى كتاب «الروضتين فى أخبار الدولتين» للشافعى المقدسى(٢) ، وقد ألفيناه يورد ما قال الشعراء فى زف التهانى إلى صلاح الدين بعد أن فتح الله القدس عليه فى حروبه مع الصليبيين . وقال العماد فى قصيدة أنفذها إلى الخليفة الناصر يقول فيها :

أحيا الهدى وأمات الشرك صارمه لقد تجلى الهدى والشرك منجاب
بفتحه القدس للإسلام قد فتحت فى قمع طاغية الإشراك أبواب
ففى موافقة البيت المقدس للبيت الحرام لنا تيه واعجاب

---

(١) فؤاد إبراهيم عباس : موسوعة بيت المقدس ، ص ٦٤ - ٦٨ القاهرة ٢٠٠٠م .
(٢) الشافعى المقدسى كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ص ٨٣ - ٨٦ القاهرة .

والصخر والحجر الملثوم جانبه كلاهما لاعتمار الخلق محراب
نفى من القدس صلبانا كما نفيت من بيت مكة أزلام وأنصاب

فبعد ما اتجه بالخطاب إلى صلاح الدين مهنئًا بالفتح الذى جعلت له الشهرة فى أرجاء الأرض وقال إن نصره يطول فيه الكلام، ثم إنه يعبر عن فرحة المسلم بهذا الفتح لأن هذا الفتح له وقع فى عقيدته الدينية وما ذاك إلا لأن فيه إحياء للهدى فتجلى أما الشرك فمات ولم تقم له من بعد قائمة، وهذا لا شك مما تقر به نفس كل مؤمن كما أن للمسلم أن يزهو بذلك الفتح، ثم يشير إلى الحجر الأسود وقبة الصخرة ليقرن بينهما على أنهما محراب، كما يعيد تصور مكة المشرفة والقدس الشريف فى تشبيه وجه الشبه فيه أنه محى الصلبان من القدس كما محيت من قبل الأزلام والأنصاب من بيت الله العتيق فهذا الكلام هو ما يعبر به مسلم عن فتح القدس.

وقال الحكيم أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن حسان الأندلسى الجليانى:

أبا المظفر أنت المجتبى لهدى أخرى الزمان على خبر بخبرته
فلو رآك وقد حزت العلى عمر فى قلة التل قضى كنه عبرته
ولو رآك وأهل القدس فى وله أبو عبيدة فدى من مسرته

إلى أن نجده بعد هذا التمهيد يقول:

يا فاتح المسجد الأقصى علىّ بهم وقانص الجيش لا يحصى بقفزته
أبشر بملك كظهر الشمس مطلع على البسيطة فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة تحكى النبوة فى أيام فترته

إن هذا الشاعر بعد أن يمدح صلاح الدين فاتحًا مظفرًا يؤيده الله بنصره ويعيد مجد الإسلام على عهد النبوة وبفضل رجالاته البواسل يستبشر بالفتح لأنه كان نصرًا مؤزرًا للإسلام والمسلمين.

وللشريف النسابة المصرى محمد بن أسعد بن على بن عمر الحلبى المعروف بالجوانى نقيب الأشراف بالديار المصرية قصيدة يقول فيها:

أترى منا ما بعينى أبصر القدس يفتح والفرنجة تكسر
ومليكهم فى القيد مصفود ولم ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذى وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشآم وطُهِّرَ القدس الذى هو فى القيامة للأنام المحشر

من كان هذا فتحه لمحمد ... ماذا يقال له وماذا يذكر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها ... فاروقها عمر الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده ... ولأنت فى نصر النبوة حيدر
ملك غدا الإسلام من عجب به ... يختال والدنيا به تتبختر

إن الشاعر يشير إلى أن المحشر فى يوم القيامة فى مدينة القدس كما ذكرنا من قبل فى رأى بعضهم، ثم تبلغ به البهجة مداها ليقول إن فتح القدس أشبه ما يكون برؤيا في منام ويزيده بهجة على بهجة أن المسلمين ينتصرون والفرنجة ينهزمون، كما أن ملك الفرنجة يقع فى الأسر وهذا عندهم لم يخطر لهم ببال، ثم يقول للمسلمين أجمعين إن هذا نصر الله والفتح وعليهم أن يسبحوا ويستغفروا ثم يقول إنه لا يجد كلاما يمدحه به لفتحه القدس وذلك لعظم ما أنجز لأهل الدين القويم، ثم يشبهه بعمر الذى فتحها من قبل إلا أنه يسميه يوسف الصديق وهو يوسف صلاح الدين مبالغة فى مدحه، كما أنه يشبهه بعثمان وعلى رضى الله عنهما، إنه يجنح إلى المبالغة، والمبالغة تذكرعلى أنها مبالغة ومعلوم أن هذه المبالغة عنصر من عناصر شعر المديح، إلى أن يقول إنه ذلك الملك الذى يفخر به الإسلام وكذا الدنيا بأسرها.

وللشاعر المصرى أبى الحسن على بن محمد الساعاتى قصيدتان يقول فى أولاهما:

هو منقذ البيت المقدس بعدما ... طالت فما وجد الشفاء شكاته
بيت تأسس بالسكون وإنما ... عند الزحاف تحركت سكناته
أمشتت الأعداء وهى جحافل ... عن شمل دين جمعت أشتاته
أوتيت عزما فى الحروب مسددا ... لا زيغه يخشى ولا هفواته

إنه يعده منقذًا يستنقذ من شدة الحرج من ما وقع فيه ويقول إن القدس كانت تشكو من وضعها فى يد الفرنجة وهو الذى كشف عنها السوء ونقلها من شر إلى خير، وأن هذا البيت كان لا يقدر على شيء ليخرج مما هو فيه فلبث فى سكون طويل حتى جاء صلاح الدين فدبت فيه حركة الحياة، ثم يقول إنه شتت شمل الأعداء وبذلك أخذ بيد الدين مما كان واقعًا فيه على عهد الفرنجة، ثم جعل يمدحه محاربًا مقاتلاً باسلاً يعرف الإقدام ولا يعرف الإحجام فهو فى الهيجاء فارسها المغوار البئيس أما فضله فهو نصرة دين الله وجعل المسلمين فى حال بعد حال.

وهذان بيتان من القصيدة الأخرى يقول فيهما:

هو الفاتح البيت المقدس بعدما ... تحامته سادات الدنا ومسودها
فضيلة فتح كان ثانى خليفة ... من القوم مبديها وأنت معيدها

إنه يمدح صلاح الدين بأنه هو الذى تأتى له أن يفتح القدس بعد أن عجز ملوك الدنيا جميعا عن فتحها كل العجز ، كما يذكره بأن فتحها ثم كان للخليفة الثانى عمر بن الخطاب وهو الذى فتحها ثانية ، وحسبه أن يكون له هذا الفضل .

وللعماد الكاتب قصيدة يمدح بها الملك الأفضل بن صلاح الدين يقول فيها :

والقدس أعضل داؤه من قبلكم ... فوفيتم بشفاء ذاك المعضل
درج الملوك على تمنى فتحه ... زمنا وغلتهم به لم تبلل
وأتى زمانكم فأمكن آخرا ... ما قد تعذر فى الزمان الأول
ما كان قط ولا يكون كفتحكم ... للقدس فى الماضى ولا المستقبل
أوجدتم منه الذى عدم الورى ... وفعلتم فى الفتح ما لم يفعل

إنه يشيد بفضل أسرة صلاح الدين الأيوبى فى عموم فيخاطبهم خطاب الجماعة وكلامه هو فى معناه هو ا لبيت الذى أوردناه للساعاتي وهو يقول مشيراً إلى ما ساء من حال القدس قبل فتحه لها كما يذكر بأن الأيوبيين أتوا بما لم يستطعه الأوائل . ويقول فى مدح الملك المؤيد وكلامه يدور فى هذا المعنى :

وكم لبنى صلاح الدين فينا ... على الإسلام من حق تأكد
وأن لهم على الأملاك طُراً[1] ... بفتح القدس فضلاً ليس يجحد

إن الشاعر يمدحهم بفتحهم للقدس على أن ذلك الفتح كان نصراً مؤزراً للمسلمين .

وفي مدحه للملك الظاهر يقول حسبهم فتح القدس وإن كانوا فتحوا عكا وصيدا وبيروت .

ويقول الشافعى المقدسى إنه قرأ على شيخه أبى الحسن على بن محمد السخاوى رحمه الله من قصيدة مدح بها بعض أولاد السلطان صلاح الدين يظنه الملك المحسن ظهير الدين أحمد بن صلاح الدين رحمهما الله :

ملك به وأبيه يفتخر العلا ... ويفوق فخرهما السها والفرقدا[2]
ومخلص البيت المقدس بعد ما ... رفع الصليب على ذراه ومجدا

---

(١) طرًا : بمعنى جميعًا .
(٢) السها والفرقد : نجمان .

وبه أتى البيت الحرام وفوده   من كل فج آمنين المُردَّدَا
من بعد ما درست معالم سبله   دهرا وعز لخوفها أن يقصدا

من هذه الأبيات ندرك أن أكثر من شاعر مدح صلاح الدين . كما أن الشعراء أفاضوا فى مدح صلاح الدين بل وتجاوزوا مدحه إلى مدح الملوك من أسرته ، وكان مدحهم لبلائه الحسن في فتح بيت المقدس بعد أن عز فتحها على غيره من الملوك ونظروا إلى فتحها على أنه حقًا مجدٌ لصلاح الدين خاصةكما أنه يعد مجداً فى تاريخ المسلمين بعامة ، كما أنه أشار إلى البيت الحرام الذى كان يخشى عليه من إغارة الصليبيين عليه بعد أن يتسعوا فى الفتح على ما كانوا يؤملون ، ولكن الله نصر دينه القويم ، ولم يمكنهم من ذلك ، والفضل لهزيمتهم النكراء أمام صلاح الدين ، ورد كيدهم السيئ .

وقال العماد وللحكيم أبى الفضل قصائد قدسيات طوال كثيرة الفوائد وقد وقفت على بعضها فامتدحت الملك الناصر(١) . وها هو ذا يقول :

إذا صفرت من آل الأصفر ساحة   المقدس ضاهت أم القرى قدما
فذا المسجد الأقصى وهمتك العلى   وعزمتك القصوى ورميتك الصِمى
وإن أنت لم ترد الفرنج بوقعة   فمن ذا الذى يقوى لبنيانها هدما
وليس كفتح القدس منية قادر   وما أن تلقاها سوى يوسف جزما

إن الكلام يدور فى هذه الأبيات فى النطاق الذى عرفناه فى المدائح السابقة ولكنه يؤيده ويبين أن صلاح الدين عظيم الفضل فيما صنع وبذلك أُفرد له فى التاريخ علو القدر وأنه عز بالإسلام كما عز الإسلام به .

وهذا من كلام الشاعر يدور فى نفس النطاق الذى دار فيه كلام غيره ، كما أن المعانى التى تقلب فيها سبق أن تقلبت فى شعر غيره ويقول :

الله أكبر أرض القدس قد صفرت(٢)   من آل أصفر اذ حين به حانوا
أسباط يوسف من مصر أتوا ولهم   من غير تيه بها سلوى وامنان
لهم فلسطين إن يخرج عداتهم   عنها وإلا عدت بيض(٣) وخرصان(٤)
حتى بنيت رتاج القدس منفرجا   ويصعد الصخرة الغراء عثمان
ولابن أيوب فى الإفرنج ملحمة   دلت عليها أساطير وحسبان

---

(١) الشافعى المقدسى : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين . ص ١١٦ القاهرة .
(٢) صفرت : خلت .   (٣) بيض : السيوف .   (٤) الخرصان : جمع خرص وهو الرمح القصير .

ومن أحق بملــك بالأرض مــــن ملك	كــــأنه ملك فى الخلـــق حنان

وفى هذه الطائفة من الأبيات جماع ما يقال سواء فى صلاح الدين الأيوبى أو ولده. كما أن الشاعر ممتلئ فخرًا بخلاص الفرس من غير المسلمين ويعبر عن بهجته بقوله «الله أكبر»، إنه يفخر بصلاح الدين وجيشه المظفر، وياليته أضاف قوله إلى ذلك بحسب صلاح الدين من المجد والفخر أن ردَّ الصليبيين عن أرض الحجاز وحمى بيت الله مما أرادوا به.

وللشاعر قصائد تسمى القدسيات منها قصيدة «تائية» وهى طويلة فى مائة واثنتين وخمسين بيتا منها قوله:

لسـرعـة فتح القـدس سـر مغيب	وفى صرعـة الإفـرنج مـعتـبرٌ بدا

ولكننا لم نقع على بيت خاص بالقدس فيها وبقيت أبياتها شعرًا ملحميًا فى وصف حروب صلاح الدين، عند هذا البيت الذى أسلفنا ذكره فهو يعجب فيه لسمعه فتح القدس مما يستدل به على أن هذا الفتح لم يكن متوقعًا ولا مأمولاً بهذه السرعة. كما أن اندحار الإفرنج لم يخطر للمسلمين ببال، وهذا هو الجديد الذى ندركه فى تاريخ حملة صلاح الدين على القدس وعلى استردادها من الصليبيين.

والشاعر رشيد بن بدر النابلسى يقول فى قصيدة له:

هذا الذى كــانت الآمـــال تنتظر	فليـــوف لله أقـــوام بما نذروا
بمثل ذا الفتــــح لا والله ما حكيت	فى سالف الدهر أخبـار ولا سير
الآن قـرت جنوب فى مضـاجعـهـا	ونام من لـم يزل حلفـــا له السـهـر
يا بهجة القدس إذا ضحى به علم الإ	سلام من بعـــد طىّ وهو منتشـــر
يا نور مسجده الأقصى وقـد رفعت	بعد الصليب به الآيــات والسور
الله أكـــبــر صــوت تقـشـعــر له	شم الذرى وتكــاد الأرض تنفطر
هذا الذى سـلب الإفـــرنج دولتهم	وملكهم ياملوك الأرض فاعتبروا

وهى قصيدة طويلة وآثر الشافعى المقدسى أن يوجزها وهو بذلك كأنه يريد أن يجمع كل ما قيل ولكن ضاق به المقال وفى الإطالة ملاكه.

إن الشاعر يتحدث فى عموم فيبين كيف أن فتح القدس كان نصرًا للمسلمين جميعًا على الصليبيين كافة، ويحدد ليقول إن هذا النصر كان نصرًا على العالم الأوروبى كله. إنه يفخر باسترداد المسجد الأقصى على أنه رمز لهذا النصر المبين، ويفخر بذلك على لسان المسلمين.

وللشاعر غورى قصيدة جاء فيها قوله :

واستنقذ البيت المقدس عنوة … من كل ذى نجس بكل مطهر
وأريتهم لما التقى الجمعان بالبيت … المقدس هول يوم المحشر
ورددت دين الله بعد قطوبه … بالمسجد الأقصى بوجه مسفر
وأعدت ما أبداه قبلك فاتحا … عمر فأنت شريكه فى المتجر
حتى جمعت لمعشر الإسلام بين … الصخرة العظمى وبين المشعر (١)
فلصخرة البيت المقدس كفؤها … الحجر المفضل عند أفضل معشر

إنه يباهى بصلاح الدين فاتحًا وملحقًا بأعداد الإسلام هزيمة ماحقة، وبذلك أمن المسلمون شرهم، وما أرادوهم به، إلا أنه يذكر المسجد الأقصى أكثر من مرة وهذا لم نلحظه فى شعر معاصريه، وهو يفخر بعودته إلى المسلمين. وأحسن فى قوله بأنه ردّ دين الله بالمسجد الأقصى وكان متجهم الوجه، وبذا بسم بعد القطوب. ثم يحسن كذلك فى الجمع فى تشبيه بالحجر الأسود فى الكعبة وبالصخرة، فجعلهما شعاراً واحداً للإسلام بحسب صلاح الدين مجداً أن جمعهما.

هذا ما وجدنا سبيلاً إلى الوقوع عليه من شعر قديم، قيل فى فتح مدينة القدس والملحظ فيه أنهم كانوا مداحين فى المقام الأول، يهنئون صلاح الدين الأيوبى بفتح مدينة القدس، وما عاد من ذلك الفتح على الإسلام والمسلمين من خير عميم ورد عنهم ما رد من شر. إن ذكر القدس فى المسجد الأقصى جاء عرضا لا أصلاً ولكن البشرى بفتح القدس كانت أهم ما ورد فى تلك المدائح، وكان متوقعًا من الشعراء الذين يمدحون طمعًا فى النوال أن يتنافس المتنافسون منهم في مدح السلطان الذى انتصر وكان نصره مجداً للإسلام إلا أن هذا المجد كان له شأن آخر، وهو الشأن الدينى وكان كذلك مجداً تاريخيًا لأهل لا إله إلا الله.

وسنرى من بعد أن فى الشعر الذى قيل فى القدس يومنا الحاضر وجوهًا للتشابه والتخالف بين الشعر القديم والحديث، فالشعراء القدماء والمحدثون يتفقون فى نظرتهم إلى قدسية بيت المقدس، وهذه القدسية هى التى دفعتهم إلى غضبتهم لانتهاك حرمتها، إلا أنهم يختلفون عن أسلافهم فى أنهم لم يكونوا مداحين لأن بيت المقدس لم ترد إلى المسلمين بل سلبت منهم فهم محزونون محزونون إلا أنهم لا يصفون المسلمين محاربين بل

---

(١) المشعر : موضع مناسك الحج و(المشعر الحرام): المزدلفة.

يتمنون أن يكونوا محاربين منا فحين عن مدينتهم المقدسة ومسجدهم الأقصى وهم أشد حزنًا على ضياع المسجد الأقصى من الشعراء الذين لم يذكروا ضياعه منهم إلا فى إيماءة خاطفة، إنهم يتمنون أن يستردوا المسجد الأقصى ومدينته المقدسة بحرب تأكل الأخضر واليابس، ويباركون حمية الأطفال الذين حاربوا اليهود بقذفهم بالحجارة، يباركون هذا فيهم كما يحزنهم ألا يهب المسلمون فى صف واحد لشن حرب على الصهاينة الذين أخذوا مدينتهم ومقدساتهم عنوة. فقد كان الصراع والنزاع فى الشعر القديم بين العرب والمسيحيين أما فى الشعر الحديث فكان بين العرب واليهود الصهاينة. ومن هؤلاء الشعراء من بكى واشتكى فى حين أن الأوائل كانوا منشرحين مبتهجين لعودة قدسهم ومسجدهم الأقصى إليهم.

والمستحب فى نظرنا أن نكون أميل إلى النظر فيما قيل عن القدس فى عصرنا ويومنا الحاضر لنشعر به ونعايشه بمشاعرنا ورأينا ونؤرخه بواقعه الذى هو أقرب ما يكون إلينا بعد أن مهدنا له بقديم أقامه على أسٍ ركين عرفنا منه فى يومنا هذا ما لم نكن نعلم.

ولقد حظيت مدينة القدس باهتمام الشعراء بها وذكرها بكل جميل. ونحن لا نجد شاعراً عربيًا معاصراً ولا نكاد، إلا تناولها بقصيدة أو أبيات فى العالم العربى عموما وفلسطين خصوصًا وذلك إذا شئنا تأريخًا وتحديداً قلنا منذ مستهل هذا القرن إلى يومنا هذا وذلك من عام ١٩٠٠ إلى ١٩٤٨ قبل وقوع مأساة فلسطين(١) .

ولنبدأ بأمير الشعراء شوقى القائل فى الجزء الثالث من الشوقيات وهو يرثى الزعيم الهندى محمد على الذى دفن فى القدس:

بيت على أرض الهدى وسمائه ... الحق حائطه وأس بنائه
الفتح من أعلامه، والطهر من ... أوصافه، والقدس من أسمائه
تحنو منا كبه على شعب الهدى ... وتطل سدته على سينائه

وهذه أبيات جياد أصابت صفة القدس على الحقيقة لا نجد لها مثيلاً فيما أوردنا من نصوص الشعر القديم ونعنى به التى قيلت فى الإسلام إنه يبدع فى قوله إنها مدينة أقيمت على أرض الهدى وسمائه وفى هذا إشارة لا محة إلى تلك السماء التى عرج فيها ﷺ كما فيه إشارة إلى أرضها الطاهرة لأن فيها أبنية مقدسة ففيه خير ما فى الأرض ومن فى السماء كما وقف عند القدس لما فى الكلمة من معنى لذلك جعلها اسمًا على مسمى. إنه يبسط

(١) د. كامل السوافيرى، القدس في الشعر العربى الحديث، ديوان القدس ص ٨٩، القاهرة ١٩٨٦م.

القول فى وصف قدسيته أما قوله عن جوانحه التى تطل على شعب الهدى فهو يتمثل لها جوانح كأنما تنضم على قلب وهذا القلب هو شعب المسلمين أجمعين إنه يجيد أيما إجادة على تمثلها فى هذا النحو ويقرر أنها ليست لشعب واحد بل على شعب الهدى، إنه بذلك يستكمل وصف منزلتها فى الدين الحنيف ويشرح الحقيقة بالمجاز ويشير إلى ما بعد ذلك ويفهم سوى ذلك، إن هذا الزعيم الدينى دفن فى أرضها الطاهرة وهذا ما يتمناه المسلم وهو أن يدفن فى أرض طاهرة كأرضها أو كأرض الحجاز وبذلك يستجمع شوقى كل ما يمكن أن يقال عن القدس وفى كلامه كثرةٌ من حقيقة وقلة من خيال.

وما أجدر فى هذا المقام أن نشير إلى حقيقة ندرك منها السبب الذى أوصى به الزعيم الهندى محمد على أن يدفن فى مدينة القدس، والظن الأرجح أن هذا الزعيم الهندى كان على ذكر من حديث شريف هو: قال رسول الله ﷺ: «من مات فى بيت المقدس فكأنما مات فى السماء»[1].

وهذا من الدليل على منزلة القدس فى نفوس الأتقياء من المسلمين، كما أن للرسول أكثر من حديث شريف سنذكرها من بعد فى مواضعها وكلها تؤيد ما للقدس من رفعة المنزلة لدى المسلمين.

وله مرثية فى شريف مكة الحسين بن على وفيها هو القائل:

وادفنوه فى القدس بين سليمان ... وداود والملوك الأكارم

إنما القدس منزل الوحى مغنى ... كل حبر من الأوائل عالم

كنفت بالغيوب فالأرض ... أسرار مدى الدهر والسماء طلاسم

وتحلت من البراق بطغراء ... ومن حافر البراق بخاتم

إنه يبسط القول فى وصف بيت المقدس ومنزلة هذه المدينة بين المدن ويدعو إلى الدفن فيها على أنها تنماز بأكثر من ميزة ففيها مثوى الأنبياء وهم أنبياء وملوك فى وقت معًا فلهم أكثر من فضل يعرفه الناس قاطبة كما يذكر بأنها منزل الوحى وكذلك مزار للمشاهير من أهل العلم ثم يخرج من هذه الحقائق إلى الخيال ويحلق به الخيال ليوشى به الحقيقة فيتحدث عن البراق ويصفه وصفًا جميلاً وكأنما يتمثله فى غرته وفى حافره ويضيف هاتين الطغراء والخاتم فيراه ما فى القدس من أبنيه وبذلك يصيب صفة هذه المدينة من حيث كونها مقدسة بكل معنى للقدسية فكلامه فى هذه الأبيات تتمة لما قال فيما سبق من أبيات وهو فى

---

(١) الزركشى: إعلام الساجد، ص ٢٨٦ (القاهرة ١٣٨٥هـ).

تكرار الدفن! استحباب الدفن فيها يذكرنا بما سبق أن قلنا إن غير واحد من الصوفية قصدوها تبركًا بزيارتها وإن كانوا لم يدفنوا فى أرضها ولكنه يذكرنا كذلك من أن الفرس كانوا يطوقون إلى أن يدُفنوا إلى جوار الشاعر سعدى الشيرازى وأن الترك كانوا يوصون بأن يدفنوا بالقرب من الصحابى أبى أيوب الأنصارى.

وفى عام ١٩٢٤ على التحديد قدم الشاعر خليل مطران القدس فى زورة دعى إليها واستقبله أهلها بإجلال وإكرام وفى حفل تكريم له أنشد قصيدة تحت عنوان «تحية للقدس الشريف» قال فيها:

سلام على القدس الشريف ومن به ... على جامع الأضداد فى إرث حبه
على البلد الطهر الذى تحت تربه ... قلوب غدت حياتها بعض تربه
حججت إليه والهوى يشغل الذى ... يحج إليه عن مشقات دربه
هو البيت يؤتى سؤله من يؤمه ... فأعظم به بيتا وأكرم بشعبه

ثم بعد ذلك يتقدم إلى من كرموه وبذلوا له القرى بالشكر ولكن يعنينا منه قوله فى البيت الأول من هذه الأبيات على أنه يجمع الأضداد مريداً بذلك أن من يزورونه يتساوون والظن إنه يريد من يختلفون فى العقيدة الدينية إلا أنهم يتفقون فى شوقهم وطوقهم إلى زيارته حجاجًا ثم يشير إلى بيت المقدس على أنها بيتٌ من زاره حقق بغيته وهى الرغبة فى نيل المثوبة من الله والتكريم الذى هو حقٌ على المزور أى إكرام زائره. إن كلام مطران يجمع بين التعبير عن النزعة الدينية ومدح مناسبة اجتماعية لها عظيم من أهميتها إنه لا يركن كثيراً إلى الخيال بل إن الواقع الذى عاش فيه مكرمًا جعله متعلقا بحقيقة ما وقع له وكاد يحبسه عن أن يتجاوزه إلى القول فى روحانية الدين وهذا ما يفرق بينه وبين شوقى فيما ذكر عن القدس.

ونقترب مع الزمن إلى ماضى قريب أى بعد أن استولى الإسرائيليون عليها فنجد الشاعر حسين عرب وزيرالحج والأوقاف الأسبق بالمملكة العربية السعودية القائل:

القدس يا مسرى النبى ... ومنارة الحق الأبى
يا أخت مكة والمدينة ... فى التراث الطيب
هتف الجهاد بنا إليك ... فجاهدى وترقبى
اليوم يوم الثأر من ... أعدائنا فتأهبى
المسلمون توافدوا ... من مشرق أو مغرب

المسـجـد الأقـصى يُنا ديهم لعـز المطلـب
رايات أحـمـد أقـبلت تحـمى حـمـاك فـرحـبى
نـعم الفـداء اليـوم يو م القـائد المتـوثب
بذل الدم الغـالى وغـا مـر كـاللظـى المتلهب
ليـزيل عـدوان العـدو المسـتـبـد الأجنـبى

فى هذه القصيدة يستهل الشاعر فى بدء شعره بجعل القدس فى منزلتها أختا لمكة عند المسلمين وبذلك يضعها في موضعها إذ إنه كعربى مسلم ينفطر لها قلبه بعد استيلاء اليهود عليها وتثور حميته وتتحرك حماسته ويريد ليغير هذا الباطل الذى رآه فينصب من نفسه قائدًا أو ما يشبهه يدعو إلى النفير ومجاهدة أعداء الدين والقصيدة تموج بالرغبة فى الثأر للمدينة فهى من شعر الحماسة بكل معنى لها ولا ينسى المسجد الأقصى الذى يناشد المسلمين فى بقاع الأرض أن يزحفوا إليها ولا يولوا مدبرين لينقذه ممن يعادونه، ويتمثل له جيشا من المجاهدين يزحف إليها كأنه بحر لجىّ فعليها أن ترحب بمقدمه لينصرها وليحمى حماها ويريد للمسلمين المجاهدين أن يطلبوا الشهادة ويبذلوا الروح فداءًا لها ويتمثل المجاهد الذى بذل دماءَه عن طيب نفس وتمثله نارًا تريد أن تحرق ما يصادفها لتجعل العدو اليهودى رمادًا لها، إنه يعبر عن شعور كل مؤمن يريد ليدفع السوء والعدوان عن بلده الذى يقدسه ويزود عن حوضه وبغيته من ذلك حسن المثوبة بالشهادة.

وممن قالوا فى القدس شعرًا معجبًا نزار قبانى وقبل أن نورد قصيدته ونعلق عليها ترد على الخاطر خاطرة لا نملك أن نصرفها عنه، ألا وهى أن نزار قبانى شاعر غزل بكل ما تتسع له الكلمة من معنى بل يلقب فى تاريخ الأدب بشاعر المرأة فهو يتغزل ما وسعه أن يتغزل فى جوارحها وينطلق على سجيته فيقول ما يقول فى جرأة وصراحة عارية وشعره لا يكاد يخرج عن هذا النطاق فيما نعلم ولكن نزار قبانى يفاجئنا بدراسة عنه تحت عنوان «نزار قبانى والشعر السياسى» وهنا نفطن إلى أن هذا الجانب لم يكن معروفًا فيه أو مشهورًا عنه ففى هذا الكتاب جديد.

ولكننا مع ذلك لا يسعنا تناسى أو نسيان أنه دبلوماسى وهناندرك أننا عرفنا عنه شيئًا وغابت عنا أشياء. ونحن لا نذكر إلا قصيدة له تحت عنوان «هو امش على دفتر النكسة» وكانت صرخة فى وجه حكام العرب وكل الأسباب التى كانت سببًا لهذه النكسة يقول أحمد تاج الدين مؤلف كتاب «نزار قبانى والشعر السياسى» أن قصائد نزار السياسية

أصبحت تلقى اهتمامًا ورواجا من جميع الأوساط الأدبية وغير الأدبية حتى رجل الشارع راح يتفاعل مع قصائده السياسية ويرى فيها عن المشحون الفكرى لديه وقد منعت هذه القصيدة من التداول كما منع نزار من دخول مصر(١) .

حينئذ نحن أمام شاعر أصيل من شعراء السياسة بمعنى الكلمة ويأتيك بالأخبار من لم تزود، ومّا أوتينا من العلم إلا قليلاً. ويعنينا هنا قصيدة له تحت عنوان «القدس» وها هى ذى بتمامها :

بكيتُ حتى انتهت الدموع
صليتُ حتى ذابت الشموع
ركعت حتى ملنى الركوع
سألت عن محمد فيك . . وعن يسوع
يا قدس يا مدينة تفوح أنبياء
يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء
. . . .
يا قدس يا منارة الشرائع
يا طفلة جميلة محروقة الأصابع
حزينة عيناك يا مدينة البتول
يا واحة ظليلة مرّ بها الرسول
حزينة حجارة الشوارع
حزينة مآذن الجوامع
يا قدس يا جميلة تلتف بالسواد
من يقرع الأجراس فى كنيسة القيامة؟
صبيحة الآحاد
من يحمل الألعاب للأولاد؟
فى ليلة الميلاد . .
. . . . .
يا قدس يا مدينة الأحزان

(١) أحمد تاج الدين : نزار قبانى والشعر السياسى ص ٦ القاهرة ٢٠٠١م.

يا دمعة كبيرة تجول فى الأجفان؟
من يوقف العدوان
عليك يا لؤلؤة الأديان . .
من يغسل الدماء عن حجارة الجدران
من ينقذ الانجيل
من ينقذ القرآن . .
. . . . . .
يا قدس . . يا مدينتى
يا قدس . . يا حبيبتى
غدًا . . غدًا سيزهر الليمون
وتفرح السنابل الخضراء . . والزيتون
وتضحك العيون
وترجع الحمائم المهاجرة
إلى السقوف الظاهرة
ويرجع الأطفال يلعبون
ويلتقى الآباء والبنون
على رباك الزاهرة . .
يا بلدى
يابلد السلام والزيتون!

إن نظرة تأمل فى هذه القصيدة ترشد إلى أن الشاعر أراد أن يشير إلى أنها تخص المسلمين والمسيحيين ففى مفتتحها تمثل نفسه فيها مسلمًا يصلى ومسيحيًا يصلى وقال إنه سأل فيها عن النبى ﷺ وعن المسيح عليه السلام وأشار إلى البتول وهى السيدة مريم . وهو يُحسن فى قوله إنها أقصر السبل بين الأرض والسماء وفى هذا إشارة لا محة إلى معراج النبى ﷺ . كما أنه بعد ذلك يرق لها من تلك الشدائد التى نزلت بها والنكبات التى تعاورتها . إن قلبه يفيض رحمة بها وهو يتمثلها طفلة محروقة الأصابع وهى كما لا ينسى كونها واحة مر بها الرسول ﷺ والواحة أجمل ما يكون فى عينى من يمر بها فى صحراء ترامت أطرافها وتباعدت آفاقها كما يتحدث عن آثارها التى انهار منها ما انهار وهدم منها

ما هدم فأثارت آثار الهدم والتدمير فى النفوس لوعة الأسى خاصة إذا كانت دينية مقدسة، ثم تخيلها فى ثياب الحداد والحزن لأن من احتلوها من الصهاينة لم يسمحوا للمسيحيين بدق الأجراس فى كنيسة القيامة. ولكن لنا هنا ملحظ هو أنه قد فاته أن يذكر المسجد الأقصى وإن كان أشار إشارة لامحة إلى المساجد. وعاد إلى ذكر ليلة الميلاد وفيها يلعب الأولاد بما يهدى إليهم من لعب ونقول إنه تجاوز الأولويات إلى ما بعدها فى الأهمية وإن كان أراد أن يثير الرقة للأولاد فى يوم عيدهم، وجميل منه أن يجعلها مدينة الأحزان دامعة الأجفان بعد اعتداء الصهاينة عليها واستلابهم إياها لؤلؤة الأديان، ويعرضها فى صورة مستبشعة لجدران فيها تلطخت بدماء أراقها المعتدون الغاشمون ويضرب على ذلك الوتر الحساس ذى اللحن الحزين الذى يحزن لسماع رنينه وحنينه كل مسلم ومسيحى مشيراً إلى الإنجيل والقرآن الكريم، ثم يقول إنها مدينته، ولا غرو فقد كانت القدس فى فترة من الزمن تابعة لسوريا وهو سورى إلا أنه بعد ذلك يفيق من غمرة الأسى، ويشرق الأمل فى قلبه وخياله ويوقن بأنها سوف تتبدل من ترحها فرحًا، وسوف يتكشف الليل مُد لهم الظلام محزان عن فجر بسام راقص الألحان. كما يشير إلى عودة من أزعجوا عن مدينتهم فتطيب لهم مستقراً ومقاماً ويعود الطير المهاجر إلى عشه ويجمع الله شمل الآباء والأبناء وتبدلت الحال غير الحال. إن قصيدته تعرف بما يسمى وحدة القصيد لأن بدايتها ذات صلة بنهايتها والمعانى فيها متماسكة لا فراغ بينها وليس فيها من فجوات.

ولكن ثمة مأخذ يؤخذ عليه إنه ركب الشطط عن وعى أو غير وعى، فذكر ما يتنافى مع صريح القرآن الكريم، وتتأذى به نفوس المؤمنين وذلك فى شطر من بيت أمسكنا عن ذكره. كما أنه أشار إلى الأولاد مرتين وهم يلهون ويلعبون وإذا احتكمنا إلى حسنا الأدبى قلنا إن ذكر اللهو واللعب وعبث الأولاد، يهبط بمستوى شاعرية هذه القصيدة التى غمرتها روحانية الدين. وإن بدا عليه أنه كان معنيًا بإقامة الدليل القاطع على أن هذه المدينة خاصة بالمسلمين والمسيحيين دون من سواهم. وكان محسنًا أيما إحسان وهويتمثل نفسه يصلى خاشعًا حتى ذابت الشموع مشيراً بذلك إلى أن المسيحيين يصلون فى كنائسهم والشموع موقدة ثم أشار إلى ركوعه ويريد بذلك ركوع المصلين فى صلاتهم وهذا منه فضلٌ لا يجحد لأنه جمع فى أكثر من موضع بين المسلمين والمسيحيين فى قصيدته أو فى مدينته.

وللشاعر صالح جودت قصيدة فى القدس وهو وإن كان أميل إلى نظم الشعر فى

الأغانى بالعربية الدارجة إلا أنه من الأحايين يقول فى المناسبات. وها هى ذى مناسبة هامة يقول فيها:

رحاب الهدى يامنار الضياء
سمعتك فى ساعة من صفاء
تقول أنا البيت ظل الإله
وركن الخليل أبى الأنبياء
أنا البيت قبلتكم فى الصلاة
أنا البيت كعبتكم للرجاء
فضموا القلوب وولوا الوجوه
إلى مشرق النور عند الدعاء
وسيروا إلى هدف واحد
وقوموا إلى دعوة للبناء
يزكى بها الله إيمانكم
ويرفع هاماتكم للسماء

إنه يواجه هذه المدينة كأنما خطرت بباله أو وقعت تحت عينه، وينطقها بقولها إنها بيت ظل الإله وركن ابراهيم الخليل، كما أنها البيت قبلة المسلمين فى صلاتهم، ويرغب إلى المؤمنين أن يولوا وجههم شطرها داعين.

إنه بذلك يبين رفعة منزلتها فى قلوب المؤمنين وهذا هو واقع الحال والإشارة إلى ذلك من قبيل تحصيل الحاصل:

يا عطاء الروح من عند النبى
وعبيراً من ثنايا يثرب
يا ضياء الحرم الطهر الذى
يشرق النور به فى الغيهب
قم وبشر بالمساواة التى
ألفت بين قلوب العرب
والإخاء الحق والحب الذى
وحد الخطو لسير الموكب

والجهاد المؤمن الحر الذى
وصل الفتح به للمغرب

إنه فى هذه المجموعة من الأبيات يتجاوز ما يتكرر قوله فى قدسية المدينة وعلو قدرها ليقرن بينها فى الفكر وبين يثرب والحرم، لكنه يخرج ن ذلك بغتة للاتجاه بالخطاب إلى العربى ليحثه على أن يشكر أن هذه المدينة توحد بين المؤمنين فى بقاع الدنيا وهى رمز لوحدتهم فعليه أن يتحد مع إخوانه فى الدين فى موقفه إزائها، وينبغى أن تكون الرمز الصادق لوحدتهم وحدة المسلمين وتآلفهم واجتماعهم على رأى وحد كاجتماعهم على دين سمح واحد وكأنما يثير حميتهم للجهاد فى سبيل الله .

أمة علمها حب السماء
كيف تبنى ثم تعلو بالبناء
فمضت ترفل فى عزتها
وتباهى فى طريق الكبرياء
بيد توسع فى أرزاقها
ويد تدفع كيد الأشقياء
سادت الأيام لما آمنت
أن بالقوة يسمو الأقوياء
فإذا استشهد منهم بطل
كانت الجنة وعد السعداء

إن فى هذه الطائفة من الأبيات يتكرر المعنى الذى قصد إليه الشاعر فى الطائفة التى سبق ذكرها إنه يتحدث عن مجد المسلمين وهذا أمر لاخفاء فيه ولكنه لم يذكر بعد القدس ومنزلتها فى تاريخ الإسلام، كما أنه جعل يمجد أمة الإسلام ويقول إنها تدفع كيد الطغاة البغاة الذين يدخلون حريمها وكأنما يريد أن يثير حمية المجاهدين ليزودوا عنها مستشهدين فى جهادهم .

من ساحة الإسراء فى المسجد
من حرم القدس الطهور الندى
أسمع فى ركن الأسى حريمًا
تهتف بالنجدة . . . للسيد

وأشهد الأعداء قد أحرقوا
ركنا مشت فيه خطى أحمد
وأبصر بالأحجار محزونة
تقول : واقُدْساه يا معتدى

وهنا يدخل الشاعر على الغرض الذى بعثه على نظم قصيدته وبعد أن قال ما قال على وجه الإجمال يقول على وجه التفصيل فيتوجع لما صنع الصهاينة من هدم وتحريق وتمزيق وكيف دنسوا مواضع خطوات النبى ﷺ وغيره من الأنبياء وذلك أنهم لم يرعوا حرمة للمقدسات التى ينبغى أن ترعى ولا يتأثم من تناسى حرمتها إلا كل جبار فى الأرض بينه وبين البشرية أمد بعيد. ثم يقول:

لا والضحى والليل إذا سجى
وكل سيار به نهتدى
لن يطلع الصبح على ظالم
مستغرق فى حقده الأسود
سترجع القدس إلى أهلها
مجلوة بالمجد والسؤدد
والمسجد الأقصى إلى ربّه
يزخر بالركع السّجد
ستشرق الشمس على أمة
لغير وجه الله لم تسجد

نرى أن صالح جودت فى ذكره لعودة المشردين الذين أزعجوا عن ديارهم كان أقوى لهجة وأكثر تأكيداً لما يقول معتمداً على الله الذى يرفع إليه كف الضراعة والدعاء وهو موقن بأن الله سيستجيب دعاءه وينصف المسلمين من كيد وبطش الظالمين إنه متفائل يمتلئ قوة وفتوة.

أمامحمود حسن إسماعيل له قصيدة بعنوان (الآذان الذبيح) وعنوان القصيدة اسم على مسمى يفهم منه أنه آذان المسجد الأقصى وبذلك ندرك أن الشاعر إنما يختص هذا المسجد بقصيدته وهو يحبس كلامه فى مجال لا يخرج عنه فليس لكلامه تقدمة ولا خاتمة. وسوف نجد فى قصيدته المعنى الواضح فى لفظ لا يوشيه الخيال إلا بمقدار فيقول :

تلفت . . فمازال خطو النبىّ
يرش لك النور بالراحتين . .
ويسقيك إسراؤه فى الظلام
رحيق القداسة من خطوتين
ألمت شعاعاته بالتراب
وخطت به أولة القبلتين
وأول إصغاء هذا الوجود
لرب السماوات فى سجدتين
وأومت إلى الأرض فانساب فجر
جديد الضياء إلى كل عين
وطارت بمعراجها فوق بحر
وضى العباب بلا شاطئين
على طائر من هيولى غيوب
شذا الخلد يحدوه من جنتين

إنه يناجى المسجد الأقصى مناجاة تسمو به إلى عالم من روح ونور، ويقول إن قدسيته منبثقة من خطو النبى ﷺ فيه ويقول إن هذا الوجود أصغى أول ما أصغى لصوت السماء كان فى أول سجود كان فيه وبذلك غمر الأرض نور دونه نور الفجر ثم يقول :

وحشد الملائك من حوله
يزف التسابيح فى موكبين
وركب النبيين عطر ونور
وريًا صلاة على الجانبين
ويرقى . . فيفتر عرش الإله
وللذات يهرع فى ومضتين
إلى قاب قوسين أو منه أدنى
ومن بينه لا وجود لبين
عناق المدى وانعناق الصدى
وفجر يضوئ للكوكبين

ثم يرى المسجد الأقصى بين الملائكة وهم يحفون به صاعدين به إلى السماء، كما يرى على جانبيه النبيين ومنهم ينفح العطر، ثم يرتفع إلى قاب قوسين فى السماء. وكأنما يرى المسجد الأقصى يعرج فى السماء بالنبى ﷺ ثم يقول :

وما زال يحدو السّنا فى ثراك
ويجريه للروح والمقلتين
ويصغى لجرس الأذان الذبيح
يبث العتاب إلى المشرقين
ويهدر من حشرجات السكون
ينادى . . وأين الصدى راح أين
هنا الله . . كيف استباحوا حماه
وجاروا على حرم القبلتين
وكيف وقد حاربوه جهاراً
وعاقبهم بأسه مرتين

إنه يتخيل هذا المسجد صاعداً إلى السماء، أما قوله إن السنا النور يحدو أى كأنه يغنى للإبل فى ثراه ويجريه للروح والمقلتين، فهوإمعان فى التخيل وكأنما الشاعر فى نشوة دينية حالمة لا يفرق فيها بين الحقيقة والخيال كما يقول إنه يصغى إلى الأذان الذبيح ويعتب على المشرقين ولكن ما وجه العتاب للمشرقين وعلى من كان هذا العتاب ويتساءل عن الصدى يريد بذلك الآذان ويفضى من ذلك إلى أن الله هنا ويأخذه شديد العجب لأن الطغاة البغاة استباحوا حماه يريد بذلك المسجد الأقصى وكيف اعتدوا على حرم القبلتين فكأنه بذلك دخل بالعموم على الخصوص فبعد أن أصاب فى رأيه وخياله صفة المسجد الأقصى عاد إلى الواقع وعجب لمن اعتدوا على حرم الله، وكيف أنهم اعتدوا عليه مرتين ولكن لم يفلتهم من بأسه وبطشه وعاقبهم بإثمهم وذنبهم ويقول :

يعودون كل الخطايا خطاهم
وكل الخنا مترع فى اليدين
ومهما استبدوا سيأتى الصباح
وتنقض ثالثة الكرتين
ومهما عتا رجسهم فى ثراك

وأدناسهم داست الصخرتين

ستجتاحهم كرة للسماء

بها النصر دوى بتكبيرتين

على حومة من جبين العروبة

تعلى أذانك فى الفرقدين

والشاعر هنا وصاف يرفرف بجناحين من خيال ويتدرج فى وصفه حتى يبلغ الغاية من شعره فيتجه إلى المسجد الأقصى فى صراحة ويزف إليه البشرى بأن المصلين سيعودون إليه وأن الله تعالى سيؤيد المسلمين بنصره ويدوى الآذان للمصلين، إنه لم يوضح للمتدبر المتفهم ما أصاب المسجد الأقصى على يد الصهاينة ولعله قال قصيدته قبل أن يستفحل أمرهم ويتمادوا فى غلوائهم.

ولكنه عامر القلب بالإيمان يؤمن فى يقين أن الله سوف يأخذهم بسوء ما عملوا وينصف المظلومين من الظالمين.

وللشاعر أحمد سويلم قصيدة تحت عنوان (صلوات فى المسجد الأقصى) من عنوان القصيدة، أنه يعنى لم يقتصر فى قوله على المسجد الأقصى بل كان حسبه أن يجعل المسجد الأقصى عنوانًا تندرج تحته أغراض أخر كما أن ذكره للصلوات تكشف عن إيمان يعمر به قلبه ويحن حنينه إلى عودة المسجد الأقصى إلى المسلمين ليؤدوا الصلاة فيه يقول الشاعر:

لن تسألنى أرضى يومًا

من أنت؟

لن يسألنى أمسى..

لن تسألنى المئذنة الشاهقة الهامة

فأنا ما جرجرت الساقين لها فى تيه الغربة

ما ارتعدت أطرافى وأنا ألهو فوق روابيها

ما سقط سلاحى وأنا أدفع عن شرفات النور

أدرى كم حبة رمل فى أرضى

كم تاريخ يخلد فوق الجدران

كم صوت أذن.. كم ناقوس دق..

أول ما يلفتنا إليه هو مفتتح هذه القصيدة التي مهد به لأكثر من غرض . إنه متلطف إلى أبعد مدى وهو يتشمل هذه المدينة مدينته بل مسقط رأسه ، وربما أول أرض مس جسمه ترابها ، وجرت بها قدماه في ملاعب طفولته . إلا أنه يقول أو يفهم مما قال إنه تغرب عنها وتمثلها مشتاقًا إليها وله الذكريات عن أيام له سلفت بها مما زاده شوقًا إليها . إنه يعرف كيف يحصى عدد الرمل فيها كما لا يذهب عن خياله الحالم صوت الآذان وصوت الناقوس وهما يتعاونان على التعبير عما تموج به قلوب المؤمنين والمتقين من إيمان ينطق في صوت المؤذن ورنين الناقوس ، ثم يتدرج في التعبير عما لا يعزب عن خاطره بعد أن بلغ أشده فتمثل نفسه مجاهدًا في سبيل ا لله يتنكب سلاحه في الزود عنها وحماية ذمارها . ثم يقول :

تسكنني أرواح القديسين الشهداء
تتوعدني أيدي القتلة
أتنور في قلبي . . في عيني . . في أنفاسي
هأنذا ياصوت الزمن الدافق
أقبض من أرضي العذراء
قبضة ثأر وعناد
أقسم فيها بالإسراء
أقسم فيها بالشهداء الأحياء
وعلى هدى ابن الخطاب
وعلى درب صلاح الدين
لم تمت الصلوات بقلبي
لم تمت الدعوات بسيفي
لم تخمد أنفاسي في ليل الهم
لكني . . سرج جوادي مصنوع من جلدي
بارودي . . سيفي . . ثأري . . تتنزى بالرغبة
خطوي . . أنفاسي . . تتوقد تحت الشمس
صلواتي تحمل كل عهود الحب . .
صلواتي في ظل المئذنة العذراء
لن تغرب عنها الشمس

ثم يجد الروحانية الدينية عليه صابغة فى حين تلوح له الأيدى الآثمة التى تريد أن تورده مواقع البوار والهلاك، إلا أن قناته لا تلين ولا يكترث للتهديد والوعيد، ولا يستحل أن يولى مدبرًا وينكص عن الزحف المقدس، وهو فى هذا من شأنه إنما يستمد العون من الله، ويسأله أن يعينه على نصرة الدين الحنيف وهو يريد أن يدرك ثأره فى إصرار وعناد ليشتفى من ظالميه. ثم يقسم بالإسراء والشهداء متذكرًا ما كان من عمر بن الخطاب رضى الله عنه وصلاح الدين الأيوبى اللذين سبقاه إلى إدراك الثأر فى الزمان الخالى، إلى أن يقول إن لسانه مازال يلهج بالدعاء، وكأنما يتخيل أن سيفه قد علاه الصدأ ويطلب منه أن ينعم بالصقال ويحسن الإحسان كله فى أن سرج فرسه من جلده أى إنه لا يفارقه على حال من الحال وكذا كل ما لديه من سلاح يختلج رغبة فى القتال، فهو مجاهد فى سبيل الله يريدً أن يعلى كلمة الدين ويحق الحق بعد إزهاق الباطل، ثم يسوق الكلام إلى مدينة القدس قائلاً:

يترجل فى ساحتك الفرسان
يا شمس الليل الصاعدة بأشواق الأرض
يا ساحة عيسى ومحمد
يترجل فى ساحتك الفرسان
تسقط من أيديهم كل سيوف الزيف
هذا يوم الكلمة
يوم يبطل فيه سم يهوذا
فلتسقط كل الكلمات الجوفاء
ولتتحطم كل مناقير الغربان
وليحيى البحر الميت ينزف فى الصحراء
ليعيد الصوت يهلل بالتكبير وبالأسماء
ويعتد الضوء الصاعد بالإسراء

إنه يتمثل معركة يقود غمارها أهل لا إله إلا الله، وقد دخلوها رافعين راية النصر بعد أن ردوا كيد أعدائهم فى نحورهم، وأسقطوا حججهم وهى بهتان يتحير من بطلانه. ويهتف معلنًا ذلك النصر الوشيك الذى يغير الحال غير الحال ويشنف الآذان صوت الآذان الذى يجعل السكينة فى المسلمين بعد أن استردوا حقًا هولهم ولن يكون لغيرهم، ثم

تتلهب الحماسة فى دمه وتثور ثائرته كما أسد هصور، ويرسم لنا صورة له فى حومة الوغى وهو يضرب الرقاب ويشتفى من الظالمين فيقول :

أنتظر الآن عشاء الثأر
أثأر للشهداء الأحياء
أثار للمئذنة العذراء
أدمى فى ثأرى وجه القتلة
هأنذا تحت القبة . . جنب الصخرة . . عند الباب
أترقب . . أهفو . . أتوعد
تخلو الأيدى إلا من صرخات السيف
يخلو قلبى إلا من ثأرى المحموم
تخلو أنفاسى إلا من لهفات نحو النور
لك عهدى يا يوم الثأر
لك عهدى عهد الله . .
أن يعلو صوتى يوما بالصلوات وبالتكبير
أن يحيا البحر الميت يجرى فى الصحراء . .
أن أختم صلواتى بضجيج النصر
وأقطع أيدى القتلة

إنه مقاتلٌ مقدام جميل منه أن يتمثله بين مقدسات المدينة . إنه يطلب الثأر ولو على حد الصوارم ورءوس العوالى، كما أنه يعرض لنا نفسه عربيًا فتيًا فى معركة النصر أو معركة القدس والخيال على قدر الحقيقة من بدايتها إلى نهايتها .

وللشاعر محمد التهامى - المعروف بشاعر العروبة؛ لأنه قال كثيرًا فى مناسبات عامة تختص بمناسبات لها بالعرب وثيق الصلات- قصيدة بعنوان «القدس» يقول فيها :

كثير ببابك تلك الصور   وأكثر منها لديك العبر
وذكرك أعيا لسان الزمان   لعمق الحكايا وطول السير
أيا قدس يا ملتقى الأنبياء   ومن ذاق أمر السّنا فأتمر

إنه يجعل لقصيدته مقدمة يتجه فيها بالكلام إلى القدس فيضعها فى منزلتها بين المدن وينسب إليها ما لا ينسب إلى غيرها وما كان له غنية عن قوله إنها ملتقى الأنبياء فهذا من الدلائل على سمو قدرها واتصافها بما ليس لما سواها، ثم يقول :

ويا واحة منذ فجر الوجود   تجمع فيها الهدى وانتشر
تربى النبيون فى حجرها   وأرضعت الحق حتى كبر
وضمته فى الدفء أحضانها   وساقته أنفاسها فانتشر
وأول خيط الهدى عندها   وآخره فوق كل البشر

جميلٌ منه أن يتصورها تلك الأم الرءوم التى تحتضن أبناءها فى حنو رقيق دافئ دافق، كما يشبهها تشبيها آخر فيجعلها واحة مخضوضرة تهتز بالزروع وتميل بالثمار فى صحراء جرداء غير ذات زرع، ولكن ما للواحة من صفات ليست لها إلا على التشبيه فخصبها وجمالها فى الهدى الذى انتشر فعم جميع الأرجاء. فكان لها الفضل فى إصباغ النعماء على كل البشر. ويقول :

ويا صخرة لامستها السماء   فلا هى نور ولا هى حجر
ولكنها بين حضن السماء   وحضن التراب لها مستقر
بها خفقة من جناح البراق   تبقى توهجها.. واستمر
تصلى على جانبيها الرياح   ويغسلها بالعطور المطر
تعيد حفيف جناح يطير   لغير قداستها لم يطر
ومن قبل أن تستجيب الرياح   لإنسٍ على منكبيها عبر
إلى القدس حيث تجلى النداء   فكل نبى كريم.. حضر
وأول داعٍ أقام الصلاة   أدار إليها التفات النظر
ولولا مكة ما فاتها   ولا غاب عنها اشتياق البصر

إن الشاعر فى هذه الطائفة من الأبيات وصاف يصيب صفة ما يقع عليه البصر وما تدركه البصيرة في وقت معًا، إنه يحسن أيما إحسان فى وصف الصخرة التى تقع العين عليها ولكنه يتجاوز كل ملامحها التي تبدو للعين إلى ما لا تراه العين بل تضمه الجوانح فى قلب مؤمن موقن. كما يقول إن الرياح تصلى على جوانحها، إنه يشبه صوت الرياح بصوت المصلى فيجعل لها من القدسية مالها. ولا يريد للمطر أن يهطل عليها ليغسلها بل يريد لهذا المطر أن يكون عطرًا يضمخها. كما أن صوت الريح عنده يذكر بحفيف جناح جبريل عليه السلام. ثم يقول إنها تتلو مكة المشرفة فى رفيع المنزلة. وينتقل بعد ذلك إلى وصف القدس فى محنتها وما جره الظالمون عليها من بلايا ورزايا ينفطر لها قلب الإنسانية ويتمزق وتتأذى بها نفوس المؤمنين دون أن يمتد إليها ما يشعب القلوب بالسلوان.

أيا قدس ديس المكان الجليل وغطى على الطهر رجس أشر
وسيقت لك النار خجلانة وكاد ينوح عليـــها الشرر
وفى قدميك مضوا يحفرون فتشهق تحت عـــلاك الحفـر
ويحرسك المسلمون الصغـار على حين خاف الكبار الخطر
وحين تخلت عـمــا ليقنا تولى الصدام ذوات الخـفـر
تسن العصافير منقارهـا وترمى على الدارعين الحجر
وتهرع عند دوى الرصـاص إلى عشها فى أعالى الشجر
كأن الحصـاة بمنقارهـــا رمى خالد سهمها فانتصر
كأن الأبابيل فى صفــها تعبئ أحجارها من سقـر

إنه فى هذا البند من شعره يغلظ اللائمة على من لم يمد للقدس يد العون، ليدفع عنها ظلم الظالمين ويشير إلى أن الصهاينة حفروا تحت المسجد الأقصى، ويشير إلى أن ظلمًا صراحًا، ويعجب كيف أن رؤساء العرب وأمثالهم لم يشحذوا همتهم ليدفعوا هذا البلاء عن المسجد ويتخيل أن الطيور تلتقط حصيات من جهنم لتلقيها على رءوس المعتدين متذكرًا بذلك الأمر الطيور الأبابيل التى ألقت بحجارة من سجيل على جيش أبرهة الذى أراد أن يغير به على الكعبة.

إنه يذكرهم بأنهم تقاعسوا عن نصرتها وهذا منهم ما كان ينبغى أن يكون. وهذا منه رأى سديد ويندمج فى تاريخ الصهاينة الذين مدوا أيديهم الآثمة إلى المقدسات التى كان ينغبى أن يرعى شأنها إنه هنا يبين أن الحفر تحت المسجد الأقصى هو السبب الذى أثار حميته ودفعه إلى أن ينظم فيه مؤرخًا. و لكن يبدو عليه أن الغضب سكت عنه وأن الغمرة قد انجلت، وأن المياه عادت إلى مجاريها، وأن التوبة محت الخطايا. فقال يصف من تابوا وأنابوا واستغفروا وطلبوا إلى الله أن يحط عنهم خطيئتهم فجعلوا يصلون سائلين الله أن يحط عنهم خطيئتهم.

ولى فى حمى الساجدين الكرام هناك فؤاد دعـا واصطــبر
فآذانــه تنتشــــى بالأذان إذا انداح فى غبشات السّحر
يهـزّ قلوب الجـبـال الثـقـال ويرمى على الرمل دمع الزهر
يشد عمالقـة ينسلــــون إلى الصحن فى خطوات الحذر
صفوفًا تحير رصد العيون أفيهم ملائكـــة أم بشر

تعبئهم فى صرير الشفاه | وتحرسهم فى الطريق السور
كأن جباههم فى السجود | عيون تجيد احتراس الخفر
ويستغفرون العلى القدير | هنيئًا لهم إنه قد غفر

إنه يمس شغاف القلوب وهو يذكر الآذان فى السحر، ويقول إن هذا الآذان يهز القلوب، كما إنه يذكر الزهر وعليه الندى ويتمثله متأثرًا بسماع الآذان وله من قطرات الندى قطرات الدموع وهو بذلك يتذكر ما جاء فى الذكر الحكيم من أن القرآن إذا أنزل على جبل تصدع من خشية الله. كما يدفع العمالقة العظام إلى ساحة المسجد للصلاة، ويتمثل ملائكة معهم فى صلاتهم يحرسونهم ويردون عنهم عادية من يريدون بهم السوء أثناء صلاتهم. كما أن القرآن يحميهم شانئهم، إنه يعبر عن إيمان ترسخ فى قلبه كما أشار من بعيد إلى تفاؤله بعد تطيره مما وقع للمسجد الأقصى والمصلين.

وهذه قصيدة لشاعرة فلسطينية تسمى عائشة الخواجا الرازم والقصيدة بعنوان «جند الأقصى» وهى قصيدة تتلهب حماسة وتتنزى غضبًا وسخطًا على من اعتدوا على حرمة المسجد الأقصى وكأننا بهذه القصيدة منسوبة إلى فارس مغوار فى يوم هو ليث كريهة يصول فى ساحة الوغى ويجول ويطيب له أن يبذل الروح فى سبيل النصر. تقول الشاعرة الفلسطينية:

دروب القدس نرعاها ونهفو | لدرب المسجد الأقصى اعتزاما
ونشرب من عيون النهر بأسًا | بلون الدم يلتحم التحاما
ننادى الصابرين بها برفق | نقول الجند تهديكم سلاما
نمنى الصامدين بصوت نارٍ | يهبُ العالمون له احتراما

إنها تدعو إلى الزحف وتبدو فى صورة مجاهد لا ينكص ولا يفتر وتتزايد حماسته وتشتد قوته وهى تتحدث عن قومها وتعلن على رءوس الأشهاد أنهم حماة القدس، ثم تمضى فى حماستها وحميتها فتقول:

بنا فالزحف يطهر كل يوم | فجيش العزم يا ملهوف راما
يروم الحرب كى يرقى بشعب | بحبّ القبة الشماء هاما
وفوق الغاصبين لبيت مهدٍ | نصب النار صبًا والحماما
نفُلّ العابثين بقدس أرضٍ | ودمع الأهل يودعهم جذاما

إنها فى طليعة المقاتلين الراغبين فى إدراك ثأرهم من عدوهم، كما تتحدث عن قومها إضافة إلى حديثها عن نفسها وتقول إن الحرب هى التى سوف تنصفهم وترفع من شأنهم وتمسح عن جباههم وصمة الخزى والعار. وتريد لهم أن تصب النار صبًا على الغاصبين فتوردهم موارد الحمام.

نقوم ولَلرصاص مع اشتيـــــاق ... نناجى التلَّ عطفًا والرّغاما (١)
فـيـا جندى هيـــــا هبَّ برقًـا ... ينيـر الدار لى عـامًـا فـعـامًـا
يدوم المسـجـد الغـالى احـتـرامًـا ... كـمـا بالجند هذا النصـر داما

إنها أشبه ما تكون بقائد يخطب جنده، وتحسن فى تشبيه الجند ببرق ينير دارها من بعد بنوره. كما ترى فى ذلك تقديسًا وإجلالاً واحترامًا للمسجد الأقصى، وتدعو بدوام النصر للجند، وتمضى لتقول:

عشقنا الأرض كى نحيا كرامًا ... أكف الجند تمتشـق الحساما
ولن نرضى بدمع الأهل قهرًا ... ولن يرضوا لنا دمعًا سجامًا
ونغتنم المعارك ضـــــاريات ... كما فى الوقع نغتنم اغتناما
ونزرع خط جـبـهـتنا حـرابًا ... كـمـا بالنار ترتسم ارتسـامًـا

إنها تعتز بقومها اعتزازًا وتفخر بهم فخرًا وتعظمهم قدرًا. إنها لا تنفك تذكرهم. مقاتلين حتى النصر، وتقول إنها عشقت الأرض أى الوطن كى تعيش مع قومها كرامًا، كما أنها تخرج عن أنوثتها فى وقدة حماستها، فتكره لنفسها وقومها أن يبكوا كما لا ترتضى أن يبكوا على محاربيهم وهذه شدة المراس بعينها والضراوة فى القتال التى لا غاية بعدها. وتقول إن القدس تستجيب لهذا من أهلها وتقول أيضًا أن القبة تذرى الدمع، وتطلب إلى العرب قاطبة أن يهبوا لنجدة القدس، ولقد طال على العرب ما طال من خزى لزام أن ترجع عنهم وتطأ بأقدامهم قومًا لئامًا.

تجيب القدس كى تغدو لوصل ... بقلب الوردة الحـــمراء ناما
تسيح القبـة الصـــــفراء دمعًا ... يناجى العُرب غـوثًا والكراما
على جـــــرح تفاقم فـــوق أرض ... وصالت كى تدوس هى اللئاما

إن هذه القصيدة معركة ضارية تقودها هذه الشاعر الفلسطينية معبرة عما تجيش به

(١) الرغام: التراب.

الصدور، وعن الأسباب التى ينبغى الأخذ بها ليتحقق أمل لا يتحقق إلا بتلك الأسباب. وبهذا تكون قد ذكرت الحقائق ولم تتعلق بالخيال المحال.

وللشاعر إبراهيم عيسى قصيدة فيها شبه من قصيدة الشاعرة عائشة الخواجا الرازم و لكن مع اختلاف فى التناول يقول الشاعر فى قصيدته وهى بعنوان «جراح القدس» والفرق بين بينها وبين قصيدة الشاعرة التى تحت عنوان «جند الأقصى» يقول الشاعر:

وجراح القدس فى أعماقنا ... صارخات هاتفات بالرجال
فإذا نحن بقايا من رجال ... ونزيف من كلام لا يقال
وإذا نحن ظلام مترف ... وضمير نام فى صدر الجراح
نحن تجار كلام مزهر ... ذبح الحلم.. وما أبقى الصباح
ومشى التاريخ خزيان الخطى ... كلما أبصر فى أرض هوان
ثم نستنكر أو نشجب.. أو ... نتمطى فوق أوحال الزمان

إنه يرثى لحال قومه، ويغضبه ويسوءه منهم خضوعهم وخنوعهم إزاء قضيتهم ولا يلقى بالا إلى كلام وشعارات لا تغنى عن الحق شيئًا، إنه يبكتهم ويعجب لهذا من أمرهم، بل يعنف بهم حين يقول إنهم ليسوا رجالاً بل بقايا من رجال، ثم يشير إلى واقع الحال عند العرب فيذكر كيف إنهم يطوون صدورهم على جراح لا تندمل حزنًا على القدس التى تهتف بالرجال وكأنما خاب الرجاء فيهم ليخفوا إلى نجدتهم.

أورق الحزن على أيامنا ... وتشتتنا.. فصيرنا كالسراب
وإلى الغرب أقمنا كعبة ... وحججنا واعتمرنا بالعذاب
وترنمنا لأنا فى الهوى ... دول قد سالمت أخطارها
كم عشقنا ها وهمنا نشوة ... يا لشاة عشقت جزارها
آه لو صرنا جميعًا دولة ... تجذب الفجر إذا ما الليل طال
وتوهجنا مدى أيامنا ... لملكنا بين أيدينا المحال
آه لو نخلع ثوب الخطباء ... واكتسينا بدروع الفاتحين
لكتبنا بدمانا ما نشاء ... وإلى القدس مضينا عائدين

إنه يبدو مدبرًا لخطة يرتضيها لقومه ويريد لهم أن يعتمدوا على أنفسهم وأن يكونوا واقعين لا متخيلين ولا معتمدين على دول لا تكترث لحالهم، بل تريد لهم أن يبقوا على ما هم عليه كما يهزأ بهؤلاء الخطباء من بنى قومه، ويقول إن هذا لا يغنى عنهم شيئًا

ويستوجب على قومه أن يكفوا الظالمين على ظلمهم وأن يجاهدوهم جهد المستطاع وأن يكتبوا بدماء الشهداء صفحة جديدة فى تاريخهم بعد أن ينصرهم الله نصراً مؤزراً . إنه يشبه أكثر من واحد من الذين قالوا شعراً فى القدس فى الحث على أن يكون مساعر حرب .

وهذا مشاعر مصرى من مدينة المحلة الكبرى له قصيدة تحت عنوان « نداء القدس» تنشرها له مجلة الهداية التونسية[١] وأن ينشر هذا الشاعر قصيدته فى مجلة تونسية يستدل منه أنه يريد أن يعتلي منبراً من بلد عربى ليخطب العروبة على اختلاف بقاعها ، ولم يقتصر على أن يسوق نداءه إلى قومه فى مصر وحدهم .

أهابك أن أفضى إليك بصبوتى ... وحبك ملء القلب فى كل دقة
وأيام عمرى قد أضأت سنيها ... فأسعدت روحى يا كبير المعزة
حبيبى ، منى عينى ، ومنية خاطرى ... فلا تنسنى واعطف على بنظرة
عرفتك معطاء كريما على المدى ... فأغدق على الحب فى كل فكرة
أحاسيس قلبى يا ضياء دروبنا ... تناديك فى شوق شديد ولهفة
فأنعم على قلبى بذكرك مشرقا ... وكن لى شفيعا يا ملاذى وأسوتى
إليك حبيب الله يا منبع الهدى ... أبث شكاتى فى أنين وحسرة

والشاعر هنا يتناول الغرض الذى يبغى القول فيه على نحو غير ما عهدناه عند من سبق أن نظرنا فى شعرهم : إنه يجرى على لسان القدس شكاة ترفعها إلى رسول الله ﷺ وتبثه حبها له ولا عجب فهو الحبيب إلى كل قلب ، وتبلغه أن لها حاجة عنده فى مأمولها أن يقضيها لها بما عُرف عنه من سعة كرمه واستجابته لكل من دعاه إلى خير يحققه له . ثم تصرح له بواقع حالها لتظهره عليه وتلفته إليه ﷺ فيقول :

ومسجدنا الأقصى أسير مكبل ... يعانى شديد الظلم فى كل برهة
وأبناؤه فى القدس يبغون فكه ... وتخليصه من كل هول وشدة
يهزون بالأحجار كل معاند ... ويحظون بالتأييد فى كل ثورة
يذبون عن أعراضهم بدمائهم ... وأمجادهم تزداد فى كل قطرة
بأرضهم الخضراء يلقون حتفهم ... وفى دارهم ذاقوا كئوس المنية
وأطفالهم قد قتلوا وتيتموا ... ولكنهم قد قاتلوا بفتوة

(١) محسن عبد ربه : مجلة الهداية ، السنة (٢٥) العدد (٣) ص ٧٣ ، تونس ٢٠٠م .

نسـاؤهم أحـشـــــاؤهن تمــزقت　　وفى السجن قـد لاقين جـرم البلية
إليك رســول الله يشكون حــالـهن　　بلغ إله الكـــون هـول المصـيـبـة

إن الكلام فى هذا البند من الشعر فيه الكلام مسوق إلى رسول الله ﷺ ، إنها تطلب إليه أن يرفع إلى الله تعالى أمر القدس وما يموج فيها من أحداث جسام ليقضى ما هو قاض فى حالها. إنها تذكر المسجد الأقصى وكيف دنس الصهاينة قداستها. والظن أن الشاعر فى هذا الأمس القريب نظم قصيدته بعد ما كان من انتفاضة الفلسطينيين وما واجهها به أعداؤهم فيقول إن أهل القدس يريدون أن يفكوا عنه ما صفده به الصهاينة من أصفاد لا طاقة لهم بفكها عنه، وتلك طامة كبرى لأنها تمس إيمانهم فى الصميم وليس فى يدهم من سلاح إلا السلاح الأضعف وهو الحجارة التى يرجمون بها المعتدين، ولهم حقهم الذى يؤيده لهم الناس قاطبة. كما أنهم لا يملكون ذبًا عن أعراضهم إلا بدمائهم ولا يجدون من ذلك جدوى. وإن كانت هذه الدماء فيها أمجادهم. كما أنهم يقتلون فى أرضهم الخضراء كما أنهم قتلوا وذاقوا فى عقر دارهم شر قتله، أما أبناؤهم فذاقوا المنون وإن قاتلوا بأحجارهم على قدر طاقتهم، أما نساؤهم فألقين فى غيابات السجون. وبذلك أفصح صادقًا عن حال من فى القدس. ويرفع كف الدعاء إلى نبى الله ﷺ إلى أن يلتفت إلى هذا الهول العظيم فلا ملجأ لأهل القدس إلا حمايته ورعايته بفضل ما له من فضل عظيم. أما فى المجموعة الثالثة فيتحدث بلسانه هو متجهًا بالخطاب إلى القدس فيقول:

أيا (بلدة الزيتـون) بالنصـر أبشـرى　　ولا تيـأسى أختـاه فى أى خطوة
ألـم يأتك المختـار فى خيـر مقـدم　　يؤم جـمـيع الأنبيــــاء بحظوة؟
ألـم تهنئى بالمسلمين جـميعـــهم؟　　ألـم تنتمى للعرب فى كل نهضة؟
ألـم تخمدى الأعداء فى كل هجمة؟　　ألـم تخرجى كل السمـوم بحكمة
ألـم تسخرى من كل أيد أثيمــة؟　　ألـم تقطعيـها فى شموخ الأبية؟
ألـم تشهدى يا قدس خير انتفاضة　　بها كل فخر للبــــلاد ورفعة؟
ألـم تجعلى الأعداد صيد شباكنا؟　　ألـم تحرميهـم نـــوم أية ليلة؟
ألـم تتـركـيـهم عند كل ندامـة؟　　ألـم تكشـفى بالنور أية ظلمـة؟
ألـم ترفعى صوت الحجار[1] مـدويا؟　　لكـى تنقذى المظلوم من سوء عثرة

---

(١) المرادة الحجارة، وحذفت التاء لضرورة الشعر.

ولكنه يستبشر وكله أمل فى أن الله سوف يغير الحال غير الحال بفضل النبى ﷺ ويتجه بكلامه إلى القدس ويذكرها أن النبى ﷺ قدم إليها ليكون إمامًا للأنبياء وحسبها هذا فخرًا لها، كما يقول إنها انتمت للعرب أجمعين فى كل نهضة . وقد قطعت الأيدى التى امتدت إليها لتؤذيها مريدًا بذلك أنها لم تعدم من واجهوا المعتدين بما كفهم بعض الشيء عن عدوانهم، ثم يصرح بذكر الانتفاضة . إنه فى حقيقة الأمر يؤرخ لهذه الانتفاضة، وهو يستشرف غدًا أسعد من اليوم للقدس خيرًا من الأمس بعد أن دعى الله لها وبين الواقع من حالها ولقد أحسن بأن ختم قصيدته ببيت فصله عن بنود قصيدته السابقة فقال :

فسوف يعود القدس بالنصر هانئًا   بفضل إله الكون فى كل وجهة

وهذا الشعر طيب الكلام وهو يتضمن حقائق تاريخية فى كلام يتسلسل متماسك ويكشف عن الحقيقة دون شطح من خيال .

والشاعر الفلسطينى عبد البديع عراق له قصيدة بعنوان «يوم الثأر» يقول فيها :

الله أكبر يا قدس اهتفى فرحًا   الله أكبر . . والأبطال تقتحم
تدوى الخناجر للإقدام معلـــنة   كالرعد جلجل فى الآفاق يحتدم
وساحة الحرب للأبطال مفخرة   صوت الرصاص زغاريد لها وفم
اليوم يحلو لقاء الموت يا وطنى   إن الحيـــاة على ذل لنا سقم
وموكب النصر مازالت جحافله   تواصل الضرب بالنيران تضطرم
لترجع الأرض كالماضى عروبتها   وتأخـــذ الحق قسرًا رغم أنفهم

إن هذا الشاعر الفلسطيني الوطنى الغيور ينطق عما ينبغى أن ينطق عنه كل إنسان من قومه تموج به غيرته وبسالته وتدفعه دفعًا إلى أن يذود عن وطنه إنه يبدو شديد الشكيمة عنيف المراس لا يعرف إلا الإقدام ولا يولى بالإحجام أمام حقه فى وطنه .

إنه قبل أن يعبر عما ينبغى عمله لاسترداد القدس من مغتصبيها تدفعه حماسته إلى توجيه كلامه إلى القدس يزف إليها البشرى بعودتها إلى أهلها وقوله الله أكبر هتافًا للمجاهد المسلم الذى لا ينثنى عما يبتغيه من نصر أو شهادة . ثم يرفع صوته واصفًا تلك المعركة التى يخوض غمارها قومه ، وينطق النصال فى صليلها كأنها قائد على رأس جيش يأمر بمشى عسكره إلى العدو فى ثقل لكثرتهم، وهو متفائل مشرق التفاؤل بالنصر ولذلك تخيل دوى الرصاص بالزغاريد التى تعلن البشرى، ويلتفت إلى نفسه وهو يصف شأنه بالنسبة إلى وطنه فيكره لنفسه كل الكراهة أن يقعد عن القتال وأن يرتضى الذل والعار إذا

لم يهب مقاتلاً فى سبيل وطنه، إنه يستعذب العذاب بل يؤثر الموت على الحياة ليحيا وطنه. ولا يغيب عن خاطره أن المعركة دائرة الرحى لا تفتر ولن تتوقف وذلك لتسترد القدس عروبتها، ويضرب على هذا الوتر فيتجه إلى القدس ويريد أن ينزل السكينة عليها ويبعث الأمل فى نفسها فيقول :

الله أكبر يا قدس اهتفى أملاً — إنا أتينا . . سنمحو عنك كيدهم
الله أكبر . . هل ماتت حميتنا — أين المروءة والإيمان والشمم
كيف اليهود على قدسى وفى وطنى — أرض النبوات قد ديست بذلهم
يا قوم هل ترتضون الخصم يسكنها — لاشك . . لا فهو فى أجسادنا ورم
أنات أهلى مازالت تسائلنى — أين الوفاء وأين العهد والذمم

إنه يعاود النداء إلى القدس ويصدر كلامه بـ «الله أكبر» فيحدثها بما يهتف به المقاتل فى ساحة الوغى ويعدها بأنه سوف يخف لنجدتها مع قومه الذين يعضدوه ويساندوه. ثم يلتفت إلى قومه ويتسائل مستنكرًا عن حمية قومه فيؤكد أنها لن تموت، وكأنما يذكر قومه بالإيمان والمروءة والشمم وهذا مازال فى هؤلاء المقاتلين المجاهدين ويقول إنه ينزه أرضه الطاهرة عن اليهود الذين داسوها ودنسوها وأقاموا فيها، وهى أرض النبوات وكلها طهر وبركات ومازال متجها بالكلام إلى قومه فيشد من عزمه ويقوى من عزيمتهم ولا يرتضى لهم إلا أن يكونوا جنودًا يدفعون عادية الأعادى، وبعد ذلك يذكر أهله وأنهم يئنون ويتعذبون ويسألونه أين وفاؤه لهم وتخليصهم إياهم مما هم فيه من بلاء، ثم يفضى به الكلام إلى الفخر بعروبته ولا يريد دخيلاً فيها وبعد ذلك يهتف هتاف القائد ويقول إن الدهر كأنما جاء باسط الأعذار مما حاق بالعرب وأن الحال تبدلت غير الحال وجعل يهجو اليهود بكل ما يستحقون من هجاء ويقول إن العزة للعرب والذل لليهود ويختم كلامه بأن الله على ما يقول شهيد :

بلادنا ملكنا والعرب تسكنها — فلا حدود ولا الأجزاء تنفصم
الله أكبر قد عاد الزمان لنا — وساعة الذل قد ولت برغمهم
فيا لصوص الدنا جاءت نهايتكم — ويا قراصنة . . اليوم حتفكم
أحفاد يعرب لا يرضون منقصة — العز منزلنا والذل بيتكم
والله يشهد أن القدس قبلتنا — وتشهد الأرض والآفاق والأمم

إنه يختتم كلامه فيزف البشريات إلى القدس على الأخص والعرب على الأعم بأن الدنيا أقبلت عليهم بعد أن ولت عنهم .

وينتقل بنا الكلام إلى شاعر سعودى هو حسن عبد الله القرشى فى قصيدة «كفاح القدس» يقول فيها :

حيّ فتى يعرب عهد الكفاح   واسترخص النفس لحرّ النضال
واشرع إلى صدر العدو السلاح   منطلقًا من عزمات الرجال
القدس تدعوك فلا تنثنى   إلا وللنصر رؤى ظافرة
واحشد له من صولة المؤمن   ما يتحدىّ الفئة الكافرة

إن هذه من قصائد الحماسة ففيها يبدو هذا الشاعر المؤمن وهو يدعو العرب قاطبة إلى السلاح والكفاح لرد القدس إلى أصحابها من العرب ، إنه يدعو إلى الجهاد بمعنى الكلمة ويثير الحماسة ويشد من عزمات المقاتلين المنافحين فى كلام صريح هو الواقع الذى لا يوشيه الخيال . ويمد الشاعر الكلام متصلاً بما قال فى البند الأول من القصيدة فى البند الثانى . ويتذكر العربى الأبى أبناء قومه ممن وطنوا العزم على الجهاد أن يشدوا على عدوهم وهو عدو دينهم فهو يذكرنا بالمسلمين فى صدر الإسلام وهم يجاهدون أهل الشرك .

لكنما النصر قريب قريب   إذا مضينا أمة واحدة
وكلنا ليث حمى غضوب   يأنف ذلّ العيشة الراكدة
القدس كم فوق ثراها دم   قد طلهُ العادى الكفور الخئون
وكم شجاها البغى من مجرم   لما يبالى غضبة الثائرين

وأهم ما نلتفت إليه هو دعوته إلى اتحاد المسلمين أجمعين حى يخرجوا فى صف واحد للقاء عدوهم الذى فعل بالقدس الأفاعيل وهو على الحق فى هذه الدعوة العامة التى لا يجد لها أثرًا فيدعو إليها ويستوجب وجودها ، إنه يريد للعرب أن يتقدموا كرجل واحد للجهاد فى سبيل الله . وفى المجموعة الثالثة يتجاوز القدس إلى ما حولها من أرض فلسطين ليبين كيف أن أهله وعشيرته من العرب وقعوا تحت شديد العذاب وكيف ينبغى الأخذ بيدهم والدفاع عنهم . وهو بذلك فى دعوته العرب جميعا للقتال لا يتخلف منهم أحد، لا ينسى ما حاق بالعرب من غير أهل القدس وهم أهله وعشيرته والواجب الأوجب أن يخوض حربًا يسعيرها العرب جميعًا لينقذوا من فى أرض فلسطين كلها ، وهم فى مسيس الحاجة إلى من يحمى حماهم ويمد إليهم يد العون .

يافا وحيفا ومغاني الصـــبا   عادت حمى من وطني مستباح
ومشـرق النور غـدا مغـربا   أين الحفـاظ الرّ أين الطماح
هناك في عكا وفي المجـدل   لي إخـوة لـي ولـد ولي أب
كم طعنوا في الخلق في مقتلٍ   وكم أهينوا قـبل أو عـذبوا

إنه لا يتحدث عن نفسه كعربي سعوديّ ليس إلا لأنه لا يريد أن يتخلف عن وجوده في صف واحد مع العرب، لقد ذكر أن له أهلاً في قطرٍ غير قطره وهو ينظر بذلك أن العرب شملٌ مجموع، هيهات، أن يتجزأ.

لا لن ينام العرب مهما بدت   طلائع للشـر تستكـبر
وعصبة الباغين مهما عتت   فالله من سطـوتها أكبر
لا تحسبوا أن رنين القيـود   غيـر نذير بصليل السيوف
ستعرف الدنيا بأنا أسـود   تسترجع الحق برغم الحتوف

إنه من بعد يرفع صوته الجهوري يهتف بالعرب في المشارق والمغارب، في دعوتهم إلى القتال، ويقوى ثقتهم بأن الله سوف ينصرهم نصراً مؤزراً ويذكرهم في قوله إن ر نين القيود التي كبل بها ، كبل بها الطغاة البغاة إخوته نذير بصليل السيوف التي لهم وهم يخوضون معركتهم مع أعدائهم، أي أن الخزي والهوان سوف يصبح نصراً وعزاً بفضل المقاتلين الشجعان، وهذا معنى ما أجدر أن يثير الحمية في المقاتلين ويبشرهم بالنصر الوشيك.

ثم يتجاوز ذلك إلى تذكير أخيه العربي الأبي بماضي قومه المجيد ويردد على سمعه ما كان للعرب من فتوح حققوا بها في تاريخهم من المحامد والمفاخر ما سجله لهم التاريخ في صفحات من نور، ويريد لهم أن يكونوا خير خلف لخير سلف ثم يقول :

يا أمتي سيري ولا تحفـلي   بناعق يهذي بعقبى المصير
ماضيك كالشعلة في المحفل   ما ريعَ يوماً من أذى مستطير
القدس كم فوق ثراها السلام   وأسفر الصبح وضيء الجبين
لا تحفزي بعد انطلاق ذمـام   حاشاك أن تثني خطاك المنون

ثم يشد أزر إخوته المقاتلين ويحذرهم من أن يولوا مدبرين ويحثهم على الصمود في جهادهم ويغريهم بأن الفتح قريب وسوف تدور الدائرة على العدو، أما هم فلهم حسن العاقبة، والله كفيل بنصرهم. ويقول في البند الأخير من قصيدته :

إنا تنادينا وحق النداء أن نمحو الدهر قذى الغادرين
شعارنا النصرة للأبرياء وزادنا ذاك التراث الأمين
ولتشهد الدنيا بأنا الألى قد حفظوا فى الكون عهد السلام
حتى إذا لم يبصروا موئلا امتشقوا للثأر أمضى حسام

ونقف عند قوله أن العرب عاهدوا الله أن يمحوا القذى من عيونهم بعد أن وضعه الغادرون فيها. لوددنا فى هذه القصيدة التى تموج حماسة أن لا يذكر هذا القذى وهو ما يقع فى العين من تراب أو مثله من عيون العرب لأن هذا القذى أدنى ما يكون، ومقصد الشاعر أن يشبه ما أوقعه الصهاينة من عذاب على العرب به، وياليته شبهه بما هو أشد وأعظم من القذى ليكون للمجاهدين الفضل فى رفع ما وقع على العرب من غليظ العذاب.

ولهذا الشاعر ديوان يتضمن قصيدة عنوانها «القدس والأطياف الممزقة» (١) وفيها يعبر عن غرضه بكيفية مبتكرة لأنه يقول إنه زارها قبل خريف المذبحة وصيف الذل أى قبل أن تسوء حالتها إلى الغاية بعد ما لحقها من الصهاينة ما لحقها ليبين كيف أن اليوم الحاضر كان شرًا من الأمس الذائب معلنًا بذلك عن أن الصهاينة لا يزالون يعنفون بها ويبطشون بأهلها ولا يكفون عاديتهم عن تدنيس قدسية المسلمين فيها:

كعائد من القمر
كقائد على خصومه انتصر
كالطفل حين يبكى بعد غيبة
عند لقاء أبوين حانيين باكيين
كأوبة الجندى للموطن بعد فورة الصراع
وكالمهاجر المشوق يستقر لا وداع
كعاشق دنا له الوصال بعد أن أرقه الفراق
أتيتها كعبتنا الأولى، وملتقى البراق
ومرتقى «النبى» للسماء
أتيتها مدينة السلام، والسنا، والكبرياء.
ومهد «عيسى»، ومراد أمه «العذراء».

---

(١) حسن عبد الله القرشى: ديوانه مجلد ٣ ص ٢٣٧ - ٢٤١ القاهرة ١٩٩٩م.

أتيتها قبل خريف المذبحة
وقبل صيف الذل، قبل أن يهجع موتى الأضرحة
من قبل أن تعود ضيعة لتل أبيب
وقبل أن تجلل القيود كفها الخضيب
من قبل أن يحترق «الفرقان» فى «الأقصى» ولا من يستجيب
قبل انحسار الصبح، قبل غيبة الرجال
وقبل أن تغوص أعناق النعام فى الرمال
وتحصب الأحجار من جباهنا
ويسخر الأنذال
أتيتها

إن هذه القصيدة تتألف من شطرين من حيث الغرض لأنه يتمثل أنه زارها أيام كانت فيه هي القدس بمعناه المقدس عند المؤمنين طرًا، وفى زورته لها كان مفراحًا فى نشوة الفخر بها والإعجاب بمقدساتها وقد هزه الشوق والحنين إليها ويشبه نفسه بطفل عاد إلى والديه بعد غيبة، وأحسب أن هذا التشبيه فيه أثر لبيت من الشعر قاله نزار قبانى فى قصيدة غنيت له، ولكن القرشى يضيف إلى هذا المعنى أن الأبوين كانا يبكيان فى انتظار عودة ولدهما الذى غاب عنهما، ولكنه كذلك يشبه نفسه بالجندى الذى عاد إلى وطنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها فهو فى أمان وطمأنينة وسكينة نفس، وكمن هاجر ثم آب إلى وطنه بعد طول حنين إليه، ثم يرق الشاعر فى التشبيه فى رسم صور تشبيهاته فيشبه نفسه بالعاشق الولهان الذى نعم بالوصال بعد طول الفراق. ثم يقول إنه أتاها وهى الكعبة الأولى للمسلمين، ويتصل بهذا من أسباب قدسيتها، والمعلوم عنها من حيث كونها فى قدسيتها ضمت المسيح عليه السلام وأمه رضى الله عنها وكل ما هو معلوم، لا حاجة بنافيه إلى تعريف بالمعرف، وقبل أن تبتلى بالخزى والهوان، وقبل أن لا يهب لنجدتها رجل متوقظ الحمية من العرب، ثم ينتقل الشاعر إلى وصفها بعد ما ابتليت به على يد طغاة بغاة ويتجه إلى مناجاتها فيقول:

« القدس»
أين أنت اليوم يا أنشودة الجدود والأحفاد؟
«القدس»
أين أنت اليوم يا ساح صلاح الدين؟

يا مزرعة الأبطال؟
يا حديقة الآمال؟
أتيتها من قبل أن يلفها الظلام، والضباب، والدخان
وقبل أن تعيث فى ثراها الطهر حفنة الغربان
قبل مصارع الأحلام، قبل الجدب والضياع والخواء
وقبل أن نقفز فى الفراغ فى الهواء
أتيتها والزرع يفتر خصيباً
والأغانى لم يزل فيها ندى
والمحاجر الغر حبالى بالدموع بعد
والنواقيس تغنى
والأذان مجلو الصدى
هل ترقأ الدموع يا «قدس»
إذا لم نستعد ذاك الثرى؟

إنه فى هذه الطائفة من شعره لا ينفك يذكر القدس أيام مجدها وأبطالها الغر الميامين الذين فتحوها ويريد ليصف حالها الذى ساء من بعد وإن كان لا يملك أن يمتد به الكلام إلى وصفها من قبل ثم يقول:

والآن يا «قدس» قتيل الشوق، مصلوب العرى
زاده العذاب
مهاده القتاد[1]، وطعامه السراب
الدم فى شدقيه، والسمادير[2] لعينيه رؤى
واليأس والحراب
يستنجد الأحجار - لا تنجد - يستجدى الخراف
والقطيع حوله سدى
اختنق الهتاف، وانشقت حناجر الرعاة
يا «قدس» من الوجد
وكبرياؤنا تهاوت بددا!

---

(١) القتاد: الشوك.

(٢) السمادير: ما يتراءى للعين كنقط وخيوط من ضعف البصر.

وهنا نعاود قولنا أن القصيدة فى مغزاها تنقسم شطرين فهذا الشطر الثانى يتوجع الشاعر للقدس، ويتفجع عليها لما حاق بها، مما هو معلوم مفهوم، فيبين الفارق بين حالها فى أمسها وفى يومها، وبعد أن كان فى زورته الأولى لها مفراحًا، أمسى فى زورته الثانية محزانا، ثم يستنجد الأحجار ولا تنجده لأنه لم يجد من يغيثه فيقول واغوثاه ولا يسمع إلا رجع الصدى، ثم ينعى على أبناء قومه أنهم خذلوه ويشبههم بالخراف والراعى فى غفلة عنها وكأنما الراعى يرفع النداء ولا من مجيب، وهو بذلك يلتمس هدأة لسخطه وغضبه. ويبين فى وضوح جلية الأمر وشتان بين القدس فى ماضيها وحاضرها، وإذا شئنا مقارنة بين قصيدتى الشاعر حسن عبد الله القرشى قلنا إنه فى قصيدته الأولى يدعو إلى طلب الثأر وإلى القتال والجهاد فى سبيل الله العرب أجمعين فهو متحمس فى حماسته لها لا يفتر ولا يقر له قرار. أما فى الثانية فهو يتمثل نفسه جنديًا فى أوبته إلى دياره بعد أن أبلى فى المعركة أحسن البلاء وهو بذلك يفخر ويرفع رأسه عاليًا، ويسدد النكير على أبناء قومه. إنه يتخيل أنه انتصر ولكنه يثوب إلى نفسه ليجد أنه لم يحقق مما أراد مأربًا.

ونجد الشاعر الفلسطينى محمود مفلح وهو يتحدث عن القدس فى لهفة وشوق على أنها أرضه ويذكر أيامه الغر فيها ويعيش فى ذكريات الماضى وهو يجيد فى الوصف حين يقول إنه يحن إلى روابيها، وتفيض قريحته شعرًا ينتشى من شذاه، ويرغب فى أن يفديها بدمه المباح ولن ينسى ماكان بينها وبينه من وعده، فكأنه عاشق ولهان لا سبيل إلى نسيان من يهواها، ولو بعد النوى.

أحنّ إلى روابيك الفساح وألثم فيك شقشقة الصباح
ويهتز الفؤاد على قواف لها من فيك رائحةُ الأقاحى
ولم أحنث بعهدك طول عمرىَ ولم أحرص على دمى المباح

وبعد ذلك يتحدث عن شعره الذى يفيض به خاطره، وإن كان هذا الشعر لم ينطلق به وأصبح طائرًا مقصوص الجناح بعد أن كان يحلق فى سمائها كل محلق ثم يؤكد هذا المعنى فى بند آخر فيقول:

أكنى فيك أسماءً وأخشى إذا ما بحت يفضحنى بواحى
ألم أنقش على الأشجار رسمى وأرسم فوق خضرتها وشاحى
وأصدح فى ملاعبها كأنى هزار قد تمرس بالصُّداح

إنه هنا عاشق ولهان يقول كل ما يقوله يتكشف عن عاطفته فى رقة، ولكنه مع ذلك لا يتمالك نفسه من وصف تلك المدينة فى ذكريات تلحق خاطره فى اتصال ودوام فهو فى هذا من شأنه عاشق ولهان، إلا أنه يعشق مدينته، ويعبر عن عشقه بكلام من يعشق صاحبته بعد طول فراق.

ألم أدرج هناك مع السواقى	ألم أرشف من الماء القراح
ألم أبصر وراء الليل أفقا	وخيل الله تجرى كالرياح
وغضى والنجوم لنا دليل	متى أصفى السحاب إلى النباح
وغضى والطريق دم وشوق	يطير بنا الكفاح إلى الكفاح

ولكنه بعد ذلك يضرب على وتر آخر يثير فيه عزمه على الكفاح. ويضرب على وتر آخر وإن كان لا يملك أن يكف نفسه عن الحنين إلى القدس وتذكر أيامه الخوالى فيها وإن كان الحزن قد غشى نفسه فجأة فسماها بلد الضحايا وشبهها بجرح ليس له من مثيل ثم يقرن الحنين بالوصف فيقول:

أحنُّ اليك يا بلد الضحايا	ويا جُرْحًا تفرّد فى الجراح
أحنُّ إلى الربوع وساكنيها	أحنُّ إلى الغدو إلى الرواح
أحنُّ إلى المآذن مشرعات	تشع السحر فى تلك البطاح
وتتلو الآى إثر الآى حتى	يشفّ الروح عن ألق صُراح

لكنه لا يكف عن قول رقيق لعاشق دلهه الهوى، فتحدث عن هواه وهو لا يزال يتمثلها إمرأة شغفته حبًا، فهو يأبى أن يكف قلبه عنها على حال من الحال ولا يريد أن ينساها فيصرح إنها سيدة الملاح. ويتفاءل متخيلاً أن ا لله سيرد غربته وينعم بالتلاقى مع من يهوى.

وقالوا قد سلوت فقلتُ نفسى	أيسلوُ القلبُ سيدة الملاح
أأسلو ما تحذر فى حياتى	وما صاغ الرصاصة فى سلاحى
أغرّدُ بالقصيدة كل يوم	لعل الله يأذن بالرّواح
وأعتنق الأحبة يا لشوقى	وأطوى فى مرابعهم جناحى

إن هذا الشاعر فى قصيدته هذه يختلف اختلافًا ملحوظًا عمن سبق أن نظرنا فى أشعارهم، إنه يبدو شاعرًا غزلاً فارق الديار وتغرب عن الأحبة فهو يذكرهم ويذكر شأنه

معهم وهو دائم الحنين، هائم الشوق يعيش فى شعره بين ألحان يتردد صداها فيطرب لها ولا يمل من أن يسمع ما لها من رنين، إنه لا يميل إلى العنف، بل إنه رقيق اللطف ولا عجب فهو يعشق البلد ومن فيها ويحلم بأوبة الغريب إلى وطنه، وهذا حسبه فليس فى كلامه ما فى كلام غيره من دعوة إلى النزال والقتال وإدراك الثأر.

وكأنما رقق العشق من قلبه إلى الحد الذى يمحى في كلامه كل أثر للغلظة والرغبة فى القتال والنزال. إنه عاشق وكفى

وللشاعر محمد حليم غالى قصيدة تحت عنوان «لبيك مسجدى الأقصى» وفى هذا العنوان تتناهى الرقة؛ لأنه يسميه مسجده كأنما يدلله، كما يتحبب إليه بطاعته فى كل ما يرغب فيه.

وقف الصبح خاشعًا والمساء لم يجلجل من الأذان النداء
وجف القلب إذ رآك حزينًا لم يرفرف فى جانبيك الضياء
حاصرتك الآلام والليل حتى هصرتك الأحزان والأنواء
عصفت فيك وقدة الشر والسوء وعاثت بأرضك البغضاء
وتنادى الأشرار أن حطموه حيث كان المعراج.. والإسراء

إنه هنا وصاف لذلك المسجد في وضعه الحالى، يرق له من سوء المآل بين قوم طغاة بغاة، ويحزنه أن يكون هذا ما آل إليه من سوء المصير، إنه يتحدث عن هذا أو يصفه متوجعًا، وبذلك يعبر عن عاطفته نحوه. ثم يقول:

أحرقوا مسجد السماحة والنور فعمت دياره البأساء
ما انطوت صفحة العبادة فى الأرض ولا انداح فى الهباء البناء
لم يزل كعبة القلوب ومهوى كل نفس.. يلفه الكبرياءُ

ولكنه مع ذلك قوى العزيمة، ما ضعفت نفسه ولا خارت أمام تلك الفاجعة التى لا يملك الخيال تصور ما أبشع وأشنع منها فيقول إن هذا من عمل العدو الغاشم. لا يغير شيئًا من الحقيقة. إنها حقيقة الحقائق وكبرى اليقينيات، فالعبادة هى العبادة والمسجد الأقصى هو المسجد الأقصى عند كل مؤمن موقن فى أى أرض أظلها الإسلام.

لا ترع مسجدى فكم من شهيد راح منا.. وكم علا الشهداء
كعبةُ الله فى ثرى الأرض ذاقت من قديم.. وأمّها الأعداءُ
وحماها الرحمان من كل فيلٍ يوم طال الأسى.. وعمّ البلاءُ

لا تُرعْ مسجدى فقد جاء دهر	وطال فيه المغول والأقوياء
وسعوا بالشقا علينا وعاثوا	واستبدوا وأحرقوا وأساءوا
وتمادوا بكل أرض وظنوا	أنها مُلكهم . . ظلالُ . . وماءُ
وقفت مصر بالشموخ وردّتْ	عن ديار الأحرار من فيه جاءوا
مصرُ يا مسجدى العظيم بلادُ	تعرف الشمس حقّها والضياءُ
لا تُرعْ يا مسجدى فإنك أدرى	ولكل الأحرار فيك لقاء

وبعد أن يشاطره الحزن، يتقدم إليه بالعزاء، وعزاؤه مستمدٌ من حقائق وقع عليها بعد أن قلب صفحات التاريخ. فقال إن الشهداء كانوا له الفداء ثم يذكره من أمر الكعبة المشرفة حين أراد أبرهة الحبشى أن ينال منهامنالاً ولكن الله حماها، كأنه بذلك ليريد أن يقول بأن الله سوف يحميك أنت مثلها. ثم ردد كلمة لا ترع مسجدى وهذا التكرار له أثره فى توكيد المعنى وتأثير جرس الكلام، كما حدثه عن المغول وعن مصائر الجبابرة المغول وغيرهم وكيف ذهبت ريحهم. وكيف أن مصر ردّت عاديتهم فعليه أن يستبشر ولا يستيئس، إنه لم يَدْعُ إلى كفاح وحمل سلاح بل دعا إلى صبر وإيمان بقدرة الله وذكره بأن الغد حتى ولو كان الغد البعيد لزام أن يختلف عن الأمس وشعره يبدو فيه أنه عامر القلب بالإيمان راسخ العقيدة، لا يهتز لما يزلزل قدمهُ، بل يقف ويصمد والله راعيه وحاميه.

وللشاعر كمال رشيد ديوان بعنوان «القدس فى العيون»[(١)] . وهو من ألفه إلى يائه عن فلسطين ولكن فيه قصيدتان عن القدس بالذات هما موضع نظرنا الأولى بعنوان «الله أكبر» والأخرى بعنوان «من وحى مكة». وها هى القصيدة الأولى:

ماذا أقول لكم فى القدس أخبار	كأنها فى عيون القوم أقدار
فى القدس نار على الأعداء نازلة	وفى أيادى بنات الرام[(٢)] أحجار
وفى المخيم أطفال لهم همم	شماء قعساء[(٣)] فيها النور والنار
حشو البنادق لم يُرهب بنى وطنى	ولا القنابل صدت من لهم ثار
شبوا على الطوق، ردوا الظلم وانتفضوا	فهم على الظلم والعدوان ثوار
كر وفر وإقدام وتضحية	والسجن نزهتهم إن عزت الدار

---

(١) ص ٤٥، ٤٦، ص ٦٥، ٦٦، القاهرة ١٩٩٩م.
(٢) الرام: ضاحية من ضواحى القدس.
(٣) قعساء: ثابتة.

وإن يموتوا فموت العز غايتهم ... هو الشهادة جنات وأنهار
هناك حيث رسول الله يرقبهم ... وموكب النور أشهاد وأبرار

إن هذا الشاعر الفلسطينى فى هذه الطائفة من الأبيات يشيد بفضل بنات وأبناء وطنه وهم صغار ليس فى يدهم سلاح إلا الحجارة يرمون بها الأعداء وهذا غاية ما يستطيعون فعله، إنه يقرر حقيقة عُرفت عنهم وهم فى انتفاضتهم يجاهدون طالبين الشهادة التى تفضى بهم إلى جنات النعيم ولا يبالون بطرحهم فى غيابة السجن، فالسجن عندهم أشبه ما يكون بدارهم عندهم. إنهم على حداثة سنهم يعلمون قضيتهم حق العلم وكأنما يبادرون الكبار فى جهادهم، إنهم فلسطينيون يقيمون فى مخيمهم على ما ذكر فهو واقعى وكلامه أشبه شيء بحديث المتحدث، وهو يكاد يخلو من البديع وهذا ما زاده حسنًا وطيبًا. ويتمثل رسول الله ﷺ يرقبهم فى جهادهم ويحنو عليهم، وهذا مما زاد جهادهم قدسية.

ثم يوالى قوله من شأن هؤلاء الصغار فيقول إن وليدهم لا ينسى أرضه على مر الأعوام، ولم يلتفت إلى رغد العيش وزينة الدنيا وهو فى شرخ شبابه، فعزم على مجاهدة الأعداء، وعين الشاعر ضاحية من ضواحى القدس هى «رام» ليبين أن بناتها يشاركون البنين فى رجم المعتدين ويقول إنهم فى مقبل الأيام سيشتد ساعدهم ويبلغون مبلغ الرجال ويشتد بطشهم بمن ظلمهم.

عشرون عامًا مضت والجمر متقد ... تحت الرماد وجرح الأمس فوار
عشرون عامًا ولم ينس الوليدُ له ... أرضًا فصح له عزم وإصرار
لم يلهه ترف الدنيا وزخرفها ... وما تطربه كأس ومزمار
لم ينُسه ظلم أهل الظلم غايته ... ولم ييئسه إبعاد وإنذار
فجاء يوم ترى الدنيا شكيمته ... فيه، فأبلس[1] أعداء وأشرار

ويمتد به السياق إلى ذكر اليهود أحفاد يهود خيبر الذين عجبوا لبسالتهم، ثم إن كلمة «الله أكبر» دوت فى مسامعهم، فتقدموا للجهاد كأسلافهم فى الماضى البعيد و«الله أكبر» قذفت الرعب فى قلب اليهود. ثم يذكر بعد ذلك أن الله سوف ينصر المجاهدين فى عاجل أو آجل فيقول:

---

(١) أبلس: قل خيره وانكسر وحزن.

أحفاد خيبر راعتهم بسالته وأنه لكتاب الله يختار
«الله أكبر» عادت فى مسامعهم تريعُ جند يهود حيثما ساروا
يا ركب أحمد إن الحق منتصر لا تألموا إن طغى كفر وكفار
وأنتم أهل حق لا يساوره شك وهل لطلوع الشمس إنكار؟
الأرض أرضكم والقدس قدسكم والنصر شأنكم والدهر دوار

إنه فى واقع الحال عرض علينا مشهداً تقع عليه كل عين لكفاح الأطفال وهم يغيرون على اليهود بما فى يدهم من سلاح ضئيل وقد تحدث عن هؤلاء الصغار حديث صدق، ثم أنهى كلامه متفائلاً بما سوف تتمخض عنه الأيام من نصر لقد عطل قصيدته من حلى البديع كما أسلفنا، و لكنه توخى الحقيقة الصادقة فكانت قصيدته فى غنية عن زينة البديع.

أما القصيدة الثانية التى تحت عنوان «من وحى مكة» فيستهلها بطائفة من الأبيات يقول فيها إنه كان فى مكة بجوار بيت الله العتيق وفى نشوة غامرة أشرق الإيمان فى قلبه حتى دمعت عينه فى خشوع وعبر عنه بشعر رقراق فصلى، ورتل القرآن.

من وحى مكة جاء الدمع هتانا(١) حراً نقياً يزيد القلب إيمانا
والشعر أينع فى قلبى وأسعفنى فكان سيفا وأشواقا وريحانا
صليت لله فى البيت العتيق وقد شفّ الوجود وزاد القلب تحنانا
سعيت، طفت، دعوت الله فى أمل قرأت فى جنبات البيت قرآنا
وقد تحللت من ذنبى ومعصيتى وقد تسربلت بالطاعات هيمانا

ولما رقّ بالإيمان قلبه وهو فى بيت الله خطر بباله أمر القدس فقال:

يا من يطوف ببيت الله معتمراً القدس طاف بها حقد وأردانا
وأمعن القتل والتشريد فى مهجٍ(٢) وجاء بالقول تزويراً وبهتاناً(٣)
ولم يوقر صلاح الدين فاتحها ولم يقم لخطى الفاروق حسبانا
حضارة السنوات البيض هدمّها فكراً وأرضاً وإنساناً وبنيانا
يا ساعيا تبتغى الله مقربة هلا سعيت لفعل يرفع الشانا
ويا مجموع التقى ماذا لو التقت الأيدى على الحق تصلى الكفر نيرانا

---

(١) الهتان: هتن المطر اشتد هطوله.
(٢) جمع مهجة. وهى دم القلب.
(٣) البهتان: الكذب.

تعيد للقدس للإسلام عزته وتجعل الأرض تحت الخصم بركانا
يا أيها الناس إن الله يأمرنا ألا نقيم على ذل تغشانا

فى هذه الطائفة من الأبيات يدعو المسلمين ، بل ويعمم ويخصص وهو يريد أن يخصص فيدعو قومه والعرب جميعًا إلى أن يجاهدوا اليهود . ويذكرهم بمجد أسلافهم على عهد عمر بن الخطاب وصلاح الدين الأيوبى اللذين فتحا القدس ويثير حميتهم بأن الله لا يرتضى منهم خضوعًا ولا خنوعًا فعليهم أن يتفقوا على كلمة سواء بينهم ويعلنون الجهاد على الظالمين . إنه يدعوهم فى نبرة هادئة ولا يثيرهم كغيره من الشعراء بألفاظ وعبارات شديدة قد لا يرتضونها ، وفى القدر الأخير من قصيدته يقول :

يا قدس تقنا إلى الساحات نلثمها وكيف لا يعشق الإنسان أوطانا
يا حبذا «جبل الزيتون» من جبل وحبذا أهله أهلا وإخوانا
هذى تباريح(١) من يشكو جوى(٢) ونوى(٣) يُزجى التحية من أفياء «عمانا»
يا أيها الأهل لا حد يباعدنا ولا عدو وإن زادت ضحايانا
جذورنا فى رحاب القدس ثابتة وصخرة الحق نهواها وتهوانا

يقول إنه شريد عن وطنه وطريد عنه يحن حنينه إلى جبل الزيتون وهو من جبال القدس ، وإلى أهله هنالك ، والحنين يضنيه . وهو يحييهم على بعد الدار والمزار .

إن الشاعر عاطفى بكل المعنى ، ضمن قصيدته ما يقال عن القدس وعما تضمه جوانحه عنها وبذلك تحدث عنها فى عموم وعن نفسه فى خصوص .

لقد طبع هذا الديوان منذ عشر سنين أى قبل الانتفاضات المتوالية وبذلك سرد جانبًا من تاريخ القدس وما عصف بها من أحداث .

وللدكتور أحمد تيمور(٤) ديوان تحت عنوان «آهات القدس» والاسم دليل على المسمى ويقول :

للقدس آهات وآلامى
غير الآه والألم
للقدس أشواقى وأحلامى

---

(١) التباريح : الأحزان والآلام (٢) الجوى : الحزن

(٣) النوى : الفراق والبعد .

(٤) د . أحمد تيمور : آهات القدس ، ص ١٩ ، ٤٣ ، القاهرة ٢٠٠٠ .

فهل للقدس عند العاشق المحروم
غير الشوق والحلم
للقدس أشعارى وأنغامى
فهل للقدس عند الشاعر الموهوم
غير الشعر والنغم
الآن يا سادات يعرب
بعد قتل محمد فى حضننا
لا شيء يجدى غير الاستشهاد
حتى لا يكون وجودنا
فى الناس كالعدم
من بعد قتل محمد
طفل العروبة بيننا
وأبوه يصرخ
يا عروبة أين أنت
وأين يا تاريخ معتصمى
الآن
لا يجدى العناء ولا الرثاء
ولا البكاء ولا الهجاء
الآن
أضحى للمدينة بابُها
وعلى الخريطة
أصبحت طرقاتها
موشومة بالنار
إن النار تسعى الآن فى قدمى
النارُ تحملنى
وتجتاز الحواجز والحدود

إنه يتفجع ويتوجع لما آل إليه الحال فى القدس وهو لا يملك إلا زفرات وعبارات لا تغنى عن الحق شيئًا، خاصة بعد أن قتل اليهود الطفل محمدًا فى حضن أبيه فكانت جريمة يندى لها جبين الإنسانية وينفطر لها كل قلب ولو كان من حجر. إنه ليريد أن يقول إن الظالمين تجاوزوا كل حد، فهتف بالعربى مستجيراً. ويقول إن هذا سيبقى على امتداد التاريخ وصمة فى جبين قوم تجردوا من بشريتهم ما فى ذلك ريب. ويقول إن مثل هذه الجريمة أولى بها أن تثير ثائرة العرب جميعًا لتعلن إلى أى حد بعيد بلغ الصهاينة فى جبروتهم، وضربهم عُرض الحائط بكل قيم الإنسانية ثم يقول:

القدس كانت كالأساطير العتيقة
حين مات محمد
أضحت حكايتنا التى تروى
مآسينا لآسينا[1]
وآسينا بواسينا
بكلمات يتيمات
قليلات ذليلاتٍ
عن الشمّمِ

إنه يستنكر من العرب ألا تثور ثائرتهم لهذا الحادث ويعجب لهم كأنهم فى غفلةٍ عن شممهم وكرامتهم.

ثم يمضى قائلاً:

لا تسمعوا إلا أبا تمام الشادى
بأن السيف أصدق
والبنادق لا الحجارة أبلغ الكلم
هم لا يرون
سوى البنادق والمدافع والقنابل
كلمة حمراء فاقعة مدوية
فكيف اليوم

(١) الآسى: الطبيب.

نحن نواجه الصاروخ بالقلم
هم لا يرون
سوى إله عسكرى
اسمه رب الجنود
من الحديد
من المطامع صنعوه
وكدسوا البارود فى فمه المقدس
كى يسارع
بالتهام عيالنا المشوية الأضلاع
فى نهم
هم وزعوا الأدوار
بين صقورهم وصقورهم
ورأوا بأنا لانليق سوى لدورٍ واحدٍ
دور الحمامة
يمسك المنقار منها غصن زيتون
وفى العينين سمتُ تبسمُ

إنه يذكر العرب بما وقع فى تاريخهم المجيد وهو فتح «عمورية» فى عهد المعتصم العباسى وما كان من الشاعر أبى تمام الذى مدحه وأرخ فتحها فى قصيدة عصماء استهلها بقوله:

السيفُ أصدق إنباءً من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

وهو بذلك يلهب حماستهم ويدعوهم إلى امتشاق سيوفهم والذود عن حياضهم. كما يذكرهم بأن القتال لا يكون بالحجارة بل بالبنادق كأنه يهون من شأن هذا السلاح الضعيف الذى يقاتلون به من يحاربهم بالبنادق والمدافع والصواريخ والقنابل، إنهم لا يعرفون إلا بطش السلاح الرهيب فينبغى أن يواجهوهم بمثله، ثم يردد على سمعهم ما ينبغى أن تنفطر له قلوبهم وتموج له مشاعرهم الإنسانية فيقول إن سلاحهم يلتهم عيالهم المشوية الأضلاع، وفى قوله: «مشوية الأضلاع» يجسم البشاعة تجسيمًا، ثم يقول إنهم أخذوا لعدوانهم عُدته ودبروا له وخططوا، كما يتهكم ويريد أن يشرح الحقيقة المحزنة فيشير إلى أن العرب أشبه

شيء بالحمائم في مواجهة الصقور والجوارح، ويريد في تهكمه بهم أن يؤذي شعورهم لينتفضوا ويتحركوا فيقول إن الحمامة في منقارها غصن زيتون رمز للسلم أو الاستسلام وفي عينيها ابتسامة الرضا بالذل والهوان.

ثم يناشد العرب أن يلقوا إليه سمعًا ويستفيقوا قبل أن يتسع الخرق على الراقع ويعيد ويكرر على سمعهم ما كان من قتل الطفل «محمد» في حضن أبيه وبذلك لاحت لهم قدسهم العتيقة في يقظتهم بعد سبات طويل.

الآن أضحى للمدينة بابها
إن لم ندق عليه
سوف نموت في الصحرا
وحول خيامنا
ستموت قطعان من الغنم
هذي المدينة
عندما يومًا
سنمنع من دخول المسجد الأقصى لها
ستعود مكة بعدها للمشركين
سيمنع التكبير في الحرم
سنعود للأصنام نعبدها
فمن صنم
نقدم أجمل الأبناء قربانا له
نسعى إلى صنم
هذي المدينة قدسنا
هذي المدينة رمزنا السحري
شقرة لون أعيننا
ونبرة صوتنا
هذي المدينة كنزنا السري
خندقنا الأخير
لكي ندافع عن وجود الله

فى أرواحنا
عن آخر القيم
يا أيها العرب الذين تبركوا
بالجينز فوق جلودهم
وتساكروا بالكوككولا
واستطابوا المكدنالد
وصهينوا من ربع قرن
عن عروبتهم
أعرتم أذنكم للجاز حتى قر فيها
كيف يمكن أن يكون حوارنا
فى حضرة الصمم
إن العروبة
قبل خلق الأرض
تاريخ
فهل أنتم زهدتم فى لسان الضاد
يجمعكم من القدم
من بعد قتل الطفل
فى حضن الأب العربى

فى تلك الأبيات يمضى الشاعر فى مواجهة العرب بالتقريع والتبكيت ويورد الحقيقة عارية ما إن يواريها ويكلم العرب بقوارص الكلم علهم أن ينتبهوا من غفلة أنستهم واجبًا عليهم لا مناص عنه. واستوجب منهم أن يدقوا باب بيت المقدس وإلا تشردوا وضاعوا وذهبوا أباديد ثم بعد ذلك يقول ما هو من الدين فى الصميم وهو أن بيت المقدس إذا ضاعت، ضاعت مكة المشرفة فى إثرها وسوف تكون للمشركين ويبالغ مبالغة مقصودة لاستفزاز العرب فيقول إن العرب سيقدمون أبناءهم هناك قرابين، ويذكرهم ثانية وتلك هى الطامة الكبرى لا جعل الله لها من وجود، إنها الخندق الأخير فى حرب وشيكة الوقوع لابد أن يكون النصر فيها للمسلمين، ثم ينحى عليهم باللائمة ويكره منهم أن يتهافتوا على اللذات فى المطاعم والمشارب وأنساهم ذلك عروبتهم وقدسية دينهم الحنيف

وهذا شر مستطير وقانا الله منه، ثم يذكر ما آل إليه الأمر بعد أن قتل الطفل فى حضن أبيه وكان قتله هذا رمزاً للوحشية التى يعجز عن تصديقها عقل إنسان، كل هذا من كلامه نصح يبذله للعرب، وفى مأموله أن ينتصح، ثم يمضى فى كلام يدور فى دائرة لا يكاد يخرج عنها بعد أن عدد الحقائق وكان كلامه هو الحق المبين ولا ينسى الطفل محمداً ويذكره هذا الطفل بأن القتلة ربما اجتاحوا بيوت العرب ليقتلوا أطفالهم نكاية فيهم، ويقول:

كونوا كما البركان
أحشاء كواها الغيظ بالنيران
نقذف إذ يفيض الكيل بالحمم
يا أيها العرب الذين هم
على قيد الحياة
القدس آخر فرصة
لو أنها ضاعت لضَعتم
صدقونى
إنها مسرى نبيكمُ
ومعراج السماء
ومنزل الديم
لو أنها ضاعت لضعتم
فى الفيافى كالرمال
ستشترون الماء بالبترول
يوماً
سوف يشربُ منكم البترول كلُّ ظمى
لو أنها ضاعت لضعتم
لم يعد بعد احتلال الروح
من جسد
يساوى أنّ تدافع عن غرائزه
ولم يعد البقاء يهمُ
بعد تهافت الهمم

من بعد قتل محمد
طفل العروبة
جهزوا فى القدس لى قبراً
فإنى ذاهب للقدس
أضحى لى بأحياء المدينة مسكن
وعلى نوافذه يسيل دمى
يا آخر التاريخ
سوف يكون عندك موعد الشهداء
ليس يليق بالقدس التقية
أن نؤبنها بشعر جاهلى
ثم نبرئ من حقوق الله فيها
ساحة الذم
فالكل متهم بقتل محمد
طفل السماء الدرة الفضّية اللمعان
فوق جبيننا العربى
من منكم أجيبونى أشقائى وأهلى
غير متهم
أشهدت رب الكون
أن الأمة العربية اندثرت
إذا لم تحم فى بأس الرجال عيالها
وكم انتهت من قبلُ
أجناس من الأمم

الجديد فى هذه الفقرة من كلامه أنه يتهم العرب بأنهم كانوا سببًا أدى إلى قتل طفلهم الأعز «محمد» فلو أنهم كانوا جاهدوا من قتلوه لما استطاع المعتدون قتله فى حضن أبيه وتلك وصمة عار لا بد أن يمسحوها بدمٍ عن جبينهم، إن هذا الشاعر جاء في هذه القصيدة بكل ما يمكن أن يقال فى استنهاض الهمم لاسترداد القدس ممن استلبوها من أهلها وكلامه يتسلسل فى منطق سليم.

وله قصيدة أخرى فى ديوان تحت عنوان «يا قدسُ» يقول فيها مستهلاً :

يا قدسُ
يا حزينة الدروب
يا قدس
ياهلا لنا المصلوب
يا قدس
يا زيتونة تضيءُ من جراحها
وتنزفُ الطيوب
يا قدس
يا مكاننا المنفى
يا زماننا المغلوب
يا قدسُ
يا شهيدة مدفونة فى حبة القلوب

إنه يحسن الاستهلال وهو يناديها فيصفها فى محنتها ويصيبُ صفتها ويعجبنى منه أن يجعلها شهيدة دفينة فى سويدائنا ويقول :

القدسُ
يا شيوخنا
قد سئمت من عشقنا المقروء
والمكتوب
القدس
منذ مات طفُلها فى حجرها
قد سبلت جفونها
بكفها اليمنى
وباليسرى
أصمت أذنها التى نجت من الرصاص
عن حماس لغونا المكرر المثقوب

فى هذه الفقرة يصف القدس فيما آل إليه أمرها وهى فى حال لا يرتضيه لها ومحنة يا لها من محنة إنه بدلاً من أن يسوق الكلام إلى العرب يتحدث عنها ويقول : إنها تعلم أننا نهواها ولكنها سئمت من هذا الهوى الذى لا يبلغ غاية ويقول إنها ثكلت ولدها فهو لا ينفك عن ذكر هذا الوليد الشهيد الذى قتل فى حجر أمه ويقول إن القدس أمه قد ذرفت دمعها لهول مصابها وفجيعتها فيه ولكنها وضعت يدها على عينها ليرقأ دمعها بكفها اليمنى واليسرى كأنما قضى الأمر وما من حيلة عندها واليأس إحدى الراحتين غير إنه مع ذلك يقول إنها أصمت أذنها بعد أن لم يُصبها أى من العدو وكان ذلك من يأس لها من كلام العرب المكرر عنها والمعاد المملول.

ويسترسل فى هذا من شأنها فيقول إنها كرهت ما جرت به الأقلام وما تفوه به خطباء البلغاء، ويضيف وصفًا لأمة العرب فيقول إنها أمة بغير مخلب فكيف تدافع عن أفراخها البلابل البيضاء، وكيف تدفع عنها نهش الضوارى التى أنشبت مخالبها فى ظباءها ثم يقول:

تقول فيروز لنا
من نصف دهرٍ
سادتى
الغضب الساطع آتٍ
فمتى
يجيءُ
ذلك الغد الغضوب

إنه يدعو إلى جهاد الأعداء فى إجمال بعد أن ذكره فى القصيدة السالفة فى تفصيل وهو لا يغير من دأبه وديدنه فى الدعوة إلى القتال وإدراك الثأر واستنهاض الهمم الغافية والقلوب والجند الذين تخلفوا عن الزحف وكلامه في هذه القصيدة صورة قريبة الشبه بتلك التى رسمها من قبل.

ونقلب صفحات هذا اليوم حتى نبلغ الصفحة الثالثة والخمسين لنقع على عنوان «فلتقذفوا ولتقذفوا» ونرى دعوة الشاعر إلى القتال، ولكن بكيفية أخرى تتمم ما سبق أن رأيناه فى القصيدتين السالفتين له

القدس
من أمامها الطوفان
من وراء ظهرها
تهب العاصفة
فلتقذفوا الأحجار
فى وجه الرياح
فى وجه السيول الجارفة
لعلها تصير أطوادًا
تردّ عن أسواركم
جحافل التتار الزاحفة
لا تذرفوا الدموع
فى مقابل القنابل المسيلات للدموع
إن فى عيونكم
محاجراً
شوارعًا وأرصفه
وفي عيونكم
جنازات الصغار
فى عيونكم
جراح أمة
من الخليجَ إلى المحيط نازفه
سنأكل الأحجار
علّنا نصير مثلها
ما أجمل الأحجار أرغفه
علّنا نصير قصف موج
فى خضم العشق والمجازفة

إنه فى هذه الطائفة من الأبيات يردد ما سبق أن قال إلا أننا أوردناها لأنه يبدو فيها وصافًا يصف حال القدس على نحو مستطرف، كما إنه يسمى الصهاينة بالتتار وللتار

شهرتهم بالوحشية التى سجلها لهم التاريخ، ويردد ما قال فيكره للمسلمين أن يذرفوا الدموع أمام القنابل، أى إنه يريد ليقول لا ينبغى أن تلينوا أمام الشدة وتضعفوا أمام القوة. وهم يرون ما حل بهم وببلدهم، بل ينبغى أن يشد ذلك من أزركم ويحثكم على جهادكم، كما أنه يوسع نطاق قوله ليشمل العربَ من الخليج إلى المحيط، ولا يقصر كلامه على أهل فلسطين وحدهم، ولا يعجبنى الصورة الشعرية التى يقول فيها إننا سنأكل الأحجار لنصير مثلها، كما لا يحسن وقعه فى ذوقنا، أكل الأحجار أرغفة، فحسب الأحجار أن يرجم بها العدو الغاشم، وإن كان يريد التهكم كما إن شربه الأحجار لا يسوغ ذكره. ويتابع كلامه ليقول:

القدس
فى لظى النيران
تشتكى
لربّ إبراهيم من جهنم
لا برد فيها أو سلام
والجميع شاخص العينين
مُحكم على الكتفين معطفه
يا سادتى
جميعنا فى النار
كلنا فى قبضة اللظى مناصفه
بدون قدسنا
تراهُ
هل يكون للإسلام
مسجد حرام ثالث
وقبلة أولى
وقبهُ على السماء مُشرفه
هل تكون أجراس لعيد الفصح
هل يكون للتاريخ بعدها صفه

إنه يتجه بالخطاب بقوله «سادتى» إلى من بيدهم الأمر من الرؤساء الذين يستطيعون أن يغيروا المصائر، وهو يسألهم أسئلة إنكارية ولا يعدو الحقيقة فيما يقول لأنه يقول إن بعد ضياع القدس، هل يكون للإسلام مسجد حرام ثالث وقبلة أولى وقبةُ على السماء مشرفه، وهو بذلك يذكرهم بمقدسات دينهم التى لا ينبغى أن يتركوها لعدوهم. كما أنه لا ينسى المسيحيين لأنهم كذلك يفقدون بفقد القدس ما هو مقدس عندهم، وبذلك جمع المسلمين والمسيحيين فى نسق واحد من حيث موقفهم من تلك المدينة، وهو فى ذلك على الحق والصواب، وهو يُحسن فى المجموعة الآتية من أبيات قصيدته فيقول:

القدس يا عروبتى
شجرة صامدة
أمام بلطة الحطّاب
إن ترنحت
فسوف يسقط الزيتون ميتا
وسوف تسقط الظلال الوارفه
وسوف يحرقُ الهجير
جلدنا ولحمنا وعظمنا
وسوف تدفن النسور
ما تبقى من رفاتنا
بقبر جوفها
من قبل أن تصلى
فوقها الشيوخ
والأساقفة

إنه ذكر «البلطة» وهى كلمة تركية ضمن ما ذكر من ألفاظ دارجة أو غير عربية فى هذه القصيدة والقصيدتين السالف إيرادهما، إلا أنه لطيف التخيل وخياله مستساغ وليس كخيال بعضهم، الذى يصرف فى التحليق فيكون كلامًا لا يتحصل منه معنى وهو يجيد فى الكلام ليقرن بين المسيحيين والمسلمين ليشركهم فى مصير واحد. كما أنه قادر على عرض المعنى الواحد فى صور تعددت وتداخلت وتكاملت.

وفى الصفحة الخامسة والسبعين قصيدة بعنوان «نبية المدن» يقول فيها:

خمسون عامًا

فى سلاسل الحديد

خمسون عامًا من القيود

أو يزيد

يجيئنا من خلف سورك البريد

محملاً بالنار

بالدخان

بالبارود

مجللاً بالموت

والدموع والحزن

يا قدس

يا عتيقة الأحزان

يا قدس

يا نبيَّة المدن

قد ثار فى عروقك البركان

من طول ما بقلبك احتقن

إنه فى مفتتح كلامه يؤرخ فيذكر سوء الحال فى القدس منذ أن غلب عليها الصهاينة منذ خمسين عامًا أو يزيد ، ويبين ما وقع فيها من المآسى والفواجع ويردد ما سبق أن قال فيتمثلها فى حداد من هول ما بها ، ويسميها فؤادنا بالجريح إلى أن يقول فى الأبيات الأواخر من قصيدته :

يا قدس

يا مدينة الفداء

دروبك المعراج للسماء

فليلنا قد طال فى الإسراء

والفجر بالدماء

قد أضاء

هم ذبحوا فى حجرك الأبناء

فلتعقدى القماط بالكفن

يا قدس

يا عتيقة الأحزان

يا قدس

يا نبيَّة الاحزان

قد ثار فى دمائنا البركان

من طول ما بقلبك احتقن

ستنتهى الحياة للإنسان

ستنتهى يا قدسنا المحن

سيصمد الملاك للشيطان

ستهزم البراءة الفتن

سينجلى الضباب والدخان

وتدخل المرافئ السفن

وترجع استدارة الزمن

لا بد للتاريخ أن يعان

ليسترد وجهه الحسن

مادام فى سمائه الرحمن

فسوف تبقى قدسُنا الوطن

إلا أنه يتفاءل ويوقن أن الحالة سوف تصبح غير الحال بعد أن يصفها بصفاتها ويقول إنها القدس ستعود لأصحابها وأن المَلَك يريد به المسلمين سوف يصمد للشيطان ويريد به الصهاينة وكان هذا من كلامه مسك الختام .

وللشاعر رشاد محمد يوسف قصيدة بعنوان «لا بد يا قدس» ينزع فيها نزعة روحية دينية يبدو فيها من أهل التقوى وهو فى صلاته يصف نفسه وقد خطرت بباله القدس فذكرها فى محنتها كما تحدث عن أثر ذكراها فى خبيئة نفسه فقال :

أصلى وجرحك فى المهجة   أنين يغلق تكبيـــــــرتى

وأغفو وأنت الجراح النقال   تشد الخواطر فى الغفوة

وأغمض جفنى علّ الظلام   يهون من قسوة الصورة

وأصحو وملء الجفون الدموع   تحجرُ كالصخـــر فى المقلة

إنه فى واقع الحال يرشد إلى أن القدس مرت بباله حتى وهو يصلى والحقيق بمن يصلى ألا يشغل باله شىء أى شىء غير الصلاة. وهذه مبالغة مستملحة خاصة أنها خاصة بالقدس، كما يشير إلى أنه يراها فى أحلامه فإذا أفاق من نومه وجد عينيه تزرفان إلا أنه يجيد فى تشبيه دموعه بالصخرة التى لا بد تقذى عينيه ولعله فى ذلك كان يومئ إلى صخرة القدس. ثم يتابع كلامه فى سرد تاريخى ليقول:

فيا قدسُ يا روضـــة الأنبياء   وأولى المعابـــد والقبلة
تغشـاك ليل ثقـــيلٌ رهيبُ   يضجُ من الظلم والظلمـة
ذئاب علَى الدرب سدوا الطريق   وعـاثوا بأبهـــائك الحرة

فى هذا من قوله إشارة إلى القدس بعد أن احتلها الصهاينة فهو يأسى لمحنتها ويتأذى بما آل إليه أمرها وبعد أن مهد بذلك للتاريخ يقول :

مع النور يا قــدس جـاء المسـيح   وطوّف بالعـــدل والحكمـة
ونادى على الأرض يحيا السلام   وبشَّر بالحـــب والرحمـــة
تصــدت له حــفنة من يهـــود   تفـشت كـمـا الداء بالفـتنة
وباعـتـه بالبـخس بئس النفـوس   تبيعُ النبـــــوة بالرشـوة

إنه فى هذا الأبيات يذّكر بما كان من دعوة المسيح (عليه السلام) إلى السلام وكيف أن اليهود آذوه وأرادوا به السوء.

ويا قـــدسُ هذا النبى الأمـين   ييــمم شطرك فى الرحلة
ســرى النورُ يحــدوه من ربه   أمــان إليك من الكعـبـة
ليــرقى على سلم من ضـيـاء   ويحظى لدى الله بالحظوة

إنه يشير إلى الإسراء ويتخيل النبى ﷺ يرقى فى سلم من ضياء والصورة الخيالية جميلة إلا أن ما وقع هو أنه ﷺ ركب البراق.

دنا فارتوى فاستبـان اليقين   وفاض الجلال على السدرة[1]
رأى ما رأى ما يفوق الخيال   ويعتصر العقـــل بالدهشـــة
ولا بد يا قــدس من وثبـة   تعـيـد الحـيـاة من ثـــورة

---

(١) السدرة : سدرة المنتهى. وهى شجرة يقال إنها عن يمين العرش.

ولا بد من رجعة للديار نطوف بالبيت والصخرة
ونجعل من عصبة الغادرين طريقًا إلى القدس فى العودة

إنه يتلو تلو غيره من الشعراء الذين ذكروا القدس، فيقول: إن العرب لن يقيموا على الضيم ولن يرتضوا هذا الوضع وهو خزىٌ لهم إنهم سوف يثورون على الظالمين والظالمون لا بد أن تدور عليهم دائرة السوء وسوف ينكسرون أبخس كسرة ويعود المسلمون إلى قدسهم وهم يدوسون أشلاءهم فى طريقهم إليها.

أصلى وجرحك فى مهجتى أنين يغلف تكبيرتى
وأغسل عنك جراح السنين وأبنى الحياة على الربوة
ويطلع نور الصباح الجديد على الكرم والدار والضيعة

إنه يحسن فى ختام قصيدته ويصف العودة إلى القدس فى واقع يزدان بالخيال وتفاؤل يُشرق فى الوجوه وتقرُ به العيون إنه لا يسرف فى وصف ما ينبغى من عنف ليتحقق للعرب ما يريدون له تحقيقه ولكنه أشار إليه فى لين وكان حسبه أن يقول: «لابد».

وللشاعر مصطفى أحمد عبد اللطيف وهو شاعر شارك فى المؤتمرات والمهرجانات الثقافية والأمسيات الشعرية. له ديوان بعنوان «أنين القدس» وفيه شعر بالفصحى وشعر بالعامية. وفيه قصيدة بعنوان: «القدس.. صلاح الدين» يقول فيها:

اسمك يا قدس فلسطين قد ولى بعد صلاح الدين
لا حصن يواجه ريتشارد لا بدر.. عكا.. لا حطين
باعوك يا قدس الأقداس والشارى عدوٌ للدين
فلتبك أيا كل الأجراس وليعلُ على المأذنة أنين
اسمك يا قدس فلسطين قد ولى بعد صلاح الدين

فى هذه الأيات يريد الشاعر أن يبصر بما كان للقدس من منزلة بين البلدان بعد أن غلب عليها صلاح الدين الأيوبى وانتصر على ريتشارد قلب الأسد. واستنقذها من الصليبيين، إنه يعد ذلك من مفاخر العروبة. ثم يقول إنها بيعت ويريد لأجراس كنائسها أن تبكى ولمآذنها أن تئن ويقول إن صلاح الدين هو الذى حررها من غير المسلمين ولكننا نستدرك على ذلك أن القدس بعد صلاح الدين كان لها شأنها ومنزلتها فى عهد العثمانيين والمماليك وإبراهيم باشا من الأسرة العلوية التى حكمت مصر.

وله قصيدة تحت عنوان «استغاثة» يقول فيها:

من تُربــــك كنا نتيمـــــم[1] وإليــك فقد أسرى العدنان[2]
وبأرضـك ينبت زيتـــــونى ويقـيم الطيـر على الأغـصـان
وبقـدسك نادى زكـــــريا كى يكفل مــريم باســتــئـذان
ولمريم فــيـــك إذ انتـبـــذت فى الشــرق مكانًا فى البنيـان
فــتــهـــز النخلة فــيـســاقط رطب الأنعـــــام بكل أمــان
وبقلبك أم الرسل حــبــيب الله ورتل فى القــــــــرآن
وبداية مـعـراج الهـــــادى من أرضك صــوب ذرى الديان
أرض المحــراب (فلسطيــنى) مــازلت قــدسًــا فى الوجــدان

فى هذه الفقرة يذكر بالقدس كمدينة لها ما لها من قدسية بما وقع فيها مما يتصل بالأنبياء وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ولا جديد فيما تمدنا هذه الأبيات من معلومات ولكن الشاعر أراد أن يمتدحها بما لها من صفات.

ثم ينتقل إلى الكلام عـما يثير اليـهود من فـتن بين المسلمين وبين العرب وكـيف أنهم يريدون الفـرقـة بينهم، ليكون مـا بينهم خـراب لأنه فى ضـعف المسلمين فى زعـمهـم قـوة لليهود فيقول:

فتنونا . . . ســـلبوا قـــوتنا وأشاعوا الفتنة فى الأوطان
بغـــــداد تلتهم كـــويتًا من قبل وفتنت مع طهران
كى ننســى أصـــل قضيتنا وتضيع قوى هذى الأزمان
فــإذا أذكــرنا بالأقــصـــى طالتنا الفـرقـة فى البلدان
فتحــول أنظــــار العــــالم عن بوسنة فى فك الشيطان
ووحــوش الصــرب تطاردهم والعـــالم ينظر كــالأوثان
نســتنجــد نصــرخ فى الدنيــا لا شىء يعــينك يا إنســان

إن الشاعر يذكر أحداثًا فى الأمس القريب ويريد ليقول إن الصهـاينة هم الذين تسببوا فيـها بدسائسهم ومؤامـراتهم التى دبروها وخططوا لها رغـبة منهم فى صـرف أهل الحل والعقد فى الدنيا عن فلسطين وقدسها وتلك سياسة لهم عُـرفوا بها منذ زمان. ثم يزيد فى ذلك قوله إيضاحًا فيقول:

---

(١) تُرب : تراب.
(٢) العدنان : العربى وهو الرسول ﷺ.

والأم تقوم تفتــــــشنا كلصوص سرقوا أو رعيان
بغداد تصرخ لا نسمــــع صوت الأطفال على الجدران
وكسوفا قد غربت ذلا وطوينا سناها بالنسيان
يا يوسف فى أحشاء الجب النوم تخاصمه الأجفان
يا نوح فى فلــك يمضـــى أرشدنا عن سر الشطآن
يا مريم هُزى النخـــل الآن غضبًا بل سخطًا فى الوديان
يا يونس بطن الحــوت لنا الرحمة من كف الرحمن
يا موسى قد كنت كليما الأقصى فى أسر الشيطان
يا عيسى قد كنت وجيها[(١)] القـــدس تلاحقها النيران
يا سيـــد رسل الله لنا امنحنــا توقًــا[(٢)] للإيمان

إن الشاعر يطلب الغوث من أنبياء الله ويستصرخهم وكأنما يريد منهم أن يكشفوا عنه الضر كما كشف عنهم ضرهم ولهم أن يوجهوا المسلمين إلى الطريق السوى الذى ينتهى بخلاصهم من محنتهم وتنفيس الكرب عنهم.

وفى الآبيات الأواخر يرفع يديه إلى السماء داعيًا ربه أن يأخذ الظالمين بظلمهم.

أن تنزل غضبـــا يا ربى فالذنب كبير فى الميزان
أو ترجـف أرضًا نحـن بها فا لأرض خلا منها الإحسان
أو تهـــلك قومًا كي تنذر فالناس تحلوا بالعصيان
لا حيلة لى إلا أمـــلاً فالدعوة يحملها الإيمان
الأمر إليك فمـــا نحن إلا أجساد فى الأكفان
أن يرحـم ربى لا عـجبٌ فالخلق عبيدك يا رحمن

إن لهذا الشاعر صفة المؤرخ الثبت أو رجل السياسة العليم ببواطنها الذى يصدقنا القول فيما يروى وذلك فى سياق من الشاعرية حسنٌ، كما أنه يبدو مؤمنًا موقنًا يدعو الله وهو على ثقة من أنه يستجيب الدعاء.

إنه يختلف عمن سواه بأنه لم يدع إلى قتال ولا نزال، بل هداه إيمانه الراسخ إلى أن الله سوف ينزل نقمته على الظالمين المعتدين، كما سبق أن أسبغ نعماءه على المسلمين.

(١) الوجيه: صاحب القدر العظيم والشرف واستخدام الفعل فى الماضى يؤكد المعنى ويؤيده.
(٢) التوق: الشوق.

وللشاعر فاروق جويدة وهو شاعر من شعراء الطليعة فى اليوم الحاضر قصيدة كتبها[1] فى الذكرى الخمسين لاغتصاب فلسطين هذه القصيدة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام من الأبيات يقول فى الأولى :

ماذا تبقى من بلاد الأنبياء
من أي تاريخ سنبدأ
بعد أن ضاقت بنا الأيام
وانطفأ الرجاء
يا ليلة الإسراء عودى بالضياء

فى الأول يبين الوضع الحالى الذى منه يخيم الحزن على القلوب بعد أن خاب الرجاء، وضاعت القدس من أيدى أصحابها. ويذكر ليلة الإسراء لتعود لتحيي الأمل فى النفوس بعد أن أصبح يأسًا، إنه يتمنى عودتها ويطول به التمنى ثم ينتقل إلى القسم الثانى فيقول :

يتسلل الضوء العنيد من البقيع
إلى روابى القدس
تنطلق المآذن بالنداء
ويطل وجه محمد
يسرى به الرحمن نورًا فى السماء
الله أكبر من زمان العجز
من وهن القلوب . . وسكرة الضعفاء
الله أكبر من سيوف خانها
غدر الرفاق وخسة الأبناء
جلباب مريم
لم يزل فوق الخليل يضىء فى الظلماء
فى المهد يسرى صوت عيسى
فى ربوع القدس نهرًا من نقاء
يا ليلة الإسراء عودى بالضياء

(١) فاروق جويدة : الأهرام فى يوم ٢٨/٦/١٩٩٨م.

في هذه الطائفة من الأيات يذكر القدس ومقدساتها فيذكر الأنبياء كأنما يخيل إليه أن المآذن تنطلق بالدعاء، إنه يدعو معها الله ليكشف عنها السوء ويأخذه الحزن أن سيوف العرب لا تقدر على شيء أمام مدافع الصهاينة ويعزو ذلك إلى خور دب في نفوس العرب أو خيانة أفضت بهم إلى الوقوف على حفير الفناء ثم يتمنى لليلة الإسراء أن تعود بالضياء وفي مجموعة أخرى يقول :

هُزى بجذع النخلة العذراء
يساقط الأمل الوليد
على ربوع القدس
تنتفض المآذن يُبعث الشهداء
تتدفق الأنهار تشتعل الحرائق
تستغيث الأرض
تهدر ثورة الشرفاء
يا ليلة الإسراء عودى بالضياء

إنه يذكر ما كان من هز السيدة مريم لجذع النخلة، ويحسن من تشبيه ما تساقط من رطبها الجنى بالأمل الوليد، إنه حزين لكنه بسام الأمل، لم يهتف بالعرب أن يشدوا على الأعداء شأن جل الشعراء الذين نظموا شعرًا في القدس بل إنه يصبر صبرًا جميلاً ويوقن بصبح مشرق بعد ليل مدلهم الظلام، ثم يقول إن المآذن تنتفض وتصعد أنغام آذانها بعد طول صمتها.

كما يبعث الشهداء وتستغيث الأرض وتهدر ثورة الشرفاء إلا أنه لا يبين ما تفضى إليه ثورة الشرفاء بل يكتفي بأن يشير إليها من حيث كونها ثورة. فإنه يتمنى ويكرر البيت الذى يقول فيه يا ليلة الإسراء عودى بالضياء. ويبدو على الشاعر أنه كان هادئ النفس لأن القصيدة نظمت قبل الانتفاضة الأخيرة الرهيبة ثم يقول:

هزى بجذع النخلة العذراء
رغم اختناق الضوء في عينى
ورغم الموت. . والأشلاء
مازلت أحلم أن أرى قبل الرحيل
رماد طاغية تناثر في الفضاء

مازلت أحلم أن أرى فوق المشانق
وجه جلاد قبيح الوجه تصفعه السماء
مازلت أحلم أن أرى الأطفال
يقتسمون قرص الشمس
يختبئون كالأزهار فى دفء الشتاء
مازلت أحلم
أن أرى وطنا يعانق صرختى
ويثور فى شمم . . ويرفض فى إباء
مازلت أحلم
أن أرى فى القدس يوما
صوت قداسى يعانق ليلة الإسراء
ويطل وجه الله بين ربوعنا
وتعود . . أرض الأنبياء

إن الشاعر يحدثنا عما يرى فى المنام من أحلام، يطلب من يحسن له تعبيرها فى مقبل الأيام. إن هذه الأحلام لا تفارقه ليل نهار مما ينهض دليلاً على رغبة شديدة ملحة فى تجاوزها الخيال إلى الواقع ويطيب نفسًا حين يذكر أن الله لم يفلت من عقابه من يستحقون ذياك العقاب. كما يسعده أن تعود القدس للمسلمين والمسيحيين جميعًا، إنه يدعو فى خشوع ويلتمس من ليلة الإسراء أن تغمر القدس بالبركات، فتردها على أصحابها وفى دعائه إيمان المسلم الذى يتحلى بالصبر ويرتضى ما جرى به قضاء الله.

وللشاعر أحمد فهمى خطاب قصيدة تحت عنوان «يا أمة الإسلام» يقول فيها:

الأهل يا قدس عنك اليوم قد رحلوا   لم يبق فى الدار منهم فارس بطل
يا قدس أهلك لم يحموا ديارهم   ولم يبالوا بمن فى الدار قد دخلوا
سكانها تركوها . . وهى باكية   على حماة لها كانوا . . وقد رحلوا
لم تلق مثل صلاح الدين ينقذها   أو مثل معتصم . . إذ نودى الرجل
هو الزمان . . به من لا يصانعه   حتما يهان . . ولا تعنى به الدول

فى هذه المجموعة يناجى الشاعر القدس، وقد أخذه مُر الأسى لحالها ويزيده حزنًا على حزن أن أهلها خارت عزائمهم وعدموا بينهم فارس بطل يذود عنها، إنه يستنكر من أهلها ألاَّ يهبوا لنجدتها ويتهم رجالها بالوهن فى عزائمهم والخور فى نفوسهم وقعودهم قعود مستسلم لا يقدر على شىء، ويذكر أهلها بمن حموا دارها واستردوها ممن اغتصبوها كصلاح الدين والمعتصم العباسى الذى فتح مدينة عامورية واستردها من الروم، وكان حقيقا بالقدس أن يكون فيها مثله ومثل صلاح الدين وقال إن أهلها يستحقون ما نزل بهم من فشل وخزى وهوان لأن هذا جزاء من فعل مثل فعلتهم ثم يقول ليسوق الخطاب ثانية إلى القدس:

بنو العروبة والإسلام.. قد رحلوا	يا قدس عنك.. وما فى غيرهم أمل
وغيرهم.. كغثاء السيل منحدراً	يهوى إلى بؤرة.. فى قاعها نزلوا
وما أعدوا سلاحًا يرهبون به	الأعداء.. لكنهم قالوا وما فعلوا
القدس والمسجد الأقصى.. وحولهما	أرض النبوات.. للرحمن تبتهل
أن يبدل القول من شعر ومن خطب	بقوة.. تجعل الصهيونى يرتحل
بسادة بدلا ممن بهم وهن	أو من لهم أعين بالجبن تكتحل
القدس يا أمة الإسلام يا عرب	لكم يقول الذى قد قاله الرسل
إن السلام مع الصهيونى مهزلة	لا يرتضيه الذى بالله يتصل
بل السلام مع الصهيوني مجزرة	الذئب جزارها.. ويل له الحمل
لا بد للذئب من ليث يمزقه	ومن دم الذئب شبل الليث ينتهل

الشاعر هنا مبتئس إلى أبعد مدى فيحدث القدس عن رزءها فيقول إن أهلها خذلوها كما أن غيرهم لم يلقوا بالاً إليها، كما أن الشاعر يشبه غيرهم وكان الأمل فيهم إلا إنه خاب بأنهم كالغثاء وهو ما يحمله السيل من يابس العشب يجرفه الماء وهو يطفو عليه ويقول إنهم لم يعدوا سلاحًا يذودون به عن حمى القدس والعروبة جمعاء، كما يذكرهم أن القدس وأرض النبوات والمسجد الأقصى يبتهلون يريدون من يسرع إليها مسانداً معاضداً وهم فى مسيس الحاجة إلى مساندة ومعاضدة وسلاح يفل سلاح العدو ويقسوا فى قوله وعزله لمن لم يتقدموا بمد المعونة إلى القدس فيقول إنهم جبناء، لا حيلة عندهم، ولا نخوة تدفعهم. كما يذكر أهل القدس بأن العيش فى سلام مع الصهاينة أمر لا يستقيم فى عقل وليس، يمكن أن يكون فيحذرهم من الخديعة حتى ولو كان السلام بينه وبين

الصهاينة فهو سلام مع الذئب ولا بد لهذا الذئب من ليث يفترسه فلا بد أن نكون أسوداً أمام هذا الذئب . ثم يهتف داعيًا إلى حرب ضروس مع الصهاينة فيقول :

هيا لهيجاء . . لا تبقى ولا تذر — من اليهود على الأمن التي انتحلوا
وجاهدوا فى سبيل الله ينصركم — نصراً عزيزاً . . به الصهيونى ينسحل
إن الشهيد هو الحق الذى يهب — الحياة من بعده بالنصر يحتفل
والموت فى ساحة الهيجاء . . مطهرة — من رجس من رجسهم تفشو به العلل
فطهروا الأرض منهم . . إنهم نجس — ولن يطهرهم ماء . . إذا اغتسلوا
وحرروا القدس والأقصى ولا تهنوا — ولا تخضعوا الذى لا يخضع البطل!

إنه داعية حرب بكل ما تنطوى عليه الكلمة من معنى فهو نقيض الشاعر الذى سبق النظر فى شعره، إنه واقعى لا يؤمن بقول ما لم يقترن بعمل ولا ينطلى عليه الزور والموعد المكذوب إنه يريد للعرب أن يهبوا لرد قدسهم ومسجدهم الأقصى إليهم بعد أن ذكر ما ذكر من حقائق هى اليقين الجازم، إنه يريدها حربًا شعواء تأكل الأخضر واليابس على أنها هى الوسيلة التى لا وجود لغيرها واللغة التى لا يفهم الأعداء سواها وبها سوف يتحقق الأمل .

ولشاعر العروبة «محمد التهامى» قصيدة بعنوان «الأقصى» كأنها تتمة لقصيدة له نظرنا فيها من قبل وهى بعنوان «القدس» ذلك أن القصيدتين تتفقان فى الوزن والقافية وهو القائل :

أراه بعينى ملء البصر — وألمس لمس البنان الحجر
فما عاد أقصى ولكن هفا — وعذبه الشوق حتى حفر
وعانقنى وهو طيف الجهاد — فذاب الجهاد وذاب البشر
جرى فى دمى نبضه المستغيث — فعذبنى منه وخز الإبر
تعلق بى يحتمى من أساه — وغطى على الدمع حتى انفجر
بكينا سويا وفيض الدموع — يضاعف من جمرنا ما استعر
فيا ليال تخطى الضلوع — وداس على القلب حتى انفطر
وصور لى عالما فى مداه — تضج الحكايا وتبكى الصور
وحدثنى عن جدار عتيد — ومئذنة عاش فيها القمر
وعن قبة تغلب الراسيات — إذا الأرض دارت بها لم تدر

وعن رجع صوت إقام الصلاة فجلجل فيه الهدى وانتشر
وساءلنى أين يمضى المسير وكيف يجئ الغد المنتظر
وهل يستقر الجدار الرفيع ويبقى الشموخ له والكبر

ويمكن أن تنقسم هذه القصيدة شطرين من حيث تناول الغرض فيها .

ففى الشطر الأول يتخيل المسجد الأقصى ملء العين والقلب وكأنما يتعانقان فى شوق ولهفة بعد فراق طويل، ولما تعانقا أحس وجيب قلبه المعذب المشتاق، ثم وصف لقاء هذين المشتاقين اللذين تعذبا بطول الفراق فجرت وما لقى من برحاء الشوق إلا أن يقول إنهما تشاكيا وتباكيا. ثم يقول إن المسجد الأقصى فى مشتكاه إليه حدثه عما آلت إليه حاله بعد ما كان من قدره العالى من قبل فوصف مئذنته وقبته يتيه بهما، وشتان بين ماضيه وحاضره، ويذكر له قبته وما أجمل أن يكون للقبة ثبات حتى ولو دارت بها الأرض، وكيف كان للآذان رنين يبشر بالهدى ويدعو إلى العمل الصالح، ثم سأله عن عاقبة الأمر وكيف المصير. إن الشاعر هنا ينطق عن عاطفة دينية روحية ويتجه بها إلى المسجد الأقصى فى شاعرية مشرقة ويحسن فى تعبيره عن عاطفته كل الإحسان ثم نمضى معه إلى مانعده الشطر الثانى من قصيدته حيث يقول :

فهل يا ترى يكسر الغاصبون قواعد للحق لا تنكسر؟
وهل يا ترى تستقيم الصلاة بأقداسنا لعباد أخر؟
وهل ينحنى الحق فى قدسه لزور علا نجمه وانتصر؟
وهل تركع الروح فى طهرها لبغى على رجسه ما طهر؟
وهل يرجع النور عن سيره ويثنيه عن مبتغاه القدر؟
وهل هذه خاتمات الحياة تسوق لنا قاسيات النذر؟
يلم بقاياه تاريخنا ويمضى إلى وهده المنحدر
وتبكى على قدسنا الذكريات ويغرقها دمعها المنهمر
فتخفى ويغفلها الذاكرون وتبقى سطورا بماضى السير
تقول : تملكها الوارثون فلم يعرفوا قدر هذى الدرر
ولم يخرجوا من دوار الصراع بغير البكاء على ما اندثر

ففى هذه الأبيات نجد أن الأمر انتقل من النقيض إلى النقيض ولدقة الكلام نجد أن كلام الشاعر فى الشطر الأول يتمايل رقة ويكاد يسيل عذوبة، كما يترقرق فى خرير هامس، أما

فى الشطر التالى فهو كلام شديد النبرة يدل على غضب من لا يرتضى الواقع ويتساءل عن يوم الخلاص فى تساؤلات تتوالى وكأنما يريد المتسائل فى جزم أن يصبح الشأن غير الشأن ولا يرتضى أن ينتهك حماه.

إنه لم يدعُ إلى قتال ولا نزال وإنما فيه تعريض بكفاح من أجل تحرير المسجد الأقصى.

وللدكتور عبد الغفار حامد هلال قصيدة بعنوان «يا قدسنا» يقول فيها:

يا قـــدسنا أنا لا أنام إنى بحـــبك مــســتـــهـــام
دينى وروح عــقــيـدتى وتهــجـدى بك والقــيـام
وأبيت أذكـر مـسـجـدى والذكـر فـيك مـسـتـدام
ويردد التـسـبـيح والتـحـمـيـد فى ثغـرى الكلام
سطعت بك الأنوار ليس مـثـالهـا البـدر التـمـام
ونداؤك العلوى والرحـــمـــات فـــاز بهـــا الأنام
ومـعـينك القـدسى طهـر يشـتـفى منه السـقـام
وترابك الذهبى أخـــضـــر فى هدايتـــه نســـام
قلبى إليـــهـــا ذاهب وجـــوانحى فـــهى المرام
هى كـــانت المسـرى لخـيـر الأنبـيـاء وهم قـيـام
فى المسـجـد الأقـصى به ائتـمـوا ويا نعم الإمـام
قلبـان للإسـلام ذا الأقـصى ومـسـجـدنا الحـرام
والمســجــد النبــوى بينهــمـــا ثلاثتـــهـــا عظام
لكن صـــهـــيـــونا يلوث طهـــرها منه اجـتـــرام
وعلى مـآسى الظلم راع صـفـــاءها الموت الزؤام
لكننا - والحق - ليس يضـيـــرنا قـــوم تعـــامـــوا
فلكم أتانا المعـــتــــدون وشـــردوا وهـم حطام
أم العـــروبة لا يغطى عـــينكم هذا القـــتـــام
وعلى المسامع أرسلوا الصيحات كي يصحو النيام
فى عـــالم اليـــوم الضـــجـــيج له دوى واحـــتـــدام
والخـافت الأصـوات يسـحـقـه ضـيـاع وانهـزام
والرمى بالكلمـات يصـمى مثلمـا تصـمى السـهـام

وإذا عقدنا الموازنة بين هذه القصيدة والقصيدة التى سلف أن نظرنا فيها ألفينا أن القصيدة الأولى عن المسجد الأقصى أما الثانية فلم تذكر الأقصى إلا عرضًا والشاعر الأول حزين للمسجد الأقصى بالذات. أما الثانى فحزنه منصرف إلى القدس فى المقام الأول وهو يصرح بذلك فى وصف حزنه ولكن الشاعر الأول أشد حزنًا وجزعًا من الثانى ثم جعل يذكر القدس فى سياق تاريخى. ويردد تسبيحه على أنه أهل تقوى وعبادة، ثم يصفها بكل جميل لأنه يهواها يصف حالها فى يومها وهى حال تتأذى بها نفسه وعقيدته. ويختلف عن الشاعر السابق له فى أنه يدعو أم العروبة لرد الظلم متحدين وهو يرغب إليهم أن يهبوا ويمسحوا عن عيونهم كحل الرقاد وما ذكر الشاعر السابق أم العروبة. إلا أنه لم يدعُ إلى جهاد وجلاد. ومجمل القول أن القصيدتين تتكاملان.

ولم يشر إلى هذا فى تصريح بل فى تلويح

ونعود إلى المسجد الأقصى عند الشاعر الفلسطينى هارون هاشم رشيد(١) وهى بعنوان «المسجد الأقصى» يقول:

المسجد الأقصى أبيح يقولها — شعب يقاتل، لا يمل ويهجم
هو ثالث الحرمين فى باحاته — حشد البغاةُ جموعهم، وتقدموا
داسوا طهارته، وشجوا كبرهُ — وتجرأوا، وتجبروا، وتحكموا
غلوا الأذان به، وشدوا قيده — وعلوا على محرابه وتسنموا
وهو الأسير يظلُ رجع ندائه — يدعو ألا غوث يجئ، ويقدم
هل تسمعون تقول فيه حجارة — هل تسمعون، تقولها تستفهم
هل تسمعون، وهل رأيتم أهلنا — فى القدس عُزلا بالحجارة أقدموا
أرأيتم من عمق أعماق الأسى — كيف النساءُ وثبن كيف اليتم
كيف الصدور العاريات تقدمت — للموت غاضبة تموج وترزم
أرأيتم أطفالنا كيف انتضوا — عزم الرجال، وغامروا وتقحموا
أرأيتم امرأة تمد ذراعها — عزلاء ترمى الغاصبين وترجم
ما ردها أن الرصاص يحوطها — والموت فيه مؤكد، ومحتم
أرأيتم كيف الإباء مجابها — بالكبرياء.. مقاتلا لا يهزم
أرأيتم أرضا بهم شحنت لظى — ترج فى أقدامهم وتدمدم

(١) هارون هاشم رشيد: المسجد الأقصى أخبار الأدب ١٩ نوفمبر ٢٠٠٠ القاهرة ٢٠٠٠.

إن الشاعر يعرض صورة صادقة ناطقة عن انتفاضة أهل فلسطين صور فيها رجالها ونساءها وأطفالها وهم يغالبون الصهاينة ويقاتلونهم بما فى يدهم من ضعيف السلاح وهذا من شأنه ضعف سلاحهم أدل دليل على بسالتهم وإقبالهم، إنه يخاطب أم العروبة يريد لها أن تنضم إليهم فى جهادهم للصهاينة، ولقد أحسن فى وصف معركتهم لأنه وصفها كما هى عليه، ثم بعد ذلك يدخل فى معنىً آخر بعد تلك التى تعد تقدمة له فيقول:

يا أهلنا فى كل أرض إنه ... الأقصى ألا هبوا إليه قدموا
أهلوكم فى القدس وقع خطاهم ... لا خائف فيهم ولا متبرم
النار فى أثوابهم، وعيونهم ... بالمسجد الأقصى تهيم وتحلم
الموت مفروش على طرقاتهم ... والراجمات القاصفات تدمدم
مرفوعة راياتهم لا تنطوى ... أبدًا وليست تستذل وتهزم
أحبابنا فى سجنهم، وإسارهم ... ضربوا لنا المثل العظيم وقدموا
فعسى لعل هديرهم ونذيرهم ... يصحو عليه السادرون النوم
وعسى أذان الصارخين يجيئنا ... ليثير فينا، ما يهز، ويضرم
وعسى إلى الأقصى تهب جموعنا ... وعسى لعل، وربما نتعلم

إن الشاعر يستصرخ المسلمين ويريدهم على بذل العون لرد المسجد الأقصى إلى المسلمين، إنه يرفع الصوت عاليًا مدويًا لعله يسمع صوتًا يجيبه، إنه يناشد المسلمين أن يخفوا إلى هؤلاء المجاهدين الذين لا طاقة لهم بعدو مبين، كما يطلب إليهم أن يشدوا أزرهم، إنه يحثهم على الجهاد، والجهاد قربةٌ وطاعة وليس للمجاهد إلا دار السلام، إنه مع ذلك يرى فى تعاونهم وتكاتفهم أوجب واجب عليهم لذا نسمع من هذا الشاعر نغمة جديدة لم نسمعها فى اختصاصها بالمسجد الأقصى فى صراحة عارية لا خفاء معها.

وللدكتور يوسف القرضاوى كتاب تحت عنوان «القدس قضية كل مسلم» فيه قصيدة بعنوان «سلام السراب أو سراب السلام»، يقول فيه فى معرض الكتاب بالدوحة بقطر فى شهر ديسمبر سنة ١٩٩٢م، وفى أمسية شعرية ألقيت قصيدة عن (سلام السراب أو سراب السلام) عبرت فيها عن مشاعرى عن مسيرة السلام المزعومة، قلت فيها:

فيا عجبا لمن يجرى ... وراء سرابه النفس
يظن له به ريا ... ويرجع فارغ الكأس

يفــرّط فى دم الشـــهـــدا ء يا للعـــار والبـــؤس!
يبـــيع الأرض والتـــاريـ خ بالأرخـــص من فلس!
يحكم فى حـمى صـهـيـو ن ، يا للثـمـن البـخس!
فـــلا دولتــــه قـــامت ولا أبقـــى على النفس
وضــاع جـهــاد قــرن كـا ملٍ دفنـــوه فى الرمـــس
جـهــود كلهـــا ذهبت «كـأن لـم تغن بالأمس»!
فــمــا مــعنى فلسـطين بلا أقــصى ولا قــدس؟!
فلسطين بلا قــــدس كـجـثـمــان بلا رأس!

إن هذا الشاعر متطير إلى أبعد مدى وكلامه فى عموم وفى خصوص فى وقت معًا لأنه يتحدث عن القضية الفلسطينية، وكيف أنها تضيع ضياعًا ملحوظًا بين وعود تخلف وآمال لا تتحقق وجهود تذهب أدراج الرياح إنه يشير إلى ذلك وهو محزون ثم يتحدث بعد ذلك عن المسجد الأقصى وعن القدس ويذكر القدس مرتين من حيث أنها هى والمسجد الأقصى كلٌ لا يتجزأ فيها.

إنه فى واقع الحال يعبر عن واقع لا شك فيه وكلامه واضح جلى ليس فيه من الخيال والبديع إلا أقل القليل وهذا مما جعله أشبه ما يكون بالحديث الذى يجرى على الألسنة للتعبير عن حقائق لا تمس الحاجة فيها إلى فضل إيضاح.

لقد أحسن صنعًا فى نهاية قصيدته حين ذكر المسجد الأقصى وفلسطين لأنه بهذا مما صنع جعل لكلامه مقدمة ترتبط بنتيجتها ارتباطًا وثيقًا فعرض القضية عرضًا واضحًا وأكد ما ينبغى أن يؤكد وهو عودة القدس ومسجدها الأقصى إلى فلسطين.

وللشاعر عبد المنعم عواد يوسف قصيدة بعنوان «لبيك . . أقصى» فى ديوانه عيون الفجر قالها فى الانتفاضة وثورة أطفال القدس وفى ذكرى الإسراء المباركة.

لبـــيك يا مـــســرى النبى يا أيهـــا البـــيت السنى
يا من إليك ســرى الرســو ل يحــفّــه الوحــى العلى
لبـــيك أقــصى ، قــبلة ال إســراء والطهـــر الندى
أذكـرت ليـــلة أن أتـــــا ك هدى الأنام الهـاشـمى؟
وهـــناك أمّ الأنبـيــــا ء على سنا النهج الســوى
يا أيهـــا الأقـــصى المبـــا رك ، مـــوئل الروح الأبى

نفـديــــك بالأرواح نســـ ـ خــو بالـدم الحــــرّ الزكى
يا أيهـــا الأطفــــال ، يــا أمل الغـــد الزاهى الوضى
صـــــونـوه بـالأرواح ردٌّ واعـنـه هـذا البـــــربـرى
بحـــجـــارة ؟ ليكن ، وكم حـــجـــر يروعُ من شـــقى !
هذا ســـلاحُ القـــادريـــ ـن ، فــــأَدّبـــوا هذا الدعى
من قــــال إن الحــــق تعـــ ـجـزه مــصــاولة البـغى ؟
صدّوه عــن أرض الكـــــرا مة ، أطلعوا الفجر البهى
قــعــد الكبــارُ عن الجـهــا د وولولـــوا فى كلّ حــى !
قعد الكبــــارُ عن الجهــــا د . فأنقذوا الأقصى السنى
من قــبــضـــة البــغى المدا هم ، مـــــن جنون بربرى
هذا زمــــان الـفـــعـل لا زمن الخطـــابة والـدوى
يا أيهــــا الأطفـــــال ، يا أمل الغــد البــاهى الندى
قــولوا له : لبـيـــــــك يا . أقـصى ، أيا مـسـرى النبى

شاعرنا يدير قوله فى غرضين الأول : مناجاة المسجد الأقصى والثانى يحيى الأطفال الذين رجموا الصهاينة مدافعين عن وطنهم بهذا من سلاحهم إن مناجاته للمسجد نجد فيها رقة الروحانية الدينية إنه يعبر عنها نشوة تغمر قلبه وفيها يصف الأقصى بما له من شأن لا يخفى ومن منزلة بلغت من رفعتها غاية الغايات وهو فى خشوعه يعبر للمسجد الأقصى عن عاطفته وعن إيمانه الذى يدعوه إلى أن يتقرب إليه ويتحبب بقوله : «لبيك» فهو يرغب إليه أن يخف إلى نجدته ويحميه مما يقاسيه فى يومه الحاضر ويود منه أن يأمره ليأتمر بأمره ولا يقصر فى أداء واجبه نحوه على حال من الحال إن قوله لبيك تذكر بما يقوله الحجيج فى مناسك الحج وهى خير ما يقال فى هذا المقام .

إنه يذكرنا بقول شاعر العروبة «محمد التهامى» فى قصيدته بعنوان «الأقصى» فالتهامى يتمثله حبيباً فارقه أو يتخيله معه وهما يتشاكيان ويتباكيان ، أما عبد المنعم عواد يوسف فهو يبسط إليه رجاء أن يأمره لأنه إذا ائتمر بأمره غمرت السعادة والسكينة قلبه الذى يحبه ورأى أنه يؤدى واجبًا ترضى عنه نفسه ، إنه يصفه بكل صفاته ويعدد ميزاته وذلك تمهيداً لغرض آخر يقول فيه .

وعليه فالشاعران فيما قالا يتكاملان ويتعاوران غرضًا واحدًا ولكن مع بعض اختلاف.

ثم يقلب صفحة أخرى فيتحدث عن الأطفال الذين يحملون سلاحهم وهو من حجر، ويوصيهم ويؤكد عليهم الوصية بأن يزودوا عن المسجد الأقصى بسلاحهم لأنه وإن بدا هشًا ضئيلاً إلا أنه ذو أثر إنه يمتدحهم بنجدتهم وبسالتهم على صغر سنهم ويرى فيهم زخرًا لمقبل الأيام، وبعد أنَ حدثهم يتحول للحديث عن الكبار فيحزنه أن يتخلفوا عن الكفاح مع الصغار وينفث عن موجدة شديدة عليهم فى نفسه وهو يتهكم بهم مُر التهكم ويصفهم وهم يولولون كربات الخدور فى كل الأرجاء وتتقد حفيظته وغضبه لأنهم قصروا فيما ينبغى أن يحفظ، إنه يكرر ما سبق أن قاله غيره من الشعراء فى هذا المعنى، إلا أنه لا يشبههم فى وصف ما ينبغى أن تكون عليه هذه المعركة وما تموج فيه وكان حسبه الإشارة التى تغنى عن العبارة.

ثم يعاود ما قاله عن الصغار ويحثهم فى إصرار وتأكيد على أن يصونوا المسجد الأقصى حتى يصبح فى كلاءة المسلمين.

ولهذا الشاعر منظومة أخرى بعنوان «أهزوجة الإسراء» يقول فيها:

سبحان من أسرى بعبده ليلاً
فى ليلة سبحت فى أفقها الأعلى
من بيته المعمور
للمسجد الأقصى
فى ليلة من نور
لم تعرف النقصا
هى ليلة غراء موفورة الأضواء
فاضت بكل رواء يزهو بها الإسراء
والله أصفاها
عن سائر الليلات
بها رأى طه
فيضًا من الآيات
يمضى بها جبريل يستشرف الآفاق
أكرم بخير دليل يسوق خير براق

من مكة السمحا
يسرى إلى القدس
والمسجد الأقصى
يفيض بالأنس
صلى به المختار   بأنبياء الله
وملائكٌ أطهار   حفت به ترعاه
ما أسعد المختار
بالقرب من مولاه
لما رأى الأنوار
وبهاؤها غشاه
وسما به المعراج   يرقى لعليين
يتسلق الأبراج   يرعاه خير أمين
وبظل عرش الله
والسدرة العلياء
نال الرسول مناه
وحباه خير عطاء
هذا هو الإكرام   لرسولنا المرضى
يا أمة الإسلام   يا نسل خير نبى
هبوا إلى الأقصى
بالعزم والإقدام
لا ترهبوا بطشًا
من أسوأ الأقوام
من ينقذ الأقصى   من طغمة الأشرار
يبغى به طمسًا   للدين . . يا للعار
هيا . . بلا إحجام   يا أمة الإسلام
فلتنقذ الأقصى   من قبضة الأوغاد
فرسولكم أوصى   بعزيمة . . وجهاد

أنصف الشاعر حين سمى منظومته أهزوجة لأن الأهزوجة ما يترنم به من الأغانى وطرب المغنى والقارئ فى تدارك الصوت وتقاربه .

إن هذه المنظومة أصلح ما تكون للتغنى بها نشيداً يعبر بالأنغام عما تموج به من معان دينية وحماسية وهذا ما يتفق تمام الاتفاق مع الغرض من نظمها إنه فى النصف الأول منها يصف الإسراء والمعراج وصفًا جميلاً يستوعب كل ما يمكن أن يقال إلا أنه كما عرفناه من قبل يجعل القدس نصب عينيه ويعقب عليه بالدعوة إلى استنقاذه من أيدى العدو الذى يريد به السوء وبالمسلمين مستطير الشر .

وهذا كل ما يمكن أن يستوعب القضية الفلسطينية لقد رأيناه فى القصيدة السابقة يثير حمية الصغار ويدفعهم دفعًا إلى رجم الأعادى ويعظم من صنيعهم هذا الذى لم يستطعه الكبار ولكنه هنا فى هذه الأنشودة يحثُّ أمة الإسلام قاطبة إلى الجهاد فى سبيل القدس ويرى أن القعود عن ذلك قعود عن نصرة الدين القيم ويا لهذا من عارٍ وشنار .

كما يذكر بأن الرسول الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) أوصى بمثل هذا الجهاد ولا يسعهم على حال من الحال ألا يعملوا بوصيته ﷺ ، فهو بذلك يناشد الإيمان فى قلوبهم ويقوى من عزمهم ويبارك تقدمهم للجهاد .

وقال الشاعر السورى عدنان برازى قصيدة تحت عنوان «يا قدس كلنا سواء» إنه فى أوائل أبيات القصيدة يبدو أخذته عبرة البكاء فبكى وبكى وقال :

سأبكى . . ولكن بغير دموع — فقلبى يتوق . . ليوم الرجوع
دموعى ستغرق . . هذى البقاع — فتملأ بالشوق . . كل الربوع
إلى غزة . . العرب شوقًا أسير — ويافا السليبة . . ملء الدموع
إلى القدس . . ترنو العيون حيارى — ونحن إلى القدس . . نهوى الرجوع
ننام على الدمع . . والدمع جمر — ونشرب . . ملء الكؤوس الضلوع
ونصحو على الآه . . والآه نار — تلظى القلوب . . تزيد الخضوع
ونمشى على الشوك . . مشيا وجيعا — يقود خطانا . . لقاع الخنوع
إلام سنبقى هنا . . هكذا — ويبقى الفؤاد الوجيع . . وجيع

إن هذا كلام مغترب يئن ويحن فى أرض غريبة إلى وطنه ، وكلامه يعم لأنه سورى ولكن يبدو أنه كان يسكن القدس ثم شرد عنها ليجزع ويتوجع لفراقها إنه أسرف فى ذكر

الدموع وإن قال فى أول كلامه إنه يبكى ولكن بغير دموع مما يجعل الدموع رمزاً لما قاساه من شوق وتوق إلى القدس، كما أنه يتكلم بلسان الجماعة فالظن أنه يتحدث بلسانه عن نفسه وعمن سواه. إنه أحسن فى قوله إننا ننام على الدمع والدمع جمر، إلا أنه لم يُحسن فى عرض الصورة الشعرية حين قال إنه يشرب الضلوع، وهى تملأ كاساتهم. إنه يقول إنهم يمشون على الشوك مشيا وجيعًا وهذا حق إلا أنه يقول إن هذا المشى يفضى بهم بسوء إلى قاع الخنوع، والخنوع خضوع مع ذل، وياليته لم يذكر هذا الخنوع لأنه رضا بسوء الحال، وتعبيرٌ عن ضعف لا نرتضيه لهؤلاء المغتربين وعهدنا بهم أنهم محزونون وحزنهم دليل على أن الشوق يهزهم إلى ديارهم إلا أننا عهدناهم من قبل يصح منهم العزم على الثأر والرغبة في الجهاد والتجالد مع العدو الغاشم. ثم يتساءل حتى ما يدوم لهم البقاء، وهم غرباء يقاسون من أسى وبرحاء. ثم يقول:

إذا كنت يا قدس فى غــــربة   فإنا جميعــــا . . ضحايا الزمن
نجــوب البــلاد . . بخطو يتـوه   نعــانى التـغــرب بـل والمحن
فـإنى وأنت . . ســـواء بـــهم   ضـحـايا لظلـم . . لكيـد الفتن
توحدت يا قدس . . فى محنتى   وشاطرتنى . . فى الضنى والحزن
صرخت وجيعا وما من مـجير   أصمـا أنادى . . بوادى الوسن؟
إذا ما صحوتم . . لقلت انتصرنا   وعشـنا نطـوف . . ثيـاب الحزن
ولكنهـا فـورة . . لا تـــدوم   ويُفـــزع قلبى . . خـراب المدن

إنه يصف أن قومه مشردون فى الأرض، يسيرون على غير هدى ولا يبلغون غاية، ولا ينساها بل يقول إن حاله مثل حالها عناءٌ وعناء، ولذلك كانت القدس تشاطره أساه وبلواه، كما أنه استصرخ قومه أو غيرهم، فما وجد أذنا تسمع وذهب نداؤه صرخة فى واد ونفخة فى رماد. ثم يلتفت إلى من يعيره أذنًا ويحزنه منهم فشلهم عن حقهم. وكان أولى بهم ثم أولى بهم أن يصحو من ثباتهم وهو بمثل هذا من قوله يردد قولاً سبقه إليه غيره. ويذكرهم بأنهم يتعلقون بذيل أمل بعيد ويقولون ما لا يفيد لأن الحال هى الحال. ويلتفت ثانية إلى القدس فيقول:

رويدك يا قـدس . . لا تغـضـــبى   ونقى بنيــــــك . . ألا واصطفى
وكـونى بجسـمى . . عـروق اليـدين   ونبض الفـــؤاد . . الجميـل الدفى

أحيطى بنيك . . بصدر حنـــون	وبالحب فيـهم . . ألا فاحتفى
وإن حاصروك . . بقيد المغيظ	فقـولى بأنك . . لـم تعـرفى
سوى الحب . . يسرى، يعيد النضال	وليس بقـول هـنا . . يكتفى
دعى زخرف القول . . قولى لهم	هلموا أيا عـرْب . . فى معطفى
فصوت «صلاح» يناد يكمـو	أيا أمـة العرب . . هيا ازحفى
ولبوا الجهاد . . وخوضوا القتال	فليس سوى السيف . . من منصف

ثم يخاطب الشاعر القدس نداء ابن ينادى أمه التى ترأمه، ويذكرها بأنه لن ينساها وهو برئ من عقوقها ولن تأبه لمن عق من أبنائها كما أنه يتحبب إليها ويردد على سمعها أنه مازال يحنو عليها وهى من قلبه فى الصميم وسيبقى على وفائه لها ما عاش. ثم يقول لها فى عزم أكيد إن عليها أن تهتف بالعرب طرًا أن يهرعوا لنجدتها فى محنتها وأن يصحوا من ثبات الغفلة وعليها أن تذكرهم بصلاح الدين الأيوبى وما كان من استنقاذه لها منذ قرون تعاقبت وعليهم أن يفزعوا إلى سيوفهم وهى أشبه بسيف أبى تمام فى معركة عامورية. وفى البند الأخير من قصيدته يعود إلى توجيه كلامه إلى القدس معبرًا لها عن عاطفة المحبة وحتمية الوفاء لها. ويريد أن يذهب عنها الحزن واليأس ويبشرها بغد تتحقق فيه الآمال بعودة الأبناء الأوفياء إلى أمهم الحنون وأجرى على لسانها قولها إنّها ترغب إليهم أن يتحدوا، وإذا ما اتحدوا عاد الأمر إلى نصابه وتغيرت الحال وتبدلت من يأسٍ وترح فأصبحت هى الأنس وهى الفرح ويقول :

رويدك يا قدس . . لا تيأسى	وإن حل هم . . فلا تحزنى
وإن شمت الشامتون . . فكونى	كأم صبـور . . على الأرعن
وقولى لكل بنيك . . تعالـوا	سأوى أخيرًا . . إلى مسكنى
تعالوا إلى . . سآوى إليكـم	قلوبكمو البيض . . كالسوسن
فإن الحياة . . إذا ما اتحـدنا	وكنتم حصونى . . فلن أنثنى
سأدعو لكم . . بالحياة وكلى	رجاء . . بعيش رغيد، هنى
فإن كان أعيا . . قواى النضال	يهـون العناء بكم . . يابنى
وإن كان ضيعنى الظالمـون	فحسبى قلوبكمو . . موطنى

إن هذه الأبيات الأواخر أرق ما تقوله أم تحنو على بنيها، إنها أم مؤمنة حقا تدعو لأبنائها وتجزم بأن الله سوف يستجيب لدعائها.

وللشاعر محمد عبد العزيز شنب قصيدة بعنوان «حدثنى القدس الشريف»[1] يقول فيها:

حدثنى القدس الشريف قائلا   «شـــارون» جاء عابثًا هازلا
لقد أحال ساحتى حـــدائقا   من الدماء قد جرت جداولا
أقام عند مسجدى مذبحة   ولم يزل مقهقهـــا مهللا
يصيح فهو لم يجد معارضا   ولم يجـــد أمـــامه مقاتلا
وقد رأى شعبا بلا بنـــادق   مازال من خمسين عاما أعزلا
سلاحه الأحجار فوق كفه   فهل تعيـــد موطنـا مجندلا
«محمد» رأى اللهيب آتيـا   من كل صوب نحوه وهاطلا
يمسك فى حضن أبيـــه علّه   ينجـو وقـد بدا حـزينا ذاهلا
لكنه فى لحظـــة بـــدا لنـا   مكوما وصـامـتـا وراحـلا
من جسمه تدفقت على الثرى   دماؤه فأنبتـــت ســـنابلا
والمسلمون أين هم من محنتى   والقيد فى كفـــى قد توغلا
هذا يشد دمعـــة من جـــفنه   وذاك فى صوت ضعيف حوقلا
كم يملكون من جيوش ليتها   تصبح جيشًا واحدا وفاعلا

هذا الشاعر يتجه بكلامه اتجاهًا يختلف عما ألقيناه فى شعر من سبق النظر فى شعرهم لأنه فى مفتتح قصيدته يجرى الكلام على لسان القدس ولكن على كيفية أخرى لأنه يذكر من قوله إن شارون جاء عابثًا وهازلا، والحق قال لأن لشارون الشهرة بشدة المراس وقوة الشكيمة والعنف الذى لا يعرف اللطف وذلك فى فترته وسياسته فقال إن هذا الطاغية أجرى دماء الشهداء فى ساحته فارتوت منها الأرض وأنبتت من كل زهرة، وأقام مذبحة عند بيت المقدس ولم يكفيه ذلك بل أظهر الشماتة وضحك ضحكة من شفى غيظه ولقد بلغ الغاية فى غلوائه لأنه وجد فى نفسه من يأتمر الكل بأمره وينتهى الكل عن نهيه شأن جبار يعيث فى الأرض مفسدا، كما وجد أمامه العرب عزلاً، لا يملكون من عتاد الحرب سوى أحجار يرجمون بها شيطانهم الذى تسلح برهيب السلاح ثم ينتقل إلى وصف ما فيه كل البراهين والتواكيد على وحشيته التى انقطع لها النظير فيخبر بما أخبر به الحق والواقع وهو استشهاد ذلك الصبى فى حضن أبيه، ويصف كيف أنه تفصد دماء أنبتت على

(١) الأهرام عدد ١٥ / ١٠/ ٢٠٠٠ القاهرة.

الأرض السنابل، ثم يقف عند هذا الحد ليتجه إلى المسلمين ويأخذه شديد العجب لوقفتهم من ذلك الحادث المستبشع وقفة من يكتفى بالمشاهدة، كأن شيئًا وقع وقوع كل حادث بمرأى ومسمع. ويعود إلى القدس فيقول على لسانه أين المسلمين؟ كيف لا يهبون لنجدة القدس؟ إنهم كثرة كاثرة تقوى ولا ريب على القتال، وكل ما كان من هؤلاء المشاهدين أن يشد دمعه من جفنه وأحسن فى قوله «يشد دمعة» لأن ذلك يدل على أنه لم يبك إلا تكلفا وكان الوجه أن يبكى تأثرًا وتفيض عينه بالبكاء فهو يصف قومه بجمود العاطفة وغلظة القلب. كما تعوزهم وحدتهم، فلو جمعوا أشتاتهم لكان لهم بذلك ما لا يوصف من قوتهم ومنعتهم.

ومادمنا فى ذكر شارون[1] فلننظر إلى قصيدة عصماء لفاروق جويدة بعنوان «رسالة إلى شارون» والقصيدة فريدة فى نوعها من الهجاء السياسى على نحو غير مسبوق، لقد شاء أن يعرض على الأشهاد ما قدمت يدا شارون وقوم سوء خاسرين فقال:

ارحل عن القدس واترك ساحة الحرم ... هل يلتقى الطهر يا خنزير بالرمم
كيف اجترأت على أرض مطهرة ... أسرى بها خير خلق الله والأمم
هذا التراب الذى لوثت جبهته ... مازال يصرخ بين الناس فى ألم
لوثت بالعار أعتابًا مباركة ... وجئت كالكلب فى حشد من الغنم
تاريخك الآن بالأوحال نكتبه ... لكل أطفالنا.. فى القبر والرحم
القدس أرضًا وقداسًا ومئذنةً ... كالنيل عندى كالأعراض كالهرم
يا أقذر الناس تلهو فى مساجدنا ... وتقذف القدس بالنيران والحمم
كيف اجترأت على أقداسنا سفها ... وجئت كالموت.. بالحراس والخدم

إن الشاعر شديد الوطئة فى هجائه هذا لشارون، وفى ألفاظه عنف أى عنف وكأنما شاء أن يكون صريحًا فى هجائه وكلامه، ولكل مقام مقال. إنه لم يتجاوز الحقيقة فى كلامه فعرضها لا يواريها.

إنه مذكرنا بقصيدة لشوقى قالها فى اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر فشوقى وهو ليس من زمرة الهجائين بطبعه أقدم على هجاء اللورد كرومر بما ارتكب فى مصر وكان صادقًا فى كل ما قال وهنا نقف على حقيقة ما صنع شارون فى القدس وما صنع اللورد كرومر فى مصر، إن شوقى فى البيت الأخير من هجويته يقول:

---
(١) الأهرام ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٠م.

من سب دين محمد فمحمد متمكن عند الإله رسولا

فكأنما دعا الله أن يأخذ اللورد كرومر بذنبه . فشوقى أخف وطأة من فاروق جويدة فى الهجاء، وإن كان كلٌ منهما قال ما لا ينبغى أن يقال، وأيا ما كان ففرق بين ما اجترح شارون وما صنع اللورد كرومر والتاريخ يسجل لكلٍ منهما ما صنع ولكن مع فارق، ويحسن فاروق جويدة فى قوله إنه يكتب تاريخه بالأوحال لأطفال العرب فى قبرهم ورحمهم على حد سواء، كما يحسن إذ يقول إن القدس أرضا وقداسا ومئذنة لها فى نفسه منزلة النيل والهرم لأنه فى ذلك يعمم ويتسع فى كلامه ليجمع المسلمين والمسيحيين والعرب أجمعين فى ما أصابهم من صنع شارون بهم . ويقول الشاعر :

من حقك الآن أن تزهو بما فعلت أقدامك السود بالصلوات والحرم
من حقك الآن أن تختال فى سفه وأن تدوس جبين القدس بالقدم
من حقك الآن أن تسبى مساجدنا فسيفك الوغد فوق ا لكل محتكم
من حقك الآن ما دامت عزائمنا قد هدها العجز واسترخت إلى العدم
صابرا وشاتيلا وأنهار مسافرة من الدماء وأنات بكل فم
فى راحتيك دماء أغرقت زمنًا وجه الصغار وأذكت نار منتقم

يعنينا من هذه الطائفة من الأبيات على الأخص أنه يتهكم مر التهكم ويشير فى تهكمه إلى أنه لم يجد من يجابهه ويتصدى له مقاتلاً وفى هذا من كلامه يردد ويكثر التأسف على العرب الذين تخاذلوا وخارت عزائمهم، فما قاتلوا ولاناضلوا، إنه يردد هذه المقولة التى سبقه إليها أكثر من شاعر، كما أنه يؤرخ ويعلن عن تلك المذابح التى تسبب فيها ويعلن عنها لمن لا ينبغى أن ينساها أو يتناساها فى عاجل أو آجل، ويمضى به القول فيقول :

ارحل عن القدس واترك ساحة الحرم لن يستوى القزم يا عربيد بالقمم
منذ ابتلينا بداء السلم شردنا بين الجموع خراب الأرض والذمم
فالسلم بالعجز تابوت ومقبرة وثوب عارٍ ودعوى كل منهزم
والسلم بالسيف أوطان محررة ونخوة فى ضمير الشعب لم تنم
السلم أن يحرس الفرسان رايتهم وأن نصون الحمى بالدم والقلم
السلم ألا نرى طفلاً يطارده سيف جبان وقناص بسيل دم
فى كل شبر حزين من شوارعنا تبكى العيون دمًا من سكرة الألم

لقد استهل الشاعر بتكرار الشطر الأول من قصيدته، وهو بذلك يعبر عن غضبته التى يقسره فيها على أن يرتحل عن القدس طريدًا، فيعبر عن حقيقة ما تموج به نفسه من ثورة تتأجج وتلتمس متنفسًا لها لتدفع المغتصب الدخيل بعيدًا بعيدًا.

كما أنه يتعرض لذلك السلم الذى يتردد على الألسنة فى يومنا هذا فيعرفه تعريفًا صحيحًا، ويسميه داءًا عضالاً لم يبرأ العرب منه بعد ويشبهه بالتابوت والقبر وثوب من عار ما دام مقرونًا بالعجز عن الحرب، وعنده أن يحمى هذا السلم بالسيف وإلا فلا، فهو داء عُياء وقول هراء وعار وشنار.

ثم يمضى به القول حتى يقول :

يا سيدى يا رســـــول الله أرهقـــنا ... ضعف العزائم صار الشبل كالهرم
هذى الشعوب التى علمتهـــا زمنًا ... نُبل الفضائل فى الأخلاق والقيم
سادت على الأرض والإسلام رايتها ... وشيدت مجـدها فى موكب الأمم
قد أثقلتها قيود العجز فانكسرت ... بين التشتت والأوهـــام والسأم
يا للعروبة قد باعت فوارسهــــا ... واستبدلت خيلها بالعير والغنم
يا للعروبة قد شاخت عزائمهــا ... فأعلنت حربها بالشعر والحكم
كهانها فى ليالى الأمن قد غرقوا ... وأسكـــروا الكون بالأفراح والنغم
هم يمرحون مع الطغيان فى سفه ... لم يحفظوا الله فى أرض ولا نعم
فى القدس شعب عنيد قام فى شممٍ ... بالثـــأر أقســم سوف يبر بالقسم
يا أمة الحق هبــى الآن فى غضب ... كيف استكنت لذل العجز والندم
أشلاؤنا لم تزل فى القدس دامـيةٌ ... فكل طفـــلٍ بها يغفو على لغم
يا شعبنا الحر فى الجولان فى رفح ... عند الخليـــلِ وفى لبنان فى الحرم
إنا على العهد عند القدس يجمعنا ... فجـر وليد بدا فى صحوة الهمم
فلنعتصم بلـــــواء الله فى جلـــد ... والله للحق دومًا خير معتصم

إنه يفزع إلى نبى الهدى عليه الصلاة والسلام ويستعينه بدعائه على رفع الكرب وتنفيس الضيق عن هؤلاء المظلومين المنكوبين. كما يأخذه العجب والغضب للعروبة التى كأنما تناست مجدها وسؤددها فى سالف الزمان وتخاذلت وخارت عزيمتها وكان الرأى أن تغضب غضبة مضرية وتمضى إلى حومة الوغى لتدفع العار، وقبيح منها أن تقتصر على كلام لا يغنى عن الحق شيئًا، وكان هذا حسبها، كما أشار إلى أن رجالها يتقلبون فى

أعطاف النعيم ويأخذون فرصة اللذات قبل فواتها فشغلهم هذا عن المهم الأهم، وهو بذلك يردد ما قاله شاعر قبله. ثم يتفاءل ويرى فى الأفق بصيصًا من نور الأمل ويرى أن القدس سوف يعود إلى أهله وأن الله سوف يجمع الشمل بعد فرقة وشتات، وهو كذلك يدعو الله أن يهدى العرب إلى السداد والرشاد. وفى البند الأخيرِ من قصيدته لا ينسى ذلك الصبى الذى قتله الصهاينة وهو فى حجر أبيه، إنه يجعله علمًا من أعلام التاريخ له خلود البقاء على أنه صاحب بطولة أفضت إلى استشهاده ويجعل منه البينة على وحشية من قتلوه.

«محمد» يا شهيد القدس يا أملا ... مازال يحبو كوجه الصبح في الظلم
يا درة العمر يا أغلى مباهجه ... أدميتنا بالأسى والحزن والسقم
فى وجهك الآن تصحو كل مئذنة ... ضاقت بها الأرض بين اليأس والحلم
فى قبرك الآن بركان يحاصرنا ... ويشتكى عجزنا.. ويثور بالحمم
يا صيحةً من ضمير الحق أسكتها ... صوت الضلال وكهان بلا ذمم
فى عينك الآن مصباح وأغنية ... لكل طفل برئ الوجه مبتسم
فكل نقطة دمٍ أنبتت حجرًا ... قد يكسر القيد أو يهوى على صنم
فاهدأ صغيرى فإن القدس عائدة ... مهما تمادى جنون الموت والعدم
إن خاننى الشعر فى حزنى فلى أمل ... أن يهدر الشعر كالبركان من قلمى

إن كلام الشاعر يفيض رقة وهو يحنو على صغيره الأعز، ويتجه إليه بكلامٍ يختم به قصيدته، وبذلك تتم هذه القصيدة فى وحدة متماسكة ترتبط فيها البداية بالنهايةِ، ولكن إذا احتكمت إلى ذوقى، قلت وإن كان قولى يحتمل الصواب والخطأ إن نفسى لا ترتاح إلى هذا البركان بين كلام للشاعر يعبر فيه عن فرط محبته له وحزنه على موته، كما لا أميل كذلك إلى جعل المصباح فى عينه ولا الأغنية لكل طفل بين أبيات رقاق ويا ليت هذا البركان وتلك كان فى أوائل تلك القصيدة وكانت جميع الأبيات الأواخر خاصة بهذا الطفل وحده فى نطاق لا يخرج عنه من حزن أبٍ على وديعته فى الثرى.

أريد لأقول إنى لا أميل إلى اللطف والعنف يتقاربان فى موضعٍ من تلك القصيدة التى كان فيها فاروق جويدة لاشك من المجيدين.

وللشاعر «مصطفى زقزوق» قصيدة بعنوان «صرخة ا لقدس»[١] يقول فيها:

(١) الأهرام ٨/ ١٠/ ٢٠٠٠م.

كيف ترضى بظلمها وأذاها　　　واحتــــلال لأرضها وثراها
وجبان يسومها كل يومٍ　　　بسلاح ما هدَّ يومًا قواها
غير مرتاعة لكل وعيــــد　　　وبنوها لا يعشقون سواها
ما اشتكت ضيمها لكل غبى　　　وعتــــى بغــدره قد رماها
إن فى صمتها صمودًا بليغا　　　وبيانـــا ينّم عمـــا دهاها
فهى أعلى شجاعة وفداءً　　　وهى أقوى عزيمة بهدُاها
نصف قرن مضى بكل ثبات　　　وسعير الأعداء لا يتناهى
كم مُـــداج أغرى بها بسلام　　　فسقـــاها من مُره ما سقاها
يا طغاة اليهود ما من ملاذ؟!　　　غضبــــة الله لا يطاق لقاها
فله الأمــــر والملائك وثب　　　سوف تلقى بنارها وشظاها
إن للقدس حرمة ومجيرًا　　　أفغير الإله يحمى حماها
إنه الوعد والجزاء وفـــاق　　　آن للحرب أن تدور رحاها

تنماز هذه القصيدة بأن القول فيها متماسك متناسق، تترابط فيه الأفكار فى تسلسل منطقى والمعانى واضحةٌ، كل معنى يتصل بغيره، إنه يمتدحها بصفاتها وسمتها، لا يتجاوز وصفها إلى ما يبعده عنها، ولكنه وهو عامر القلب بالإيمان يوقن أن الله حاميها، وأن حربًا سوف يكون لأهلها النصر فيها.

وللشاعرة غادة أصلان ديوان بعنوان «درة القدس» يتضمن سبع قصائد عن القدس والانتفاضة واليهود ودرة. وملحوظ أنها أطلقت على الديوان اسم الصبى «محمد درة» القتيل فى حضن أبيه.

أنا درة الزمان
فى أرض الرحمن
عمرى فداك يا قدس
قلبى ممزق يا صخرة
عزمى لم يستطيعوا قهره
قتلوا جسدى
ولكن فى كل جسد
رمز النضال المتقد

في أيديكم ثأرى يا عرب
في أعناقكم قدسى ياعرب
لا تضيعوا القبة بالطرب
أريد أن أكون
نارا في قلوبكم
دماراً على عدوكم
عشت في الظلام
أمرت نورا
في عيونكم

إنها كامرأة لم تنطق عن عاطفتها نحو هذا الصبى، وإنما تحدثت بلسانه يطلب الثأر من العرب لمصرعه. وتجعل الانتقام له أمانةً في الأعناق. كما أنها تجعله على حداثة سنه رجلاً قوى الشكيمة يفخر بشهامته ورجولته وتطيب نفسه بأن يموت شهيداً فدائيًا، فالشاعرة بذلك عرفت به على نحو جديد فريد.

وفي قصيدة أخرى بعنوان «صرخة درة» تقول فيها:

احمنى يا أبى
من عدو ومعتدى
رصاصة في كل مكان
حولى على الجدران
خبئنى بذراعك
ألوذ بأقدامك
آه......
رصاصة في قلبى
قد أموت...
لكنى في القلوب والبيوت
في المساجد
والكنائس
على المتاريس والسدود

قد أموت . .
أعلم أن ثأرى
فى أعناق العباد
قد أموت . .
لكن لن ينسانى
حتى أطفال المهود
قد أموت
أسألكم يا عرب
أن تكونوا فهود
تضعوا لوطنى حدود
تخرجوا منه اليهود
مت فداء له
أعزل
بلا سلاح
مت يا أقصى محمد
يا قيامة عيسى
يا قدس المرسلين
أحميك يا قدس
بجسدى النحيل
بحجر بين أصابعى
بعينى التى لا تدمع
قلبى الذى لا يفزع
من بنادق الغدر
مدافع الاحتلال
التى تملأ التلال
أحميك يا قدس
بقلبى الصغير

حتى وإن ثقبوه
جسدى الضئيل
حتى وإن سحقوه
ليس لدى سلاح
ولكن . . بقلبى قوة
تقهر كل سلاح

إن الشاعرة وهى تحاود الكلام على لسان هذا الصبى تجعل منه رجلاً يتحدث، يرفع صوته الجهورى ليفصح عن موقفه من القدس. ويرفع الرأس لأنه يحميها ولو بجسده الضئيل النحيل بذلك الحجر الصغير الذى قد يصلح لطفل يلهو ويلعب برميه وليس سيفا بتاراً يصول به من يصول ويجول به من يجول. كما أنها تُجيد فى قولها إنه يحمى القدس بعينه التى لا تدمع، وهو طفل فهى عين رجل لاعين طفلٍ صغير، وبقلبه الذى لا يفزع كقلوب الصغار، إنها جعلت منه بطلاً بئيساً باسلاً، أشجعَ من الرجال فى حومة القتال. وهذا الرجل له صمود أمام اليهود. وبذا تكون الشاعرة قد استوفت كلامها عن محمد درة فى قصيدتين تتكاملان وتدوران فى نفس الغرض والمجال.

وفى قصيدة «قتل فدائى» للشاعرة من نفس الديوان وصفًا لفدائى وهو يحارب من أجل القدس وهى تجرى الكلام فيه على لسانه فتقول:

فى الليل أسقط
خلف أسوار المدينة
جراحى تنزف
ولا يسمعنى
من أحمل دينه
الليل يلتف حولى
والبنادق فوق قلبى
دبت فى جسدى
صحوة الموت
فصرخت
القدس لنا

من قبل التاريخ
القدس لنا
وإن قتلتم
كل يوم جريح
ثم اختفت الوجوه
أضاء الليل نور
نور على نور
ابتسامة من الحور
فى جنة لا تبور
من أجلك يا قدس
شبابى فداك
قلبى لم يعرف سواك
لم أقتل
إلا من أجل عيناك
دمائى فى ترابك
عمرى نثرته على أعتابك
جسدى سقط على أبوابك

إن الشاعرة فى هذه الأبيات تجرى الكلام على لسان مقدسى فدائى يحارب من أجل موطنه، ويستعذب العذاب من أجله، بل ويتعلق بالموت أمله ليكون من حماه. ثم تصفه وهو يقاتل على ما به من ضعف من يقاتله على ما به من بطش وعنف، ولكن ليتها بدلاً من قولها «عيناك» قالت «عينيك» و«جريحًا» بدلاً من «جريح». فإن المعذرة لا تتسع للشاعر حتى إذا اضطر فى كلامه أن يغير فى أصول العربية ولا يشفع له فى ذلك أنه مجيد، فقد كان للشاعرة مندوحة عن أن تقول ما قالت فى عربية صحيحة.

إن الشاعرة لم تحنو على الصبى حنو الأنوثة أو الأمومة فى القصيدتين التى تناولت فيهما درة، فلم يعد للطفل شأن الصبى الصغير الغرير بل صفة الرجل البطل وأدخلته فى التاريخ ذلك التاريخ الذى سوف يذكره ويقدره. وبذلك تختلف الشاعرة فى موقفها منه عن موقف غيره ممن نظرنا فى شعرهم عنه. وللشاعرة قصيدة تحت عنوان «يا قدس»، تقول فيها:

يا قدس يا حبيبة
قتلوك بكل طريقة
دموعك لن تجف
دماءك على الرمال تئن
بقلبى أنتى وعمرى
بأمسى ويومى
ليتنى أحمل حجراً
أفتح قبراً
لكل عيون الغدر
يا قدسى الحبيبة
أريد أن أحمل مدفع
أريد أن أذهب ولا أرجع
أقف ولا أركع
أقتل ولا أدمع
أرفع الراية فوق القبة
يا قدسى الحبيبة
ليتنى كنت قريبة
كنت حملت السلاح
وضمدت كل الجراح
ورفعت صروح الكفاح
يا قدسى الحبيبة
أريد أن أصرخ
أن أقول لا . .
أريد أن أسحق . .
الظلم والغدر
اليهود مع القهر
يا قدسى الحبيبة

دماؤهم على جدران المساجد
قلوبهم بلغت الحناجر
أرواحهم فى أيدى فاجر
يا قدسى الحبيبة
العرب نيام
غرقى فى الأحلام
لا ينسون الطعام
أموالهم فى بنوك اليهود
أجسامهم تحت أقدام اليهود
أين الأسود والفهود
لم يبق فى الغابة إلا القرود

فى هذه القصيدة تنطق الشاعرة عن وطنية فدائية غيورة وكلامها غاية في الرقة إذ تنادى مدينتها وتناجيها، وتريد لها فى المحنة أن تفديها، إن كلامها فى هذه القصيدة يتقلب فى المعنى والغرض الذى تقلبت فيه قصيدتها التى بعنوان «قتل فدائى» إن مقولتها تمس شغاف القلب وإن كان هذا القلب من حجر وهى تقول إنها تريد أن تذهب ولا ترجع وتريد ألا تدمع وألا تركع فهى تطلب الشهادة شأن المجاهدين الأبرار وشاءت أن تكون مع الرجال فى خوضهم لساحة الوغى لتضمد الجراح كامرأة هذا شأنها فى المعركة ولكنها تتجاوز هذا من أمرها وتريد أن تحمل السلام، وتثور ثائرتها لتخرج عن أنوثتها فتتعدى اللطف إلى العنف وهى تردد ما سبق أن قال غيرها من تقبيح وتجريح العرب، وتعيرهم بثبات غفلتهم ولا هم لهم إلا أن يكونوا منهومين فى المآكل والمشارب تستحب لهم أن يكونوا الأسود بعد أن كرهت لهم أن يكونوا هم القرود.

إنها فى قصائدها الأربع تستوفى الكلام فى أغراض متماسكة فجعلت من هذه القصائد وحدةً متداخلة العناصر كادت تضمنها كل أوجل ما قيل فى ذاك المقام.

وللشاعر عزت عبد الله ديوان بعنوان «القدس هانت»[1] يقول فيه:

(١) عزت عبد الله: القدس هانت، ص٣٣ - ٤٤، القاهرة ٢٠٠٠م.

القدس . .
أرض الله بالأمصار هانت يا عرب
والمسجد الأقصى . .
مصلى أنبياء الله . .
بالرجس اضطرب . .
القبلة الأولى . .
تئن . . وتحت نير الظلم باتت تنتحب . .
وأنينها . . لا يسمع الصم الدعاء . . ولا عجب
والكعبة العصماء فى أم القرى
لبست على الأخت الحداد . . فما السبب؟
هاك السبب
فالكل ولى مُدبرًا . .
يلهو بحق الله فى الدنيا . .
ويسكره الطرب . .
والحق يحتاج المروءة والبسالة والغضب
الحق يحتاج النصب . .
ليس الكلام أو الخطب . .
أين المروءة والبسالة و الغضب؟
يا من هرب . . أين الغضب؟
أين الغضب؟
فالقدس هانت ياعرب

هذا الديوان لا ينطوى إلا على قصيدة واحدة مما يضفى عليها صفة الملحمة إنه يستغيث بالعرب ليبادروا إلى الجهاد من أجل استرداد القدس ويحزنه أن تذل من عز، فيردد ما ردد غيره من الشعراء فى قوله إن العرب تنصلوا من مسؤليتهم وغزتهم الدنيا بزخرفها فشغلوا عن فجيعتهم فى بلدهم، ويحسن قوله إن الكعبة لبست على القدس ثوب الحداد ليحرك الهمم ولكن من قبل الدين القويم . ويردف ما قاله بقوله :

المسجد الأقصى . .

حرام يا رفاق . .

وأحله من نجسوه . .

يا قومنا هبّوا

فهم قد خططوا ليهودوه

فإن استطاعوا . .

دعموه . . وحاصروه . .

وكبلوه ليملكوه

أما إذا فشلوا

أعدوا عدة كى يهدموه

هبوا لنصر الله . .

إيمانًا به واستغفروه

فلينصرن الله قوما ناصروه

وليخذلن الله قوما حاربوه

وليجزين الله . .

من عاشوا لدين الله . .

جنداً يرفعوه . .

وإذا تخاذلتم . . فقد عرف السبب

أمثالنا قالت :

إذا عرف السبب . . بطل العجب !

فالقدس هانت ياعرب

الشاعر فى حديثه عن المسجد الأقصى يذكر الحقيقة بحذافيرها فى عبارة مستقيمة واضحة ويربط المسبب بالسبب، كما يناشد فى العرب إيمانهم كما سبق أن قال . ويسترسل شاعرنا فى القول :

يا قومنا هبّوا . .

فلن تحمى حرائرنا القصور

لن تغسل الأدران . .

آبار الروائح والعطور
لن يقهر الأعداء . .
إحراق العزائم بالبخور
لن يصرف الأعداء . .
إطلاق الفوارس والصقور . .
ما ردهم صيد الأيائل
والزواحف والطيور
لن يرجعوا . .
إلا بسيف الحق . .
يجتاز الصدور
أيام كان السيف من بأس الحديد . .
تفرقوا وتمزقوا . . فتشرنقوا . .
حتى أتونا بالفجور
وإذا بنا ياقوم نأمنهم . .
وندعو للسلام . . مع العقارب والنمور
هل يستوى عند الصلاة بقدسنا
صف النجاسة والطهور؟
لو أن سيف الحق أغمد . .
لن ننال سوى المخازى والشرور
فالسيف أصبح من ذهب . .
للرقص فى حلق الطرب . .
والقدس هانت ياعرب

إنه يشدد النفير على العرب فى غفلتهم عن قدسهم ويعيب منهم عدم جديتهم وضعف وسيلتهم ويضرب لذلك الأمثال. ويبصرهم، لم يعدوا العدة فما أشبههم بمن يتوهمون أنهم يغسلون الأدران وما تصاعد من نتنها بالعطور، يريد بذلك أن الحديد بالحديد يُفلح. ولا ينبغى أن يواجه العنف باللطف، فهذا التراخى من قبل العرب لا يغنى عنهم شيئًا وليس له من جدوى. كما يذكر بأنهم مراوغون يخدعون ومواعيدهم مواعيد عرقوب

وعجبٌ أن يتم التفاهم بين العقارب والنمور، إنه يكشف عن حقيقة الحقائق ويبصر بأنهم حتى إذا أرادوا أن ينالوا من العدو شيئًا فالواجب الأوجب أن يفطنوا إلى أنهم يتعاملون مع العقارب والنمور. وينبه إلى أن الملاينة لا تجدى نفعًا، فلا بد من المخاشنة والاحتكام إلى السيف الحسام.

ولقد نظم الشاعر ملحمته تلك فى جدة عام ١٩٩٣م، ولم تنشر إلا بعد ذلك بسبع سنين، ويدرك من ذلك أنها نشرت بعد الانتفاضة وبعد أن مست الحاجة إلى نشرها، وكان لزامًا أن ترى النورفى أوانها.

وللشاعر الدكتور محمود على السمان منظومة تحت عنوان «يا قدسنا»(١) يقول فيها:

بنى الإسلام، يا حراس مجده	خذوا فى شكر ربكمو حمده
فما الإسلام إلا الدين حقا	وسبحان الذى أسرى بعبده
إلهى سوف يهديكم لتهدوا	إلى إسلامكم خيرًا عظيما
فهيا يابنى الإسلام جدوا	ليهديكم صراطًا مستقيما
طريق مجاهدينا جد سهل	وقد سلكوا مسالك الانتصار
فكانوا خير برهان بليل	وكانوا خير فرسان النهار
أيا رباه، نحن إليك هدنَا(١)	وتهنا فى المكان وفى الزمان
ستغرق فلكنا إن لم تقدنا	إلى بر السلامة والأمان

الشاعر هنا يسوق الخطاب إلى المسلمين عامة ويناشد فيهم إيمانهم وكأنما يستحلفهم به، لأنه لا ريب أهم وأعظم ما لديهم. إنه يستحلفهم أن يلبوا دعوة الدين الذى يلزمهم الجهاد فى سبيل الزود عنه، ويذكرهم بسلفهم الصالح الذين جاهدوا فى سبيل الله فكانوا خير سلف لخير خلف، وعليهم أن يروا فيهم الأسوة الحسنة ليفلحوا مثلهم ويكونوا فى مرضاة الله كما أنه يدعو الله أن يسبغ على المسلمين نعماءه ويهديهم إلى سواء السبيل لينصروا دين الحق ويكفوا عنه أذى أعدائه فهو يأتى إليهم من ناحية لا يمكن إلا أن يوقنوا بها، ولن تحتمل عندهم شكًا ولا تأويلاً، ثم يتابع كلامه فى غرضٍ ينبههم إليه، ويدعوهم إليه فيقول:

نسينا فى صراع خلف دنيا	بأنا قد نسينا الدين سهوا
وزدنا فى فساد الحال أنا	تخذنا زينا لعبا ولهوا

---

(١) الأهرام ٣/ ١١/ ٢٠٠٠م.

أجل، فينا الذين عموا وصموا ... ومن هو عن سبيل الله تاها
وممن آمنوا منا رجال ... على ما عاهدوا صدقوا الإله
بنى الإسلام قد ضعفت قواكم ... بنى الإسلام، فانتفضوا بهمة
بنى الإسلام، والتمسوا هداكم ... بنى الإسلام، كنتم خير أمة
وفى تاريخنا أهدى مثال ... لمن حملوا إلى الحق السلاحا
فما جبنوا بساحات القتال ... وقد عشقوا لمجدهمو الكفاحا

إنه يصارح المسلمين بما لا يجد سبيلاً إلى كتمانه. إنه يقلب كفيه نادمًا على رؤية من رق إيمانهم فباعوا بآخرتهم دنياهم وشغلتهم الدنيا بزخرفها عن أداء واجب لا محيص عنه، ويرغب إليهم أن ينفروا نفيراً للقتال أسوة بمن سبقوهم إلى الإيمان فى الزمان الخالى.

إن الشاعر يأتى بجديد ربما لم يسبق إليه وهو أنه لا يكتفى بذكر ما كان من السلف الصالح، بل يتحدث بما يسمى حديث الساعة ولشرح ذلك نقول إنه وصف ما يموج به الحاضر من أحداث جسام لا ينبغى نسيانها ولا تناسيها فيقول :

ففى الأفق الصليبيون لاحوا ... وعاثوا فى أراضينا فسادا
وقاد العُرب فى مصر «صلاح» ... وخلص من فساد همو البلاد!
وفى «البلقان» كم عانى وعانى ... أخى البسنى من جرم شنيع!
وكافح عن كرامته شجاعا ... ونال شهادة الشرف الرفيع!
وفى «الشيشان» : أبطال الكفاح ... تنادوا فى المساء وفى الصباح
لأريناكمو، وعرض مستباح ... ألا هيا، وحى على الفلاح
وفى «القدس» الشريف، لكم تعدى ... عدو غاشم. . يُصلى بنار
وطفل حجارة منا. . تصدى ... له، فكساه من خوف بِعار!
لنا«القدس» الشريف، ولا سوانا ... وسوف يبوء مغتصب بطرده
وأولى القبلتين به. . حمانا ... وسبحان الذى أسرى بعبده

إن الشاعر يعتبر مجدداً فيما قال لأنه ذكر ما لم يذكر غيره ممن أسلفنا النظر فى شعره، إنه يقرن بين الوضع فى البلقان والشيشان والقدس وبذلك تتسع دعوته فى عموم، كما أن ذكر البلقان والشيشان متصلاً بذكر القدس لاشك مما يزيد ما يريد الدعوة إليه تأكيداً ويجعل من اتحاد المسلمين أجمعين قوة تضعف من قوة العدو ويبصر بأن المسلمين فى المشارق والمغارب

إذا اجتمعوا على أمر فاجتماعهم لاشك سببٌ فى نصرتهم، وإن كلمة سواء بينهم هى البشرى بإدبار أمس مقيت وإقبال غد سعيد.

يتجلى المنحى الدينى الإسلامىّ فى هذا الشعر لأنه ذكر آية قرآنية كريمة فى بدايته ونهايته، كما أنه عدّ من لم يأخذ بالجهاد فى سبيل الله رقيق الدين، وكان إلى ذلك واقعيًا بمعنى الكلمة لأنه لم يكتف بأن ذكرّ بالماضى الدابر، بل كذلك باليوم الحاضر.

وللشاعر أحمد فتحى عامر قصيدة تحت عنوان «ياقدس» يقول فيها:

مرحى بأغصان تتجدد
فى شجرة شهدائك يا قدس
مرحى بأطفال الحجارة
مرحى بصناع الكرامة
والله
لقد ارتفعت بشهدائكم هامات
بالعجز والشتات كم تقزمت
بأنين الأرامل.. والثكالى
بالجراح.. وبالدماء
بالجبائر.. والضماد
جاءك يا شارون الرد
خرجوا إلى ألوفك المدججة
خرجوا بالصدور عارية
لم يأبهوا للبنادق.. والمدافع
ولا رهبوا القنابل والرصاص
فقد جاءوا يخطبون الشهادة
من أجل القدس
من أجل القدس جاءوا
يؤدون عن الأمة فرض الجهاد
وعن عاتقها يرفعون الحرج
و..........

شاعرنا يختلج منه القلب بهجة حين يذكر أن من المسلمين محاربين يجاهدون الصهاينة تحت إمرة شارون الطاغية، وقال إنهم يؤدون فرض الجهاد عن المسلمين، ولا سلاح لهم إلا حجارتهم التي لا تغنى عنهم شيئًا فى القتال، إنه يصفهم فى المعترك على التفصيل فيذكر حتى جرحاهم فى ضمادتهم، وجبائرهم، إنهم يكافحون وينافحون عن الدين ويتابع كلامه ليقول:

ودونك - يا قدس - خرط القتاد
فيا أبناء بدر.. وأحد
وكل الغزو فى زمن الرشد
أنتم الشهداء فى زمن البلادة
أما أولئك البشر
الذين استغرقوا فى ملء البطون
وتبادل النكات والقفشات
والتحول عن محطتكم
وأنتم تقاتلون.. أو بالأخرى تقتلون
فليسألوا الله السماح
وليلتمسوا عندكم العفو
وكرم غفران خطاياهم
لسنا دعاة حرب ولكن
لا بد أن يعلم من لا يعلم
أن «من مات ولم يغز
ولم يحدث نفسه بغزو
مات على شعبة من النفاق»
وأن تجهيز الغازى هو الغزو
لمن لا طاقة له بالغزو
فلينظر كل ماذا يمكن أن يفعل
أم يظل الحق يكتب
فقط بدماء الشهداء؟!

إن الشاعر مؤمن يتحدث إلى المسلمين أجمعين ليقول لهم إن فى سير أسلافهم موعظة ودرسًا فينبغى أن يلقوا إليه سمعًا، والذين تصدوا لجند شارون هم الشهداء فى الزمن الحاضر، وهو زمن يشيح عنه ويمقته لأن من أبنائه الشهداء قلة تحذو حذو الأسلاف فى استحباب الشهادة فى سبيل الله، كما يهزأ أهل اليوم الحاضر ويعيب منهم لهوهم ولعبهم وأنهم أميل للهزل منهم إلى الجد، وهذا قبيح بهم، لذلك يردد ما قاله أكثر من شاعر نظرنا فى شعره من قبل، ويحسن منه أن يقول إن هؤلاء المجاهدين فى اليوم الحاضر يقاتلون، بل يقتلون وفى هذا إعجاب بهم وإعلاء من شأنهم وأنهم استحبوا حياة العز والتقوى على حياة الخزى والعار، والقعود عن فريضة الجهاد، ويريد لهؤلاء الذين فى سُبات غفلتهم أن يستميحوا معذرتهم ممن يقاتلون ويتوبوا من ذنبهم متابًا، ولكنه بعد ذلك يريد أن يرد على من قد يستفسرون منه كلامه إنه ليس داعية حرب وإنما هو داعية جهاد ويذكر الجهاد على أنه لازمة من أهم مايكتمل به إيمان المؤمن ويستشهد بحديث شريف وفى هذا الحديث الشريف كله فيه تبيان لمزية الجهاد وكيف أنه ملزم للمؤمن فى كل صورة من صوره. ويريد لكل أن يفعل ما يستطيع فعله.

وإذا قارنا بين الشاعرين د. محمود على السمان وأحمد فتحى عامر، ألفينا أن الأول يشير إلى الجهاد ضمنًا على حين يوجبه الثانى إيجابًا، وهو على حجة مما قال الصادق المصدوق ﷺ. كما أن الأول يقول إنهم نسوا الدين سهوًا، والثانى يقول إنهم استغرقوا فى العبث وما لا طائل تحته. ويرى من العيب أن يتقاعس المتقاعسون عن الجهاد ولا عجب فهو الركن السادس من أركان الإسلام كما هو معلوم ويتركون غيرهم يكتبون مجدهم ومجد المسلمين بما سفحوا من غزير دمائهم.

وثمة قصيدة تحت عنوان «فسيفساء القدسية»[(١)] للشاعر الأردنى إبراهيم خليل - ولد الدكتور إبراهيم خليل عام ١٩٤٨ فى عانين، اشتغل بالتدريس والصحافة وقد ألف فى الرواية العربية فى المغرب الأقصى والسياق وأثره فى الدرس اللغوى يقول الشاعر :

القدس فى عالمى تكبر
شوارع المسك بها عنبر
والقبة الصخرة لا تفتأ
ترسل ضوءًا من سنا يبهر

(١) إبراهيم خليل : معجم البابطين ص ١١٢ مج ١.

يا وطنًا
تعشقه الأقمار
أحلمُ بالأقصى
وفي زخرف
يحلو به المحراب والمنبر
يا وطنًا فيك الهوى يمطر
فيضامن الأحلام
يا منظرًا يزينه النرجس،
والسوسن،
والمرمر
والشجر اللبلاب والأزهر
والألم القابع في تربه
تسقى وتروى من دم يقطر
يا قدس كم تزهو بك الأعصر؟
أغنية أنت، وترنيمة
كم عاشق أضحى بها يسكر
أهزوجة أنت، وترتيلة
غنى بها الحادون والسمَّرُ..
وثورة أنت على من عدا
وجال بالشر ولا يستر
كم فيك من مستنقع للدما
فاض ولم تفتأ به تكثر
إن شوهوا وجهك من حقدهم
أو عكروا صفوك ما عكروا
فالشمس في جيدك لألاءة
يزدان منها القد والمئزر
يا قدس
يا أسطورة تبهر..

هذا النص من الشعر العربى الحديث الذى تتداخل فيه الصور ويجنح فيه الشاعر إلى الخيال البعيد، كما يزحمه بالرمز ويؤلف من كل هذا صورة واحدة إلا أنها تتشكل من عدة صور فرعية كلها يتسق بعضها مع البعض ويخرج المتطلع عليها منها بعناصر مؤتلفة ومختلفة. إلا أنه يخالف جل الشعراء المحدثين المعايشين فى أنه كان صاحب غرض يسعى إليه ليعبر عن حقيقة بعينها ترسو على أساس معلوم، إن الشاعر وصاف وعنوان قصيدته مبتكر يدل على أنه من الشعراء المحدثين الذين يميلون إلى توليد صور يستمدون ألوانها وخطوطها من بنات خيالهم.

إنه يصفها وصفًا مبتكرًا ولا يفوته أن يعقد وثيق الصلة بها وقوله إنها وطن تعشقه الأقمار من شطحات الخيال فى الشعر العربى المعاصر، كما أنه يتخيل للقدس زينة من النرجس والسوسن وشجر اللبلاب، إلا أنه يروى هذه الأزهار بدم يقطر هودم الشهداء. ثم لا يتمالك نفسه من التحليق بجناح من خيال ليشبهها بأغنية إذا طافت بسمع العاشق، راح فى نشوة حالمة. ولكنه بعد هذا الكلام الذى تبش له النفوس يدخل على معنى آخر يبين فيه القدس فى يومها أو على الأصح فى محنتها كما يقول إن فيها مستنقعات للدماء وبذلك تخرج القصيدة من صورتها البسامة المرحة إلى صورة كئيبة حزينة يتأذى بها الحس المرهف، فمستنقع الدم يدل على أن دماء الشهداء فيه راكدة أى إنها سفحت من مدة فكان حكمها ماء المستنقع الراكد، كما إن هذا المستنقع خاض ومازال ماؤه على الأيام يزداد، وينتقل إلى صورة أخرى أكثر بشاشة فيرى الشمس تطلع من جيبها مشرقة. وبعد ذلك ينهى كلامه بأنه يشبهها بأسطورة عجيبة، إنه أصاب المعانى التى شاء أن يستمدها من قصيدته خاصة بالقدس بعد أن عبر إليها فى صور متلاحقة فى سياق دافق، ولعله أصاب فى تسمية قصيدته بالفسيفساء، لأن هذا الوصف يصدق عليها جملة وتفصيلاً.

وللشاعر أحمد شلبى قصيدة تحت عنوان «أغنية إلى القدس»[١]. إن هذه الأغنية أغنية حزينة بكل معنى الحزن وإن كانت الأغنية فى الأعم الأغلب أميل إلى البهجة، إن الشاعر يذكرها وهو حزين من كل قلبه ويكاد يرثيها، إنه يميل إلى تقبيح الصورة الشعرية رغبة منه فى المبالغة التى يريد بها التعبير عن شدة أساه، فنزيف الأيام الذى يسيل على شفتيه باسم الجوع والبؤس صورة للحزن تستبشع. إنه يريد أن يعرض لنا صورة لنفسه وهو محزان. يقول الشاعر:

(١) أحمد شلبى: معجم البابطين، ص ٢٧٥ مج ١.

من أجلهــا أمــشى بــلا يأس فلقــد وهبت فــداءها نفــسى
خلف الليالى . . رحت أتبعها والدرب يدنينــــــى من الرَّمس
لا شئ من زاد الحيــاة مـعــى إلا جــراحـــــات من الأمس
ونزيف أيـام يسيــــــل على شـفـتى . . باسم الجوع والبؤس
ورؤى بـــروج كـان طالعــهـا يأتى بآمــــــالى على العكس

إن الشاعر يلتفت إلى المسجد الأقصى متأسيًا بمعظم الشعراء الذين قالوا شعرًا فيها :

إنى لأسـمع فى السـمـاء صدى صـوت ينادينـــــى من القـدس
الرعب ممتـد بســـاحــتـهـــا يرسى من الأحــزان مـــا يرسى
والمســجــد الأقـصى مـآذنه تشكــــو من الآثـام والرجس
والعـرب مـا عـرفـوا الطريق لهـا من خـزرج كـانوا . . ومن أوس
والريح لازالت عـواصـفـهـــا تأتى على الثـمـــرات والغـرس
قــولوا بلا فــعــــل . . بألسنة عند ارتقـاء نحــوها . . خــرس
يا من حــملتم عــاركم علنًا أنا لـن أنكـــــس بينكم رأسى
قــدمت قــربانًا لهــا نفـسى لأقــيم فى مــحــرابهــا عــرسى
وأرى ابتـسـامـات الضـيـاء بهـا بعـد اخـتنـــاق البـدر والشـمس
يا من سكبت الحـزن فى وطنى ومـرارة الأحـــــزان فى كـأسى
لا شيء تغـرينى مـبــاهجـــه منذ ارتحلت ببـــهـجـــة الأنس
وتركت أشـبــــاحًــا تطـــاردنى فى الأرض . . من جن ومن إنس
لازلت أقطر منذ غــبـت أسى ينســـاب لا يســـلى ولا يُنسى
لا تتــركــينى للجـراح غــدًا إنى جـــــريح اليـوم والأمس

إنه يضر ب على ذلك الوتر الذى ضرب عليه من أسلفنا النظر فى كلامهم من الشعراء أى إنه يمزج ظلام أساه بنور مُناه لأنه متـعلق بأمل فى مـقـبل الأيام حين تنقشع الغـمـة وتنكشف الكربة ويعود الحق إلى نصابه .

وفى قصيدة للشاعر العراقى فتحى أحمد عامر تحت عنوان «موكب النصر»[(١)] وهى قصيدة طويلة تحدث فيها الشاعر عن سيناء والجولان وفلسطين ودمشق ومصر ، وأورد ذكرًا للمسجد الأقصى . ومعلوم أن المسجد الأقصى يمكن أن يعد علمًا على القدس فيقول :

(١) مجلة الكتاب ص ٢٠٤ العدد الثامن ، بغداد ١٩٧٥ .

لن نترك المسجد الأقصى تدنسه أقدامكم ، فانظروا ها نحن آتونا
من فوقكم لهب ، من تحت أرجلكم نار تميز من غيظ الحقودينا
لقد أسأتم وأحسنا فكيف بكم لا تحسنون و ماذا للمسيئينا
إنا نرى المسجد الأقصى ينادينا ويستغيث ولسنا بالمغيثينا

هذا الشاعر يسوق كلامه إلى الصهاينة الذين احتلوا القدس ويصرون فى عناد شديد على أنهم لن يبرحوها ، وفى هذا ما فيه مما تتأذى به نفس المؤمن ، بله الشاعر مرهفَ الحس ناصع البيان فما كان بدعًا أن يقول هذا الشاعر ما قال على الوجه الذى قاله مغضبًا محنقًا يتوعد الظالمين بالويل والثبور على أن الوضع سوف يتبدل من حال إلى حال كما أن الأمر لا بد أن يعود إلى نصابه . إن كلامه فى وحدة متماسكة وعبارات متناسقة .

كما إنه وهو يواجه من يواجههم بكلامه أى الصهاينة يذكرهم بأن المسجد الأقصى يستغيث بالمسلمين كيما يخرج من الصهاينة ويعود إليهم ويحزنه أن يستصرخ ا لمسلمين ولا يجد منهم صريخًا .

فهذ البيت الأخير يرشد إلى حقيقة الوضع وهو وضع لا يعجبه وهو يومئ إلى أن المسلمين فى أرجاء الأرض يسمعون استغاثة المسجد الأقصى لهم إلا أنهم لا يلقون إليه سمعًا وهذا ما يحز فى نفسه ويثور ثائرته ، ولكن فى نهاية كلامه فى البيت الأخير يختلف عن كلامه فى البيت الأول أي إنه يشير إلى حرص المسلمين على مسجدهم الأقصى إلى أنهم سوف يأتون إليه لإغاثته ولكنه يقول إن المسلمين ليسوا للمسجد الأقصى بمغيثيه . إنه يردد ما جرى على ألسنة الشعراء من قبل ، فمعظمهم يأسى لهذا الموقف من المسلمين ويريد ليشحذ هممهم حتى يحركوا ساكنًا ويلقوا بالاً إلى ما ينبغى أن يكون من موقفهم وصنيعهم فى وقت معًا .

ولدينًا قصيدتان لشاعرين فلسطينيين عنوان الأولى «فى مهبط ا لوحى وأرض المعراج» للشاعر على هاشم رشيد والأخرى للشاعر هارون هاشم رشيد تحت عنوان «القدس» .
لدينا من القصيدة الأولى ستة أبيات يقول فيها :

وطار بى الشوق لأرض السلام ومهبط الوحى ومهد الكماه
نزلت بالقدس وسرب الحمام يبث للأزهار نجوى هواه
جبالها الشم بوجه الخطوب قد خضبتها سائلات الدماء
ما هب فيها شمأل أو جنوب إلا وكان الهدى ذاك الحداء

صليت فى الأقصى وكان المقيل تحت ظلال الروح قبل الرواح
زيتونها يزهو بثوب الأصيل والورد يرنو كابتسام الملاح

إنه يجنح إلى الوصف فيرسم لها صورة جميلة تدل على أنها مدينة جميلة هادئة، ولكنه بعد ذلك ينتقل طفرة إلى وصف جبالها ليقول إن الدماء خضبتها.

ويقول إنه صلى فى الأقصى فى وقت الظهيرة، ويصف أشجار الزيتون فيها وقد أرسلت شمس الأصيل عليها ثوبًا من أشعتها الذهبية، كما يعجب بوردها ويُحسن تشبيهه بابتسام الملاح. إنه يمزج جمال الوصف بشدة العنف.

أما القصيدة الأخرى فيقول فيها الشاعر هارون على رشيد:

أقول لهم لأجل القدس تصميمًا وإيمانا
لأجل القدس أدعوكم فطهر القدس قد هانا
لأجل القدس أدعوكم لها للقائنا الآنا
فهل تحتمل التأخير وهى تموت أحزانا

والشاعر هنا لم يظهر الميل إلى الوصف، بل كان يدعو إلى النفير، ويحذر من التقاعس والتراخى فى الزحف، إنه يتمثلها محزونة لأنها الآن ليست لأصحابها، إنه يرق لها من حزنها على حالها ويطلب إلى قومه أن يسارعوا إلى نجدتها بعد نكبتها فبرح بها الأسى إنه يعبر عن شعوره نحوها على حين، مال الشاعر الأول إلى تملى جمالها، وهذاما يفرق بين الشاعرين. ولكنه يتابع القول فيتجه إلى غرضٍ يختلف عن الغرض الأول فيميل إلى الوصف ويقول:

هنا خطو النبى هنا ضوع وأنسام
هنا عمر يمد يدا فتزهو منه أكام
هنا القدس هنا التاريخ أيام وأعوام
فكيف يداس كيف يهان كيف ينكس الهام

ثم يتخيل الشاعر المدينة فى تاريخها المجيد، فيذكر ما كان من سيره ﷺ فيها ويشير إلى عمر الذى فتحها فاخضوضرت آكامها. ويختتم هذه الأبيات بالبيت الذى يحزنه فيه أن تنتهك حرمتها وتذل بعد أن عزت على امتداد التاريخ.

ولنا أن نقول إن هذين الشاعرين الفلسطينيين يتكاملان فى مواجهتهما للقدس.

وثمة نشيد للشاعر الفلسطينى محمد العدنانى تحت عنوان «القدس» يقول فيه :

مـــدينة القـــدس ريحـــانة الشـــرق
ومنيـــــة النفس وشـــــعلة الحق
مـــدينة الطهـــر والعـــزو المجـــد
والوحى والشـــعـــر والأنـــس والرفـــد
شـــرفـهـا المختـــار والســـيـد المسيح
فـشـعت الأنـــوار فى أفـقـهـا الفـسـيح
بهـــا فلســـطين تاهت على الدنيـــا
فـــحـــبـــهـــا دين عـــاصـــمـــة العليـــا
مـــدينة الإســـراء مـعـشـوقـة العـرب
فـداؤها الأبنـــاء ومـهـجـة القلـــب
حـــاصنة الأقـــصى ومنحـــة الـــرزاق
هيـهـات أن يحـصى سـخـاؤها الدفـــاق

النشيد مفترض فيه أن يكون مأنوس اللفظ، واضح المعنى، سهل العبارة، كما لابد أن يكون فيه غرض واضح يبين السبب فى نظمه وبالتالى فى الترنم به، وهذا كله يتجلى فى هذا النشيد، وبذلك يكون ثلاثة الشعراء الذين أسلفنا ذكرهم قد اجتمعوا على كل ما يمكن أن يقال فى مدينة القدس.

ويذكر بعد ذلك محمد إبراهيم أبو سنة وهو فى طليعة شعراء الستينيات فى مصر ولد عام ١٩٣٧م وحصل العلم فى كلية الدراسات العربية من جامعة الأزهر، وله عدة دواوين من أحقها بالذكر ثمانية دواوين وبالنظر فى عناوينها ندرك أنه شاعر من شعراء الشعر الحديث الذى ينماز بالرمز وإيضاح الحقائق بالخيال، كما له مسرحيتين شعريتين، وحصل الشاعر على جائزة الدولة التشجيعية فى الشعر، وتقلد وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨٤.

وله ديوان تحت عنوان «تأملات فى المدن الحجرية» يتضمن قصيدة طويلة بعنوان «النبوءة مخبوءة فى الدماء» نظمها عام ١٩٧٢م.

أول ما يلحظ أن الشاعر يجنح إلى الرمز والإيماء، ويرفرف فى سماء الخيال ويريد المعنى تحت ستر من الألفاظ، مما يجعل من ينظر فى كلامه على أنه من طيب الكلام لما فيه

من صور بيانية رائعة إلا أنه قلما يصرح بل هو على الدوام يلوح ، وهذا لونٌ من الشعر من النقاد من يقولون عنه إنه الشعر العالى الذى يتيح لمن يتلقنه أن يذهب فى فهمه مذاهب شتى ويؤثرونه على الشعر الصريح الذى معناه فى ظاهر لفظه .

وهذا مذكرنا بالشعر الصوفى فى الفارسية على الأخص الذى يتوخى فيه الشعراء من الصوفية ستر المعانى تحت الألفاظ ورغبتهم أن يكون هذا الشعر من قبيل المضنون به على غير أهله .

وما دام الشىء بالشىء يذكر ، فقد تأثر الشاعر الألمانى جوته بالشاعر الفارسى حافظ الشيرازى ، وأخرج ديوانًا له تحت عنوان «الديوان الشرقى للشاعر الغربى» فأتحف الشعر الألمانى بتلك الرائعة .

إن كلام شاعرنا رقراق الشاعرية ، لماح النورانية ، فيه بعض الغموض الذي يتيح للمتلقى أن يتابع الشاعر فى خطراته وتأملاته ، والتحليق معه فى آفاق قد تتباعد عنه ، كذا تقترب منه . يقول الشاعر :

تنامين بين الرماح . . وتحت السيوف
وقلبك معتقل فى النزيف
تباطأ عنك الأساة
وأسرع فى كل ليل . . إليك الغزاة
تجئ سيوف من الشرق
تسبق فى لحمك المرمرى سيوفا من الغرب
تأكل نارك كل السيوف
ويظهر وجهك خلف رماد الحرائق
ويعبر سيل القرون
فيدهش أعداؤك الحاقدون
يرونك بعد الصواعق أنقى فيأتمرون
يقولون حزنا
ولكنها لم تمت
ومات الطبيب
ومات المغنى الذى كان يكذب كل مساء

ويعلن في كل يوم طقوس
جنازتك المستحيلة
ويطلع حشد من المعجزات
وسيل من الأساطير يبدأ من شعلة فى الرمال
وتقبل عاصفة من جديد
وتجتاحك الخيل من كل فج بعيد
وينتشر اللاجئون
خياما خياما، وتقبل طفلة
تشير إلى أمها فى الإماء

والذى يتراءى أن الشاعر إنما يقصد إلى فلسطين فى عموم وإلى القدس فى خصوص إلا أن العموم طغى على هذا الخصوص وهذا ما يصح فى الفهم ويستقيم فى العقل.

كأنما الشاعر يريد ليؤرخ للقدس لأنه يشير إلى من أغاروا عليها من الشرق من أمثال ملوك بابل من الشرق وقياصرة الرومان من الشمال كذا الصليبيون والعثمانيون، كما قدمها غيرهم من المسلمين غزاة فاتحين، وإنه يختلف ما فى ذلك ريب عن كل من نظرنا فى شعرهم من قبل فالحقائق التى أوردوها فى أشعارهم تتكرر وتدور فى نطاق واحد لا يكاد يتجاوزه شاعر لأنهم لم يجنحوا إلى التمثيل والتخييل كصنيع شاعرنا، ولكننا نقف من بعد على طائفة من أبيات هذه القصيدة يقول فيها :

وأعداؤنا يملأون المدن
وأعداؤنا يرصدون النجوم التى
تتزاحم فوق البلاد
وأعداؤنا يكرهون
الطفولة
والحب
يقيمون فى القدس عيد الكراهية
المستمر
وهم يحرثون الجبال
ويلقون بذر الخرافة

وأنت التى تزرعين ورودك
فى العاصفة
وأنت التى تنجبين الصغار
لهذى المجاعات والحزن
يشبون رهن الفداء

فالشاعر يقول إن الصهاينة أعداءنا يقيمون فى القدس عيد الكراهية، فهو يصرح ويوضح، كما يقول عن الصهاينة إنهم يحرثون الجبال، والجبال لا تحرث، كما أنهم يذهبون فى خرافتهم مذاهب شتى زاعمين أن القدس لهم وحدهم، وجميل منه أن يقول إنها تزرع ورودها فى العاصفة، وبذا تكون القدس على الحق المبين، والواقع الذى لا يخالجه ريب، وهى تزرع وردها فى العاصفة، ولا تلقى بالا إلى تلك العاصفة، كما يشير إلى تربيبها أهل فلسطين من الصغار وهم يريدون استنقاذها من الصهاينة، فتأصل الفداء فى نفوسهم مما جعلهم يدفعون عادية الصهاينة بسلاح جد ضعيف هو الحجارة، مما ينهض دليلاً على عراقة الفدائية فيهم، فالمأمول عندهم أن ينصرهم الله نصراً مبينًا وأن يستردوا القدس عاصمتهم فى مقبل الأيام.

هذا ما وسعنى أن أستخلصه من تلك الرائعة، فبلغت بعض ما تأتى لى أن أتفهمه منها.

وللشاعر قصيدة أخرى تحت عنوان «فى وجه غربان ا لحدود» وهذه القصيدة تنقسم أربعة أقسام قالها حين نشبت الحرب بين مصر واليهود، ونقتطف أبياتًا من القسم الأول منها تمهيداً لقسم آخر فهو القائل:

كان الغزاة من اليهود
باقين كالغربان فى الأفق البعيد
باقين كالنصب الكئيبة كالهوان
كان الهواء يضج من نفس الغزاة
كانوا هناك ومصر تنتظر اللقاء
البرق يشرق فى عيون رجالنا
فى أعين الجند الغضاب
كان العقاب
متوثب القدمين والكفين مرفوع اللواء

كانوا هناك وجندنا
يحشون من نار القلوب
أحشاء مدفعهم فيا يوم اللقاء
متى تهب الشهيد حياته؟
والأرض صاحبها والغازى الهوان

هذه الأبيات لا ذكر فيها للقدس، ولكن الشاعر مع ذلك لم يبت الصلة بينها وبين القدس فى القسم الثالث منها، ويعجبنى وصفه لجند مصر وهم يحشون مدفعهم بنار قلوبهم، ولنا بعد ذلك أن ننظر فيما ذكره عن القدس:

القدس تجلس والدماء
فوق الثياب وفوق أطواق الحمام
وتظل تقرأ فى كتاب
الله فى القرآن والإنجيل والتوراة يشهد
إن غربان الحدود من اليهود
صلبوا على الأرض السلام

إن الشاعر يُحسن أيما إحسان وهو يتمثل القدس جالسة وقد تلطخت ثيابها بالدماء، كما أن الحمام وهو رمز للسلام طوقت أعناقه بحمرة الدماء، وجعلها تقرأ فى الكتب السماوية ثم قال فى البيت الأخير من هذه المجموعة إن غربان اليهود صلبوا السلام مشيراً إلى ما يعتقده المسيحيون من أن اليهود صلبوا السيد المسيح عليه السلام، وفى هذه الأبيات يفصح الشاعر عن مراده، ويقرر الحقيقة واضحة سافرة، ما إن يواريها. إنه بعد ما أطال التقديم لوصف الحرب بين المصريين واليهود، لم تصرفه الصوارف عن ذكر القدس، فاختصها بأبيات رقاق، ألمح فيها إلى قدسيتها، وما أصبغه عليها الدين من نورانية عند أهل الكتاب.

والحاصل أنه خرج على مألوف الشعراء قبله بجديد، و فى هذه الأبيات بالذات قال كلامًا غير مرموز إليه وبذلك تكامل ما قال فى القصيدة الأولى مع ما قال فى القصيدة الأخرى.

وهذا ديوان من شعر العامية المصرية بعنوان «فلسطين فى القلب» للشاعر عمر الصاوى ويقول فى مقدمة الكتاب ما نصه (تعجلت النشر لأن حاجة هذه القصائد إلى مستحقيها، وحاجة هؤلاء المستحقين إليها، هى فى ظنى - وربما فى وهمى - حاجة شديدة الإلحاح والحرج فى ضوء بشاعة ما يحدث ليس فقط فى ساحة أرضنا الفلسطينية المحتلة، بل - الأخطر - فى ساحة إرادتنا العربية المحتلة!!

وما أعاد الشعر إلى إلا إجرام المجرمين الذين نكأوا الجرح فأيقظوا الغناء!!)[1].

أما ما يستأثر باهتمامنا فى هذا الديوان فهو ما قيل فى القدس، يقول الشاعر تحت عنوان «ألفين سلام»:

تسلم يا طير القدس
تسلم يا جيل العمل
فاكرينكو جيل اليأس
لقيناكو جيل الأمل
اللى اعتلى ع الجبل
وبيضرب بالحجارة
بعزيمة وبجسارة
جيوش من الوحوش
كانوا ما بيختشوش
دلوقت بيختشوا
عاملين متاريس تحوش
واقفين.. بيفتشوا
ع النبله والحجر
علشان ما ينْفدوش
لكن.. بينفدوا
كانوا فاكرين خلاص
أولادنا اتهوِّدوا
لكن.. ما اتهودوش

(١) عمر الصاوى: فلسطين فى القلب ص ٣، ٤ القاهرة ٢٠٠١م.

بيقولوا للسلام
عليك ألفين سلام
الحق فوق القوة
مش بس حقه هوّه
يا إمّا مافيش كلام
تسلم ياطير القد س

إن الشاعر فى هذه القصيدة يبدو متحمسًا إلى أبعد مدى للنظم فى قضية فلسطين، ولا غرو فمن عنوان ديوانه ما يستدل على الباعث الذى بعثه على ما قال من شعر، إنه يشير إلى القدس فى مستهل قصيدته مشيراً إلى من يجاهدون فى سبيل استرداد القدس والخروج جهاداً لذلك، إنه جعل من مدينة القدس مجرد عنوان وانسحب كلامه بعد ذلك على مأساة فلسطين على أن القدس وفلسطين كلٌ لا يتجزأ، وجعل يستنفر عرب فلسطين للقتال والنضال حتى يسترد ما سُلب من أرضهم وعاصمتها قُدسهم. إنه يعرض لوصف من يقاتلون بسلاح ضعيف، من هم أشد منهم قوة بسلاح عنيف ويحييهم يتنبأ لهم بالنصر فى النهاية ويبين أن المعتدين الظالمين بدأوا يحملون انتفاضة الفلسطينيين على محمل الجد، فشمروا عن ساعد الجد لمجابهتهم، ثم يبين أن أهل فلسطين على الحق المبين وأن الحق فوق القوة.

وفى قصيدة تحت عنوان «فلسطين فى القلب» يقول:

كل المساجد كريمة، والمساجد أكم
لو هى زاوية فى قرية، ولا هى الحرم
هى بيوت الله كرامتها من إسمه
من أى طوبة حزينه يجينا نفس الألم
والقدس ما هُوْ حجر وبلاط يتقدس
لو حتى مسجد ودخله كلب، واتدنس
كان يكفى فيه اغتسال وركعتين لله
لكن ده لحم ودم، وكُره متأسس
فى قلوب خلقها الله من خلقة الشياطين
بيقولوا إحنا النار، وانتو مجرد طين

فى هذه الطائفة من الأبيات يومئ الشاعر إلى ما كان من انتهاك الصهاينة لحرمة المسجد الأقصى ويذكر بأن تقديس المسجد من الحتم على كل إنسان كائنًا من كان وكلامه ينسحب على المدينة وعلى مسجدها لأنه يعلم نبأ دخول الصهاينة المسجد الأقصى ويعزو ذلك إلى أن الصهاينة إنما فعلوا هذا نكاية للمسلمين وتنفيسًا عن حقدهم عليهم وهذا هو التعبير الحق عما تموج به قلوبهم من حقد وضغينة على المسلمين، إنه يستنكر ذلك ويستعيذ بالله منه، ويجذم بأن هذه الفعلة الشنعاء، إنما كانت من قوم يتوهمون أنهم خلقوا من نار وخلق المسلمون من طين وذلك ما كان من قول إبليس إلى أن يقول :

قالوا ما نبغى فرقعة ولا ضرب
كفوا البنادق والبارود ينكب
ما لنا ومال بلا قدس بلا غيره
إيش فيك ياولدى
بلاها سيرة الحرب

إنه يرشد إلى ما بيت عليه أعوان الصهاينة عزمهم وهو قبول الأمر الواقع، إنهم لا يريدون من أهل فلسطين أن ينافحوا ويكافحوا ليستردوا حقهم وقدسهم، وأن يثنوهم عن الحرب، وهذا منهم خيال محال.

وللشاعر التونسى الشاذلى زوكار[1] ديوان من الشعر تحت عنوان «للعشق. . . للوطن» قصيدة تحت عنوان «صوت فلسطين» يقول فيها :

لقد هب صوت حزين ينادى ... فشقّ صدورا وأدمى فؤادى
نداء حرّي بأن يستجاب ... غدا داويا باعتساف الأعادى
فيا أمة العرب كونوا رجالا ... وهبوا فقد آن وقت الجهاد
وكونوا غزاة بنفس ومال ... لنجدة قطر عزيز ينادى
بلاد العروبة قدس شريف ... يعانى حروبًا وبأس الشداد

إنه يدعو إلى الجهاد فى عموم وشمول وهتافه يتجه به إلى العربى قاطبة، إنه يتجه إلى مواطن النخوة و الحمية فيهم ويكره لهم أن يذلوا بعد عزهم وأن العدو يعصف بهم والذى يلحظ فى كلامه أن بلاد العروبة على اتساع آفاقها إنما هى القدس الشريف فى محنته أو إنه

(١) ديوانه ص ١٢٧ . تونس ٢٠٠٠م.

يريد أن يذكرهم بالقدس والاحتمال قائم، وأيا ما كان فقد اتجه بفكره إلى القدس بعد أن عمم فى كلامه بنداء العرب، ثم يتابع قوله مذكراً بأن اليهود يعيثون فى فلسطين و قدسها مفسدين، ثم يمس من العرب موضع الكرامة والشمم فى نفوسهم، ويكره لهم أن يذلوا بعد عزهم.

وهذا يشبه ما قال شعراء العرب جميعًا فى هذا المعنى، و شعره فى وزن يثير الحماسة لأنه فى بحر المتقارب وقد أحسن اختيار هذا البحر لأن فيه حركة وهزة تدفع إلى الإقدام والإقحام، وكلامه خلو من البديع وكأنه بذلك يريد ليشير إلى حقيقة الحقائق.

ومن شعراء تونس المشاهير عبد الستار الهانى وله قصيدة عصماء ألقاها فى مؤتمر الطائف من أجل القدس فيستهلها بقوله:

الله أكبر هذا اليوم مشهـــود وذكره فى دنا الإسلام محمود

ليحفظوا حرمات القدس سالمة فلا احتلال ولا مسخ وتهويد

ثم ينتقل إلى الإيماء إلى أن العرب عقدوا هذا اللقاء معبرين عن وحدتهم وثبات وقفتهم إزاء احتلال القدس ويصرح بذلك قائلاً:

يا محنة القدس قد أحييت وحدتنا وقد جمعت ووهم الخصم تشريد

كانت مُناهم خروج القدس عن وطن أجزاؤه ضمـــها حب وتوحيد

لكن نسوا أن هذا الركن سفههـــم منذ القـــديم وكيد الكفر مردود

جحافل قد أقامت فى حمى قدسى وغادرتهـــا وحُلم النصر موؤود

ومـــا تزال بطاح القـــدس راويـــة حـــديث غـــاز تولى وهو منكود

وفى هذه الطائفة من الأبيات يشيد بوحدة العرب وهى متماسكة لا انفصام بين عراها ويشير إلى أن محنة القدس هى التى جمعت العرب على كلمة واحدة وصنيع واحد وسددت خطاهم على طريق يسلكونه إلى غاية. ويلتفت إلى العدو الغاصب الذى أراد للقدس أن يتخرج من نطاق العروبة والإسلام وهذا من الأعداءوهم وغباء. ثم يلتفت إلى القدس وهى فى حوزة الصهاينة ويتفجع على ذلك ضمنًا، إلا أنه من بعد ينتفض قائلاً إن هذا لا يكون أبدًا فما للعرب جبان ينكص على عقبيه بل إن العربى محارب، لا يهرب منه هارب، ولا يغلبه غالب، ولسوف ينصره الله على القوم الظالمين ثم يتحدث عن أمريكا ويؤكد أنها تتحيز للصهاينة وتساندهم وتعاضدهم، ومع كل هذا يقول إن يوم النصر

قريب وكلامه متسق آخذ بعضه برقاب بعض يكشف عن الحق ولا يجنح إلى الخيال البعيد الذى يطمث الحقيقة.

وهذا شاعر آخر من تونس هو نور الدين صمود درس فى جامعة القاهرة ولبنان ونال عدة جوائز من الجامعة اللبنانية ولجنة التنسيق بالقيروان وبلدية تونس وجائزة الدولة التشجيعية عن ديوان «رحلة فى العبير» وجائزة الإذاعة والتلفزة التونسية و هذا كله يشهد له برفعة المنزلة وعلو شأنه فى الأدب وله ديوان تحت عنوان «صمود أغنيات عربية»[١] فيه قصيدتان الأولى تحت عنوان «نداء الوفاق» وفيها يشير إلى الوحدة العربية وبذلك يردد ما قال عبد الستار الهانى الشاعر التونسى فالشاعران بذلك يعدوان فى عنان واحد. ومعلومٌ أنهما جميعًا يعبران عن موقف العرب فى فلسطين وقدسها. فهما متكاتفان متساندان يسيران فى طريق واحدة تفضى بهما إلى غاية واحدة. والقصيدة الثانية بعنوان «الحرب مع الأعداء» ويقول فى أول قصيدته إن إسرائيل ليست دولة بل قاعدة حربية صهيونية أمريكية تبدو فى دنيا العرب أصغر من قطعة شطرنج إلى أن يقول :

وظللنا ننتظر الحرب
حتى صار الجندى الإسرائيلى
يؤمن أن الحرب حياة أو موت
البحر وراءه
والأعداء أمامه
إما النصر وإما القبر
لكن الجندي العربى
كان يرى الحرب حياة أولاً
إما النصر وإما أن يصبح لاجئ
فى إحدى دول العرب الكبرى
فالموت نصيب الأعداء
والنصر لنا، والنصر لنا
فالأعداء أمامه
والأرض وراءه
أرض العرب الشاسعة الكبرى

وسينتصر الجيش العربى
لما يؤمن أن الحرب حياة أو موت
إما النصر وإما القبر

إنه يؤرخ لوضع إسرائيل حيال العرب، ويندد بإسرائيل ويصفها بما يجرى عليها من صفات ثم يتحدث عن الحرب فى مفهوم العرب بالذات. إنه لم يذكر القدس إلا أن ذكرها مفهوم ضمنًا ولقد أشرنا غير مرة إلى أن فلسطين إذا ذكرت بدر إلى الفهم كل ما يتعلق بالقدس فى يومنا الحاضر مما يجعل ذكرها أشبه شىء بتحصيل الحاصل.

ومن شعراء ليبيا الذين اتسعت لهم الشهرة بإبداعهم، الدكتور محمد حامد الحضيرى، الذى أخذته أريحية الخير، فأخرج ديوانًا فى مجلدين كبيرين تحت عنوان «الأعمال الشعرية الكاملة، الحضيريات»[(١)] ذكر فيهما القدس وهو من مواليد سبها الجديد بالجماهيرية العربية الليبية، حصل على درجتى الماجستير والدكتوراه فى الأدب والنقد الحديث من كلية الآداب جامعة القاهرة اشتغل بالتدريس فى جامعات ليبيا منذ عام ١٩٧٠م، ثم ترقى إلى أن أصبح أستاذًا مشاركا بكلية الآداب جامعة قار يونس عام ١٩٨٦م، له مؤلفات عدة فى الأدب والنقد ودواوين شعر مطبوعة وأخرى تحت الطبع.

وها نحن أولاء ننظر فى ديوانه الكبير متتبعين ما قال فى القدس ومن قصيدة له تحت عنوان «هاتف من القدس إلى العرب والمسلمين والمسيحيين»:

وثار الشعب منتفضًا ... يصد عدى وعدوانا
شباب بانتفاضته ... يرد الثأر غضبانًا
يواجه قمع أوغاد ... لترميه وما لانا
فإنا أمة شمختْ ... وأحفاد لآبانا
وشارون عدو اللـ ... ـه، داس القدس غلطانا
وكل شعوبنا لبّتْ ... نداء القدس عجلانا
وأولى القبلتين لنا ... وفى القرآن مسرانا
وصلى فيه قائدنا ... ومن بالآى ربانا
نرد الثأر عمن دا ... س مسجدنا وأدمانا

---

(١) الحضيريات ص ٢٤٦، ج ١ (القاهرة ٢٠٠١م).

والشاعر هنا يومئ إلى انتفاضة شعب فلسطين بعد ما كان من اقتحام شارون للمسجد الأقصى، إنه يذكرنا بحقيقة تاريخية لا نسيان لها على امتداد الأيام، ويسرد الخبر فى ذلك ومًا كان من موقف شباب فلسطين مما لحق بالمسجد الأقصى من انتهاك لحرمته وتدنيس قدسيته. إنه يقف من ذلك موقف المؤرخ الذى يرتب خبرًا على خبر فى تسلسل متسق تتلاحق فيه الحقائق فى منطق سليم وملحوظ إنه لم يحاول البلاغة، بل كان حسبه أن يسرد الوقائع وهى فى غنية عن إفراغ الصناعة والخيال عليها.

ثم يدعو إلى الأخذ بالثأر ودعوته إلى العرب فى عموم وشمول.

إن الشاعر يمضى فى السرد التاريخى فى قصيدة له تحت عنوان «لنا غدٌ والقدس يجمعنا»:

إن كان أمس لهم واليوم قد عبثوا ... بقدسنا، ورموا شعبًا بنيران
فالنصر وعدٌ لنا من ربنا فى غد ... لأننا قد توكلنا على الفانى
وشعبنا فى ديار العرب قاطبةً ... لم يحن هاما ولم يرضخ لطغيان
نادى إلى الثأر مشدودًا بأمته ... إلى الجهاد بإقدام وإيمان
من أجل تطهير قدس العرب من دنس ... إما لتحيا أو استشهادِ ربانى

الشاعر يبدو هادئ النفس، يتدبر ويتفكر ويربط النتيجة بمقدمتها، ولا يأخذه الغضب الذى يخرجه عن تعقله، ولا يقول إلا حقًا وصدقًا، فما حام فى آفاق الخيال، ولا طوف بما لا يستقيم فى العقل إنه متفائل يوقن فى جزم ويقين أن الله لا يضيع المسلمين ولا يخذلهم ويستشرف لهم غدًا فيه نصرٌ قريب.

وله تحت عنوان «الجهاد لتحرير القدس الشريف» يقول:

كفى ياإخوتى صمتًا ... على ما صم آذانا
تعالوا واجمعوا شملاً ... لنمحو العار أضنانا
بصمصام شديد الحـ ... ـد، نردع من تحدانا
فهيا كى نرد الثأ ... ر، ممن داس أقصانا
وإما النصر فى الساحا ... ت، أو موتٌ لنا حانا
نلاقى ربنا شهدا ... ء، إخلاصا وإيمانا

وعنوان هذه الطائفة يبين فحواها، إنه يهتف بالعرب أن هبوا وخوضوا غمار الهيجاء لتردوا عادية من لم يرعوا حرمةً للمسجد الأقصى فآذو أهل لا إله إلا الله فى قلوبهم المؤمنة، ولكنه مع ذلك من كلامه لا يبلغ مبلغ غيره من الشعراء الذين قالوا فى هذا المعنى فى حماستهم الدافقة وغضبتهم التى زلزلتهم زلزالا . فالشاعر متزن التفكير، لا يميل إلى تزيين كلامه وإثقاله بالصناعة، ويقول ما يقول عفو الخاطر وكلامه صوت العقل، لا يبدل من حقائقه غلو فيما يناقض الحق ويعانده .

أما فى المجلد الثانى من هذا الديوان قصيدة طويلة تقع فى مائة وسبعةعشر بيتًا وهى تعد جماع قضية فلسطين وكأنما حرص الشاعر على أن يتنسم الأخبار فى كل يوم ليضيف منها جديدًا إلى قصيدته العصماء، لقد تحدث عن موقف أمريكا المتحيز للصهاينة وعاب منها ذلك، كما عاب من المسلمين فى أرجاء المعمورة ألا يتحدوا فى وحدة تقف فى وجه الصهاينة، لقد أشار إلى استيطان الصهاينة وهدمهم لبيوت العرب ومذابحهم وقبائحهم . إنه لم يبق ولم يذر وهى تحت عنوان «الشعر فى معركة الحرية، تحرير القدس» ويعنينا منها الأبيات التى يقول فيها :

أيا مسجدنا الأقصى ويا مسكًا وريحانا
ويامن قد فتحت البا ب، للأديان ميدانا
نعاهد أن نعيد إليـ ك مجدًا ديس عدوانا
ولا نرضى سلام القيـ ـد، يخدشنا وينعانا
ويفضح شعبنا المغوا ر، من لم يرض إذعانا
ولا يقبل غير القد س، عاصمةً وإيوانا
ولن يترك شبرًا من أراضيه لأعدانا
فهيا بإصلاح الديـ ـن إن الوقت قد حانا
نرد السلب والمسلو ب، والقدس وجولانا
ومن فى القدس مضطهد وأضحى القدس إسكانا
ومن بثوا دسائسهم بساح القدس أعوانا

إن الشاعر يتحدث بلسان التاريخ المُنزه عما يتجافى عن الحق الصراح وهذه القصيدة تعد بحق صفحة فى تاريخ فلسطين تستوعب كل حقيقة و تشرح حذافيرها، إنه يدعو إلى الجهاد فى سبيل الله والوطن، ويناشد العرب والمسلمين من قاصية الغرب إلى قاصية

الشرق أن يكونوا مدداً لأهل فلسطين فى جهادهم لعدوهم، ويستجيب لذلك فى نداء إيمانهم.

وله فى الجزء الثانى من ديوانه قصيدة أخرى طويلة تحت عنوان «الشعر فى معركة الحرية. ما أخذ بالسيف والبندقية لا يسترد إلا بالصاروخ والمدفعية». ومن طول العنوان يستفاد أن الشاعر إنما يجنح إلى التفصيل والاستشهاد للتدليل والشرح والإيضاح، وهو يقف موقف المؤرخ الثبت المحقق من قضية فلسطين.

ألم يعلم بأعدائي ... تهوّد قدسنا الآنا؟
بالاستيطان والتهديـ ... ـد، والتشريد أحيانا
وجرم أن تبيح الذبـ ... ـح، كى تقمع غضبانا
لذا قد أفرغت قدسى ... وأضحى الهود سكانا
ورب الدار لم يحمل ... هويات، وعنوانا
له حق كإنسان ... ولكن فى «خبر كانا»
يُشرد دونما مأوى ... يُقاسى العبد هجرانا
أيقتل شعبنا ظلمًا ... ولم نثأر لقتلانا
وقد ذبحوا وبالآلا ... ف، فى «قان»ا و«لبنانا»؟
وأهلى فى فلسطين ... أذيقوا الذل ألوانا

أهم ما ينبغى التنبيه إليه فى هذه الطائفة من الأبيات، أنه يشمل بكلامه العرب قاطبة معلنًا بذلك عن الوحدة الإسلامية التى ينبغى أن تبدو مظاهرها واضحة جلية وذلك كيما يُحرك فى المسلمين ا لحماسة والحمية ويهيب بهم أن يثأروا من ظالميهم وسالبى قدسهم منهم، إنه فى استفهامه الإنكارى يعيب ويكره من المسلمين فى آفاق الأرض أن لا يحركوا ساكنًا لرد سهم عدوهم فى نحره وأن يستنقذوا منه قدسهم أو قبلتهم الأولى. إنه يتميز غيظًا ويأخذه كل الغضب حين يشير إلى تهويد القدس، ويعلن عن ذلك على رءوس الأشهاد. ويستطرد ليدخل فى متاهات السياسة ويشير إلى الأمريكيين الذين يتحيزون للصهاينة. ويندد بأمريكا بكل ما فى جعبته من حقائق عن موقفها. ويلتفت ثانية إلى القدس فيعدها ميدان النزاع والصراع حتى وهو يتحدث عن الأمريكيين فلا يملك أن يغفل ذكر القدس.

كما فضح السياسة الأمريكية التى تذر الرماد فى العيون وتدعى أنها داعية السلام، وفى معرض كلامه هذا عن السياسة يلتفت إلى المسجد الأقصى، ولا يملك أن يغفل عن ذكره طرفة عين وبعد أن يشير إلى القدس ثانية يقول :

متى يا أمتى نلبـــــس، للهيجاء أكفانا
فإما أن نعيد الأر ض، أو موتًا لنا حانا
نلاقى ربنا شهدا فدانا كان برهانا
وندعو أن يسير على خطانا كل أحيانا
نناشدهم يلبون الـ ـفدا شيبًا وشبانا
أيا حكام أين الشهـ ـم معتصم ليرعانا؟
يجيب البنت قد صاحت من القدس ولبنانا؟
أهينت بعد إذلال فتبا للذى لانا؟
من الحكام ما لبوّا صراخًا هز دنيانا؟

إنه فى الأبيات الأواخر من هذه القصيدة العصماء يهتف بأمة محمد أن تلبى نداء الجهاد ويكرر ذكر المدن الإسلامية للتحديد والتوحيد.

إن الدكتور محمد حامد الحضيرى يضمن هاتين القصيدتين له أو يكاد العناصر بعينها وإن كان فى قصيدته الثانية أميل إلى الشمولية فى نظرته إلى القضية الفلسطينية لأنه فى كلامه عن القدس و المسجد الأقصى يمضى فى خطين متوازيين كأنما يُريد أن ينطق عن نفسه ويعلن عن موقفه بقصيدتين اثنتين ليضمنهما معًا ما يطلب من تأييد وتوكيد ويرفع بهما صوتًا جهوريا تتردد له الأصداء من العالم العربى فى جميع الأرجاء.

الفصل الثانى

القدس فى الشعر الفارسى

فى مستهل هذا الفصل يتحتم علىّ أن أقول، إنى كتبت إلى بعض تلاميذى وغيرهم فى إيران أن يوافونى بكتب أو صحف تضمنت شعراً فارسيًا حديثًا لشعراء من إيران، ولكنى تعلقت منهم بأوهام بيت العنكبوت وما ارتويت منهم ولا بقطرة من سراب فتصبرت طويلا وإن أغضيت على القذى، ولكنى من بعد عزمت عزم اليقين على أن أنظم شعراً بالفارسية فى القدس، وما كان النظم بالفارسية على بجديد، فلقد نظمت كثيراً فى الفارسية خلال أعوام طوال و ضمنت قدراً من الأشعار فى ديوان لى نشر فى مدينة لاهور بباكستان[١] .

وهنا ملحظ لا بد من الالتفات إليه وهو حد الشاعر فالشاعر أيًا كان لا يتقيد باتساع الشهرة ولا كل الإجادة، بل حسبه أن يكون شاعراً صاحب ديوان وإن كان شعره بين بين والحق أقول إن شعرى الفارسى كان له صدى فى نفوس الأدباء والصحفيين فى إيران فنشروا قدراً منه فى الصحف، كما أن فى ديوانى هذا قصيدة ملحمية بعنوان صبح وصفت فيها ما كان من قطيعة بين مصر وإيران دامت عشر سنين فى عهد الرئيس عبد الناصر ثم تم الصلح بين الدولتين فى عهد الرئيس السادات وكانت هذه الملحمة تمهيداً لهذا الصلح فما تجافيت عن الحق إذا أعددت نفسى شاعراً فى الفارسية .

وهنا نذكر موقف إيران فى يومنا الحاضر من قضية فلسطين وقدسها. إن الجمهورية الإسلامية الإيرانية ترى أن سياسة الكيان الصهيونى توسعية، ولذا فإن إيران تساند التضامن الإسلامى لمواجهة التهديد الصهيونى. إنها ترفع علم جبهة تحرير القدس الشريف والدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني، وترحب بكل خطوة فى سببيل تحقيق هذه الغاية . وفى رأى الجمهورية الإسلامية الإيرانية أن الوجود الصهيونى لا يغير الطبيعة الوحشية العدوانية التى تغتصب القدس. كما تدعو الأمة الإسلامية أن تبذل الوسع لردع الصهاينة عن سياستهم وذلك بأن يتكاتف المسلمون ويتخذوا موقفا موحداً تجاهه وذلك إحقاقًا

---

(١) ديوان «صبحً لاهور ١٩٧٧ .

لحقوق الشعب الفلسطينى وتحرير جميع الأراضى المحتلة، والجمهورية الإسلامية تدعو كل البلدان الإسلامية والعربية إلى بذل كل مسعى وتوظيف كل إمكاناتها لتحرير قبلة المسلمين الأولى وتحرير أرض فلسطين فى ظل التضامن الإسلامى[١] .

١ - ملحمة القدس

صُل وجُل بالسيف يا هذا الأسد ... إن ذئب السوء طاف بالعرين
امح عنك الخزى أو عار الأبد ... واستعن بالله فالله المعين
كم رووا للذئب وصفًا فى المثل ... واشتكى الراعى على مر السنين[٢]
يحسبون الغيم قطعانًا لهم ... فيمدون إلى الغيم اليمين
طبع ذئبٍ من قديم ما لهم ... إن ما يمليه طبع يفعلون
يحسبون الشمس دينارًا بدا ... ليكون رشوةً للمرتشين
واللجين[٣] كان فى بدر السما ... عملة كم زيفوا للمشترين
إن نسيت أو تناسيت فسل ... من رأوا ويلاً لظلم الظالمين
طامعون ما انتهت أطماعهم ... ذاك معلومٌ لكل العالمين
طبعهم هذا وذاك شأنهم ... وهو مشهور لدينا أجمعين
كل بحر جعلوه بحرهم ... ليته جف وعن در ثمين!
يجعلون النبع بركان الحمم ... لتصب فى رؤوس الآمنين[٤]
من سراب يطلبون ماءهم ... والسراب كان بالماء الضنين
إن خلا من نوره مصباحهم ... طلبوه وهو نور للعيون
كل عنف ماج فى أخبارهم ... إنهم بالشر كانوا مولعين
سلبونا مسجدًا ملكًا لنا ... ليسيئوا جهدهم للمسلمين
بنعال دنسوا أرضا به ... لطخوها كلها لكن بطين
خطوة من قبل قد عزت بها ... لرسول سيد للمرسلين
إنها كانت كمسك لا ثرى ... ولها ريح كريح الياسمين
لوددت قبل موتى ... بثراه اليوم تعفير الجبين

---

(١) هيئة الشئون الثقافية للإيرانيين في الخارج، إيران على أعتاب العام ٢٠٠٠ ص ٩٦ (طهران).

(٢) فى المثل العربى «أظلم من ذئب» . ٣ - اللجين : الفضة ٤ - «فى» بمعنى «على» .

وبأهدابى أقُمّ[1] أرضه … بعد أن مر بها خطو اللعين
ليلة الإسراء منه قد علا … ليعود حاملاً أحكام دين
أخرسوا صوتًا ينادى من علٍ … كل فجر لصلاة المؤمنين
بعد هذا أى ظلم يا ترى … أخرس الله لسان الناطقين
قبةٌ قالوا فهذى كأسنا … أفعموها لذة للشاربين[2]
نشوةٌ فيما أضاعوا عقلهم … قولهم أو[3] فعلهم للمنتشين
صخرة مروا بها فى ليلهم … عندها قالوا لقاء العاشقين
ربوةٌ هم أقاموا فوقها … ملعبًا فيه صغار اللاعبين
كم رجال ونساء قتلوهم … إنهم لم يرحموا حتى الجنين[4]
كم ديار إنهمّ قد حرّقوها … هدموها فوق رأس الساكنين
كم زروع فى طريق قلعوها … ليسيروا فى طريق مسرعين
من أذاهم إنهم لم يفلتوهم[5] … والعذاب أنزلوه بالسجين
وتناسوا فى دهاء قدسنا … كذبونا جعلونا المدعين
ثم قالوا إنها كانت لنا … منذ حين منذ حين منذ حين
إنما الباطل هذا قولهم … وبه الحق لنا هم يدحضون
اسألوا التاريخ يامن كذبوا … ثم ردوا لا تكونوا كاذبين
يا لها شمسًا وتبدو فى الضحى … شمعةٌ أنتم لها من تطفئون
لملوك وملوك سُلمت … وذللتم دائمًا للفاتحين
طردوكم قتلوكم حقروكم … وبأقصى الأرض كنتم هائمين
ومتى أنتم دخلتم ياترى … لتقولوا لسنا منهم خارجين
أى صوت كان فيها لآذان … أين للناقوس ذياك الرنين
إسألوا ما قال عنها المصطفى … ما يقول المصطفى عين اليقين
إن إحرامًا لديها مستحبٌ … يغفر الله لكل المحرمين
حيثما كان صلاة واحدة … إنها كانت تعد بالمئين[6]

---

(١) يقُم : يكنس (٢) لذة للشاربين : أي الخمر (٣) أو : هنا بمعنى «و»
(٤) إذا قتلوا ذات حملٍ فقد قتلوا الجنين فى بطنها (٥) يفتلونهم : يدعوهم ويتركوهم (٦) مئين : مئات

مــؤمن إمــا أتاه الموت فــيــهــا ... فى ســمــاء مــوته كــالخــالدين
فى حنين جنة الخلد إليــهــا ... يا لعــمــرى إنه نعم الحنين
مــسلم يشــتــاق دفنًا فى ثراها ... فــى ثــراهــا إنــه نــعــم الــدفــين
كل هـذا كــان من قــول النبى ... أصــدقــونا، إن هذا تدركــون
مــثل ذاك فى عناد من جــحــدتم ... دونكــم إنــا عــلــى الحــق المبــين
كــل شىء قلتــمــو هـذا لنا ... مــا أردتم إنكــم لا تهــتــدون
إنكــم فى كل يوم إن حــفــرتم ... مــا وجــدتم غــيــر وهم الواهمين
لا وكــلا مــا إلى هذا قــصــدتم ... إنما الأقــصــى أردتم تهــدمــون
إنهــا الأحــلام قــد حــامت عليكم ... فلتــفــيــقــوا شــأن كل الحــالمين
أذكــرتم مــا صنعــتم بالنبى ... أنســيــتم قــتلكم للمــرسلين!؟
إن هذا الدهر حــالٌ بعــد حــال ... مــا المصــيــر إنكم لا تعلمــون
الزمــان ربمــا أحنى عليكم ... بهــبــاء فى غــد قــد تمسكون
كم رقــاب إنهــا بين يديكم ... كم جــبــال كَم وهاد تملكون
إن أكلتم إنكم لا تشــبــعــون ... إن شــربــتم إنكــم لا ترتوون
ســتــرون فى غــد أمــرًا عظيــمــا ... يا لـه أمــرًا به لا تحــلمــون
أمــحــالٌ تحــســبــوه ممكنًا ... المحــال فى خــيــال لا يكون
ومن الله عليكم نقــمــةٌ ... إن بعــد النصــر حــتــمًا تغلبون
ومن الله علينا نعــمــةٌ ... إنــكــم فــى يــومــكــم مــن تمهــلــون

هذه القصيدة ملحمية تشبه الشعر الفارسى الملحمى، كما تشبه منظومة صبح التى فى ديوانى الفارسى الذى تخيلت فيه ليلاً طويلاً من الصراع والنزاع والشر والشحناء انبزغ بعده فجر من الصلح والصفاء.

والمنظومة تتألف من عدة عناصر فقد دعوت فيها إلى حمل السلاح والكفاح إزاء عدو مريد يدفعه الطمع والجشع إلى الرغبة فى امتلاك ما لا يُحصى كثرة من مغانم يستحيل الحصول عليها إلى ذكر المسجد الأقصى وأذكر ما كان من اقتحام الصهاينة المسجد الأقصى وانتهاكهم حرمته وقدسيته. ثم أنتقل إلى عرض صور شتى لقبائحهم وفظائعهم التى يشيب من هولها الولدان ولا أتجاوز الحقيقة وإن عمدت إلى تأكيدها بالمجاز. ثم تحدثت

عن القدس وادعاء الصهاينة أنها لهم منذ قديم الزمان وأن تحت مسجدها الأقصى هيكل سليمان، ويكفى أن نلتفت إلى ما قال من قبل إقبال عن هيكل سليمان وأن المسلمين هم الذين اكتشفوه وبنوا فى موضعه المسجد الأقصى فلم يعد له من كيان. ثم أستند إلى التاريخ أى تاريخ اليهود وكيف أنهم شردوا فى الأرض وذلوا. وما لبثوا فى القدس إلا زمنًا جد يسير ثم بينت منزلة القدس عند المسلمين وما قال النبى ﷺ فى رفعة مكانتها. وبينت إن هذه القدسية لها تفوق كثيراً قدسيتها عند الصهاينة الذين يقبضون على الريح ويمسكون بالهباء عندما يتحدثون عن منزلتها عندهم لذلك الهيكل الذى لم يبق له من أثر فى جوف الثرى. وكشفت عن خبث نيتهم فقد انعقدت نيتهم على هدم المسجد الأقصى بالحفر تحته بحثًا على لا شىء. ثم جعلت أذكرهم بأنهم قتلة الأنبياء وتلك غاية الغايات فى الكفر الصراح. ثم ذكرتهم بسوء العاقبة وأن الدهر حال بعد حال وأن الله سوف ينزل عليهم نقمته وينزل على المسلمين نعمته وسوف تنكشف الغمة وتعود القدس بكل ما فيها لأصحابها وأن ذلك مقدر بإذن الله وسوف يتحقق فى يوم ما وما كان بعيداً فى ظهر الغيب لا بد مشهود فى عالم الشهادة.

ولى قصيدة أخرى تحت عنوان «عودة القدس» ومن عنوانها يستبين أنها أخص من الأولى أى أن الأولى استوعبت القدس مع قضية فلسطين على نحو مفصل، أما هذه فتتجه إلى لُب الغرض.

لقد بينت كيف أن القدس كانت عزيزة عليه ﷺ أثيرة لديه وكيف شرفت بمقدمه إليها، وأن النبى ﷺ شرف أرضها بخطوه الشريف فإن تحت أرضها نبيون فى أرض طاهرة مباركة بارك النبى ﷺ ظاهرها كما شرف جوفها بمن ثوى فيه من الأنبياء، وتلك غاية الغايات فى الطهر والقدسية لقد أجريت على القدس كل ما تنماز به من صفات وهى صفات لها وحدها تقيم الفارق بينها وبين غيرها وذكرت ما ينبغى للمسلمين حيالها، ألا وهو استردادها ممن انتزعها وما ذاك إلا بعد أن يبذل العربى المجاهد روحه فى مرضاة الله، إن الله سوف يديله من عدوه وينصره عليه والله لن يضيعه ولن يخذله أبدًا ما دام عامر القلب بالإيمان، وسوف تتبدل الحال غير الحال فى عاجل أو آجل وتعود القدس إلى أصحابها بعد أن يأخذ بالأسباب ويدعو الله أن يردها عليه ودعاؤه لاشك مستجاب لقد تهكمت بالصيهونية الغاشم الذى توهم أن لن يقدر عليه أحد وهو جبار فى الأرض يسعى فيها مقسداً، لا يزدجر بعقل ولا خلق ويحسب أن للظالم سوء المغبة وإن طال الأمد.

نبيون يا قدس تحت الثرى ... وتلك الحقيقة كلٌّ درى
بأرضك ها إنهم قد مشوا ... فأرضك مسكًا بدا أذفرا[1]
وما كنت أرضا ولكن سما ... وها قد رفعت لأعلى الذرى[2]
وانك لا تشبهين الحمى[3] ... ولا أنت يا قدس مثل القرى[4]
بأرضك مرّ نبى الهدى ... فهل سؤدد[5] بعد ذا ياترى
تقدست بوركت من خطوة ... إلى الأوج كنت له المعبرا
هجرت وطالت علينا النوى ... وذو وله[6] كيف أن يهجرا
يحن الحنين إلى زورة ... وفى العين يشتاق دمع جرى
وفى قلبه أنت فى صحوةٍ ... وأنت له طيفه فى الكرى
كأنك فى ظلمة زهرةٌ ... وعطرٌ لها فى نسيم سرى
من اليم عودى له درةً ... لتبدو على كفه جوهرا
إلى الفهم عودى له فكرةً ... ففى فكره طالما حيرا
من الله عودى له نعمةً ... وكونى له رحمة قدرا
يراك بعين الفؤاد الشجى ... جمالاً تجلى له منظرا
لماذا احتجبتى وطال المدى ... أهذا العدو بغى وافترى
أعنك يذود وما شأنه ... أيحمل فى كفه الخنجرا
وياليت شعرى فما ظنه ... أنا من أنا للقتال انبرى[7]
سيغفو ويغفو[8] بأوهامه ... وفى عينه واضع عسْيَراً[9]
سيزهر ويزهو[10] بإجرامه ... هو الله قدر أن أثأرا
سيحجم[11] من بعد إقدامه ... سيشرف من خاله الأحقرا
سيطلب ظلاً بأعلامه ... سيكبر من ظنه الأصغرا[12]

---

(١) الأذفر : أجود أنواع المسك. (٢) الذرى : جمع ذروة وهى القمة.
(٣) الحمى : ما حُمى والمراد به هنا المدينة التى تحميها أهلها.
(٤) القرى : وهى جمع قرية والقرية هى كل مكان اتصلت به الأبنية.
(٥) السؤدد : الرفعة وعلو القدر. (٦) الوله : الهُيام (٧) إنبرى : تعرض
(٨) يغفو : ينام (٩) عسيرا : تراب. (١٠) يزهو : يفخر (١١) يحجم : يتراجع
(١٢) أى أنه سيرفع أعلامه ويستظل بظلها بعد أن كان شريداً، لا يجد ما يستظل به.

سيسعد فيها بأيامه — وبعد السراب يرى الكوثرا
إليها بأشواقه عائدٌ — وما كان فى الحلم هذا يرى
وجمعٌ يعود إلى شمله — وقد كان شملٌ له بعثرا
وسيفٌ حسام[1] يصول به — فسيف له قط لن يكسرا
وحالٌ تبدل من حاله — لذلك يعجب مَنْ أخبرا
سيسحب ما كان من قوله — ودرس لمن جار واستهترا[2]
ويحلم يوما بأطلاله — ويسأل ويلاه ماذا عرا[3]
وفى أمسه من بدا هرة — يصول علينا كليث الشرى[4]
وفى رمسه[5] لا يرى مرةً — يحول أرضًا لنا مقبرا[6]
وفى همسه لم يَفُ نبرةً — وفى الغد ليثٌ وقد زمجرا
نعود نعود على رغمه — سيشهد ذلك كل الورى
سيدفن أمسًا وفى يومه — ويعجب للطفل كيف اجترا
سيصحو لتوديع أحلامه — ليشهد فجرا وقد أسفرا[7]
ويطلب عقلاً لأوهامه — وودع أمسًا له أدبرا

إن الكلام عن القدس يدور فى نطاق واحد وهذا مشهود معهود فيما عرضنا من شعر عربى ولكنى شئت أن أتقدم خطوة عن غيرى فى تناول الغرض فبدأت بمنزلة القدس عند النبى ﷺ وتصديت لوصف هذه المنزلة مستندًا إلى خيال يفسر الحقيقة، ولا غرو فإن طول إطلاعى على الشعر الفارسى وما وقعت فيه على خيال يرفرف بالمتلقى إلى أبعد الآفاق جعلنى وذلك خاصة فيما قال شعراء الصوفية من شعر كان له الأثر فى شاعريتى وإن كنت لم أبالغ فى خيال يمحو الحقيقة محوًا بل جعلته مؤيدًا لها.

وهذه قصيدة أخرى لى بعنوان «ابن صهيون»:

---

(١) حسام : قاطع ، حاد.
(٢) الإشارة إلى قول الصهاينة، إنهم لن يخرجوا من القدس.
(٣) عرا : ألَمَّ. (٤) الشرى : اسم مأسدة، أى بقعة يكثر فيها الأسود.
(٥) الرمس : القبر
(٦) المقبر : المقبرة ، موضع القبر.
(٧) أسفر الفجر : أضاء وأشرق.

ابن صهيون تكبر … وتمادى فتبطر[1]
إنه سار الهوينا[2] … مثل طاووس تبختر
اكتسى ريشًا جميلاً … ليت هذا الثوب أحمر[3]
جر فى رجليه نعلاً … م للأنعام أقذر
قال فى القدس أنا منْ؟ … أنا فرعون وقيصر
نفخ الصدر افتخارًا … كاد صدرٌ يتفجر
قال قولاً للسكارى … كل طفل منه يسخر
من ترى هذا السموأل[4] ! … إننى لا ريب أشعر
أنا فى قدسى مليكٌ … وبملكى أنا أفخر
ليس فى ملكى شريكٌ … إن من شارك يقبر
أنا من لست أبالى … بألوفٍ أو بأكثر
أهل دنياى عبيدى … فبِى المال يقدر
إن للمال كنوزًا … من كمثلى المال دبر
كل ذى مال عظيم … وإزائى هو أفقر
من أراد المال منِّى … بالربا أعطيت أكثر
كل من شن حروبًا … فبمالى هو يؤسر
إن لى جيشًا حمانى … يجعل الأفيال كالذر[5]
من هم الأعراب من هم … فإليهم لست أنظر
ان يكن فيهم شريفٌ … من حقير فهو أحقر
إن لى بأسًا شديدًا … يجعل الأخضر أصفر[6]
وبأرض وسماء … لى سلاحٌ ليس يقهر
ذلك الأقصى لدينا … ليس ينسى من تذكر
إنه بين يدينا … إن هذا ليس ينكر
ليس فيه من أذانٍ … لا ولا الناقوس ينقر

(١) تبطر : طغى بالنعمة (٢) سار الهوينا : سار متمهلاً
(٣) أريد لأقول ليته لبس ثوبًا أحمر وهو ثوب من يحكم عليه بالإعدام .
(٤) السموأل : ابن عادياء، شاعر . (٥) الذر : صغار النمل .
(٦) يريد ليقول إنه يشن على العرب حربًا تجعل الأخضر يابسًا .

أين محراب المصلى ... أين آثارٌ لمنبر
ليس فيه من صلاة ... كل من داناه[1] يزجر
إنهم كم قدسوه ... عندنا ما لا يوقر
يا ابن صهيون تيقظ ... يا ابن صهيون تبصر
ليت شعرى كيف تنسى ... أمر مُسْلينى وهتلر
أنت فى الأوهام تغفو[2] ... قم فإن الفجر أسفر[3]
سوف تصحو من منام ... وترى العقل تعثر
أنت يا من أنت فأرٌ ... ما زئير للغضنفر[4]
أنت فأرٌ ليس إلا ... فلماذا تتنمر
تحفر الأرض بناب ... من نيوب[5] الفأر أصغر
كم حفرت منذ دهرٍ ... هيكل ما كان يبصر[6]
رب حصن كان طودًا[7] ... وبزلزال يُدمر
إن بدا فى الأفق بدرٌ ... أفليس يتغير
إن علا فى الجو طيرٌ ... فإلى الأرض تحدر
منك توبٌ[8] ليس يجدى ... لك ذنبٌ ليس يغفر
إن تقدمت كثيرا ... فلسوف تتقهقر
سوف تهوى من غمام ... وتراه اليوم أمطر
حقنا حقٌ مبين ... من شعاع الشمس أظهر
وغدٌ ليس بعيدًا ... فلنقل الله أكبر

لقد اتجهت فى هذه القصيدة بالكلام إلى ابن صهيون ومعلوم من أقصد وبسطت اللسان فيه بالهجاء إلا أنه هجاءٌ خلو من فحش وسب بل تهكم يعرض صورًا من الهزء والسخرية مما يثير الضحك . وفى نظرى أن الهجاء المتهكم الساخر أشد مضاضة وأنكى على المهجو من هجاء لا يعدو أن يكون سبًا وجيعًا ، ذلك أن ألفاظ السب محدودة أما السخرية

(١) داناه : اقترب منه. (٢) يغفو : ينام (٣) أسفر الفجر : أضاء وأشرق.
(٤) الغضنفر : الأسد. (٥) ينوب : جمع ناب مثل أنياب.
(٦) الإشارة إلى أن الصهاينة يحفرون تحت المسجد الأقصى للعثور على هيكل سليمان فما وجدوه.
(٧) الطود : الجبل. (٨) توب : التوبة.

والتهكم فى صور شتى فليس مما تحدده الألفاظ، لقد تهكمت بابن صهيون ولكن فى مناسبة خاصة هى دخوله المسجد الأقصى وما كان من أمره فيه وكلامه عنه، وقد أجريت على لسانه كلامًا تشعبت شجونه فعرضته فى صورة نفاجٍ يتخرق الكذب ويقول الهراء وهذا شر ما ينسب إلى رجل من أهل الحل والعقد وتعاقبت التشبيهات والمقارنات على هذا المهجو فى تمثيل وتخييل.

وهذا المهجو يفصح وهو فى المسجد الأقصى ويدعى أنه لإسرائيل ولن يكون لمن سواها، ولكنى أهيب به أن يرد عقله إلى رأسه وأهتف به أن يهب من الأحلام والأوهام. وأذكره بما غاب عن فكره ألا وهو ما كان من مصير هتلر وموسولينى ليجد فى ذلك عبرة وعظة ليزدجر عن إرتكاب المآثم. ولما كان كلامى منسحبًا على المسجد الأقصى عرجت على ما يقوم به الصهاينة من حفر تحت هذا المسجد بحثًا عن هيكل سليمان وماغايتهم من ذلك إلا أن يهدموا هذا المسجد وهم فى الأرض يحفرون ثم بينت هذا على حقيقته وتهكمت به وهو يحفر كالفأر لا كالأسد فالفأر وإن حفر لن يجد لهيكل سليمان من أثر.

ونصحت له أن يتعقل ويتفكر وينظر أن التغير والتطور يحكم كل شيء من حوله وأبشره بسوء العاقبة وأن ما يصنعه من سوء وما يركبه من شطط وما يقوله من مفتريات وهراء، خطايا لن يحطها الله عنه وكفران سينال عليه جزاء وفاقًا.

إن هذه القصيدة إنما نظمتها فى شأن المسجد الأقصى وما آل إليه من مصير على يدى الصهاينة والكلام عن المسجد الأقصى كلامٌ عن القدس فهما متلازمان وبينهما ندية فى الواقع المشهود والقلب المؤمن والعقل المتفكر.

الفصل الثالث

القدس فى الشعر التركى

قبل أن نخوض فى هذا البحث نجد مسيس الحاجة إلى تمهيد بين يدى بحثنا، نصلح فيه رأيا هو الخطأ كل الخطأ مفاده أن الترك لم يورثوا الإسلام والحضارة عمومًا تراثا أدبيا أيا كان. وهذا هو الخطأ كل الخطأ. كما نريد للقارئ أن يعلم ما لم يك يعلم من الترك فى ماضيهم وحاضرهم يختلفون عن سائر الأمم فى هذا القصور. أما فى العصر الحاضر فالمفهوم العام حتى عند أهل العلم أن الترك لا دينيون ويترتب على ذلك أنهم قوم ليس لهم أدب إسلامى يمكن أن نتدارسه.

أما فى العصر القديم فإن بلاد الأناضول ضمت عديداً من أقوام وحضارات على مر العصور، وهؤلاء الأقوام تركوا آثارهم وتراثهم وجلبوا إليها ما لهم من ثقافات[1] وفيها أخذ الترك بأسباب الحضارة الإسلامية فى شتى أصولها وفروعها، ولما كانت الحضارة أي حضارة كانت إنما تنبثق من الدين والعلم والفن، تجلت مظاهرها فى حياة الترك فى الأناضول، فكان دينهم هو الدين الحنيف وعلومهم هى العلوم الإسلامية جميعها. أما الفن فكان الأدب الذى تلقوه عن الفرس. أما فيما يتعلق بالأدب فمن المعلوم أن الترك دخلوا فى دين الله أفواجا وحسن إسلامهم، وهم فى التركستان وما وراء النهر عايشوا العرب والعجم. وتأثروا بالتراث الإسلامى فى شتى مظاهره، وعارضوا الأدب الفارسى المتأثر بالأدب العربى، فكان هذا تراثًا لهم حملوه معهم من وسط آسيا إلى الأناضول. وكانت الفارسية هى اللغة الرسمية للسلاجقة ولكنهم تأثروا بما كان لأسلافهم فى آسيا من قصص وأساطير وروايات تركية قديمة.

وحقيق بالذكر أن تأثر الترك فى الأناضول بشعر الفرس أدى ضمنا إلى تأثرهم بالتصوف؛ لأن الشعر الفارسى فى عصور ازدهاره تأثر بالتصوف فى الأبعاد

(1)Feygi Hahci; Mevlana S. 6. Konya. 1983.

والأعماق[١] . وترتب على ذلك أن حفلت بلاد الأناضول بشيوخ التصوف فكان كل شيخ ممن قدموا من وراء النهر يجمع حوله المريدين ليأخذوا عنه طريقته وشاع التصوف وزاع فى أرجاء البلاد . وعرفه وأخــذ به الخواص والعوام . إلى أن تطور وعرفه الدراويـش الذين تجولوا فى البلاد وتغلغلوا فى طبقات الشعب التركى وعليه كانت الأناضول مثابة للتصوف والصوفية . واندمج فى كلام الناس وحوارهم . وتعاقبت القرون وأصبح للشعر التركى مرموق الكيان وتأثر الشعر التركى العثمانى بهذا التصوف ستة قرون .

أما فى العصر الحديث . فمعلوم أن الترك فى العصر الحديث أخذوا عن الأدب الأوربى وانصرفوا عن التأثر بالأدب التركى العثمانى الذى كان متأثرًا بالتصوف الإسلامى بل إن بعضهم انصرف تمامًا عن الأدب العثمانى القديم الفارسى فى أصوله وفروعه واتجهوا إلى الأدب الفرنسى .

ولكن هنا ملحظ لابد منه وهو أن بعض شعراء العصر الحديث كانت لهم نزعة إسلامية ونذكر منهم الشاعر محمد عاكف المعروف بشاعر الإسلام لأن شعره كان فى قيم ومثل الإسلام وتزايد بعده عدد الشعراء الذين تلو تلوه ، وبعد إذ عرفنا كيف تأثر الأتراك العثمانيون بالإسلام فى ثقافتهم عامة وفى شعرهم خاصة نكون قد شرحنا وعرفنا وصفهم وننتقل بعد ذلك إلى العصر الحديث بل إلى يومنا هذا لننظر فيما قال بعض المعاصرين فى القدس ولكن ينبغى أن ننظر فيما قال شاعر قديم فى القدس لأننا لا نملك نصًا لسواه فى الشعر القديم فيما نعلم ولكى تكون لنا بداية فى هذا الصدد هذا الشاعر هو يونس أمره ، بمعنى يونس العاشق من أهل القرن الثالث عشر للميلاد . إنه يعد من أشعر شعراء التكايا فى الأناضول ولا علم لنا بمسقط رأسه ولا البلد التى كان مسقط رأسه فيها . كما لا نعرف إلا النذر اليسير عن مذهبه الصوفى ، لأنه كان درويشًا مجذوبًا يعبر عن العشق الإلهى ، وكذلك فى شعره مواضع فيها الإشارة إلى وحدة الوجود ، وأشعاره تعد ترجمانا لروح الشعب التركى ونعنى بها الأشعار الدينية ، ولقد حفظها الشعب التركى على تفاوت طبقاته وحظه من العلم وظل يرددها عبر القرون[٢] .

إنه درويش من بسطاء الدراويش ، ذاعت أشعاره فى طبقات الشعب وكان يمضى هائمًا

(١) كويريل زاده محمد فؤاد: تورك ادبياتى تاريخى ص ١٣٩ : ١٤٠ استنابول ١٩٢٤ .

(2) Vasfi Mahir Kocatük Türk Edeliyat Tarili SS. 179 : 185. Ankara. 1964.

على وجهه فى نشوة العشق الإلهى وجذباته وهو أمى لا يكتب ولا يحسب، ولا عجب فإن العلم عند الصوفية هو وحى وإلهام ولا حاجة فيه إلى النظر فى الكتب، والعلم عند الصوفية علمان علم الظاهر وهو علم الشريعة وعلم الباطن أو علم الحقيقة، وهو إلهام يلقيه الله فى قلب الصوفى نورًا ومن لا يقرأ ولا يكتب من الممكن أن يعد عارفًا بالله.[1]

وحسبنا علما بهذا الدرويش لننظر فى شعر له ذكر فيه القدس قال يونس أمره ما ترجمناه له:

إذا القلب فى حطمته   لرب الأنام فلا تسجد
كما القدس بيتًا فلا زرته   إلى الحج ويحك لا تقصد

إن الشاعر يحدثنا عن القلب وإذا ذكر الصوفى القلب فلا عجب أن يعتزبه كل اعتزاز، ويعمل لصيانته، إن القلب عند الصوفى هو مصدر المعرفة لأنه يعشق الذات الإلهية والذات الإلهية تلقى فيه المعرفة أو العلم اللدنى ولذلك فهو منزه عن الخطأ فى حين أن العقل يخطىء. إنه يريد لقلبه أن يكون مصونًا. لذلك لا يريد أن يمس بأى سوء وخير من تقرأ أو تكتب أن تدخل إلى قلبك، وللصوفية كلام ظاهره غير مقصود وباطنه هو المقصود إنه لا يريد على الحقيقة أن يقول للمؤمن لا تحج البيت ولا تقم للصلاة وإنما يريد فى مجاز ورمز ليقول إن فى تحطيم القلب العامر بالإسلام حرمة ما بعدها حرمة وعليك أن تكون على ذكر ووعى من هذا، وإلا فقد تنكبت الجادة وجنحت إلى الضلال وما أغنى عنك شيئًا أن تؤدى مناسك الحج. إن الشطح عند المتصوفة يفهم ويذكر على أنه شطح وهم فى جذبة العشق الإلهى يرمزون بها إلى حقائق وأصول يأخذون بها، فهذا من كلامه ينبغى أن يدرك على رمزيته لا على حقيقته: وعلى هذا الأساس نفقه ما قال يونس أمره، ولكننا هنا نورد كلامه لأنه قرن حج البيت بزيارة القدس فاقتران زيارة القدس بحج البيت يؤكد منزلة القدس عند المسلمين وكيف أنها تقاربه فى المثوبة لديهم.

وهذا مذكرنا بما يطوف بمسامعنا من أن من أدى فريضة الحج سبع مرار، وجب عليه أن يزور بيت المقدس.

إلى هذا الحد البعيد يعلى يونس أمره من شأن قلبه المؤمن الطهور ويأبى كل الإباء أن يمس بسوء أى سوء ويعدل حرمة مسه بالسوء بحرمة الانقطاع عن العبادة، ويقرن مسه

---

(1) Fuat Kofruli : Türk Edeliyatmda ilk Mutassavruylar SS. 223 : 232 Amkara 1966.

بالسوء فى الخيال بالانقطاع عن العبادة، إنه لا ينهى عن الصلاة والحج كما يبدو ظاهر كلامه غير المقصود، وإلا فكلامه لا يستقيم فى عقل مؤمن.

وخاتمة الكلام عن يونس أمره تجلى فيه الإيمان بالله تعالى، ولقد كان وقافًا عند حدود الشريعة ولم يقل بالاتحاد والحلول والتناسخ كما هو الشأن عند بعض الفرق الصوفية من الغلاة، الذين جاءوا بما يتنافى مع أصول الدين القويم.[١]

والحاصل أن شاعرنا شديد السخط على من فى شك مما يتضمنه قلبه، وهو قلبٌ يعمر بالإيمان ويخفق بمحبة الرحمن. إنه يرى من أنكر ما فى قَلْبه واقعًا فى الإثم، والله تعالى لا يقبل منه عبادته، كما يريد لذلك تأييدًا وتأكيدًا. وهو يذهبُ فى كلامه إلى معنى بعيد لا إلى معنى قريب، شأنه فى ذلك شأن شعراء الفارسية والتركية والأردية خصوصًا، وشعرهم الصوفى يستغلق ويلتبس إلا على من كان على علمٍ واسع بما يقع عليه فيه من رمزية غامضة، إلا على من درسها حق الدرس وتدبرها حق التدبر.

ومِن شعراء الترك القدامى يحيى بك الذى عاش فى القرن السادس عشر ذكر للمسجد الأقصى فى بيتين وقعنا عليهما له ولا جناح علينا أن نعد المسجد الأقصى هو بمثابة القدس. فإنما تستمد القدس قدسيتها ومكانتها من وجوده فيها. أما يحيى بك فهو شاعر من أصحاب المنظومات الخمس، وهوفى شعره يميل إلى السلامة والوضوح، وقد تقلب شعره فى شتى فنون الشعر التركى وإن كانت شهرته بنظم الشعر القصصى وله فيه خمس قصص. وله رائعة رثى فيها الأمير مصطفى تسمى المرثية المصطفوية ذلك الأمير الذى أمر أبوه سليمان القانونى بقتله بإيعاز من زوجته ليكون العرش من بعد لولدها.[٢]

قال يحيى بك:

إن بيت الله والأقصى حمانا   موئل الجيش وظل الله كانا

إنه يجمع بين بيت الله والمسجد الأقصى على أنهما موئل لجيش المسلمين المجاهدين ويشبههما بأنهما ظل الله، وهذه غاية الغايات فى تمجيد المسجد الأقصى ما فى ذلك من ريب والشاعر يعبر عن إيمان المسلم المؤمن ويشير إلى أن جيش العثمانيين ينظر إلى الكعبة والمسجد الأقصى فى وقت معًا ملتمسًا منهما حمايته ومؤازرته. ويضيف إلى ذلك أنهما ظل الله وبذلك يرفرف بخياله فى آفاق الإيمان، وله كذلك.

---

(1) Sadeddin Nüghet Ergun: Bekta§i Sâirteri ve Nefesleri : S.6 Is Tanbul 1944.

(1) Ahmed çanu§oglu : yahya B. ey Duiâninden Seçmalar S. 7 Amkara. 1983.

إن بيت الله كان بابكم　　إنما الأقصى كنور عندكم

إنه يجمع ثانية بيت الله والمسجد الأقصى كأنما يتقاربان عنده فى قدسيتهما ومنزلتهما فى نفوس المسلمين وقد أراد أن يبلغ المدى فى التشبيه فى المدح فلم يجد مشبهًا به أعظم من بيت الله والمسجد الأقصى، ويتخيل له نورًا ولكنه يشبه المحسوس بغير المحسوس فهو يشبه المسجد الأقصى بنور وإنما يريد بهذا النور ما للمسجد الأقصى فى مدينة القدس من منزلة، وبذلك يكون قد نسب إلى القدس كل فضل باحتوائها على المسجد الأقصى كما أنه ينطق عن رسوخ الإيمان وثبات العقيدة عند المسلمين.

ومن أهل القرن السادس عشر شاعر يسمى نفعى ذلك العبقرى الخبيث اللسان الذى قال شعرًا سويًا محكم النسج وكان بين الشعراء العثمانيين معجزة من معجزات الفطرة وصاحب قدرة ليس كمثلها كل قدرة.(1)

وكان هذا الشاعر هجاءًا شديد الإعجاب بنفسه يردد ذلك فى أكثر من موضع فى شعره يعنينا من قوله أنه جعل للقدس شعاعًا تراه العين إنه يذهب بنفسه ذهابًا بعيدًا ويريد ليصف شعره بكل جميل فشاء أن يجعله نورًا إلا أن هذا النور ليس ككل نور، لأنه إنما ينبعث من القدس فهو لا ينسى منزلة القدس وينسب إليها نورًا ويشبه كلامه بشعاع من هذا النور ليكون قد بلغ الأرب وحقق غاية ما شاء أن يحقق من كلامه حين يقول:

كلامى أنا كان نور الهدى　　شعاعًا من القدس ها قد بدا

وثمة شاعر آخر ليس فى عداد الترك المشاهير يسمى غانى زاده نديرى (مات عام ١٦٢٦م) لم نقع على ترجمة له وهو صاحب قصيدة فى وصف معراج الرسول ﷺ يقول فيها: -

وفى طرفة العين ذا الكون غاب　　وما كان بحر له من حجاب

وهذا البراق عليه ركب　　وفى الصحن من مسجد قد رغب

يعنينا من هذين البيتين أنه ﷺ رغب فى أن يصلى بالأنبياء فى صحن المسجد الأقصى ففى هذا ذكر للمسجد الأقصى فى بيت المقدس، فالمسجد الأقصى والقدس أشبه شىء بصنوين لا يفترقان وشطرين اثنين لشىء واحد.

ومن شعراء الترك من يدعى يازجى أو غلو المتوفى عام ١٤٥١ نظم منظومة فى نزول عيسى عليه السلام. وهذا الشاعر من أهل أنقرة عاش فى عهد بايزيد الأول. كل ما لدينا

(١) أبو الضيا توفيق: نفعى استانبول ص ٥ / ١٨٨٧م.

من أخباره أنه كان عالما واسع العلم بالفلك، فنظم منظومة طويلة من خمسة آلاف بيت أسماها «شمسية». [١]

يقول فى منظومة عن المسيح عليه السلام:

إلى القدس فليمض عيسى إذن　　　فإن الحماية باب لدن

إنه يذكر القدس صراحة فى هذا البيت من منظومته مريداً بذلك أن يقول إنه يمضى إلى القدس ومنها يعرج فى السماء ليجد حماية له من بطش اليهود الذين أرادوا به السوء، وذلك ليكف عنه عادية اليهود الذين أرادوا به الأذى والسوء. وفى السماء عيسى عليه السلام يجد له موئلاً يقتحم فيه وذلك عند باب الله فلدن هنا تعنى عند الله. وربما كان الكلام إشارة إلى أن المسيح عليه السلام ينزل من السماء فى آخر الزمان فيقتل الدجال عند باب لُد[١].

ومَن أهل القرن السابع عشر الشاعر نشاطى وله ديوان ومثنوى بعنوان حلية الأنبياء ومنظومة فى وصف مدينة أدرنه وله مؤلفات فى نحو اللغة الفارسية والتركية. [٢] وله بيت فى المعراج يقول فيه:

ركابك فيه وضعت القدم　　　هو القدس شرفته بالقدم

إن الشاعر فى مدحه للنبى ﷺ إنما ينسحب مدحه ووصفه على القدس بل وعلى المسجد الأقصى جميعًا فى وقت معًا، ولتقريب ذلك إلى الفهم نقول إن النبى ﷺ وهو فى المسجد الأقصى حين وضع قدمه الشريفة فى ركاب البراق شرف القدس بهذه القدم، والشاعر سليم الذوق، جميل التخيل، يذكر الحقيقة لا ينصرف عنها بخيال بعيد. ولا يقول ولا يذكر إلا الواقع بعينه إن التوفيق حالفة فى الربط بين المسجد الأقصى والقدس والمعراج وما لسيد الأنبياء والمرسلين من منزلة فى نفوس المسلمين.

ومن أهل القرن الثامن عشر شاعر من المولوية هو أسرار ده ده وهو فى عداد شعراء الديوان. لم ينظم الشعر إلا بعد أن أصبح شيخًا من شيوخ المولوية. ولا نعرف من سيرته إلا النزر اليسير. [٣]

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى (٢٢٤٠) (٤ / ٥١٠ - ٥١٣) بطوله فى ذكر الدجال وفتنته. وقال الترمذي: حسن صحيح.

(2) Ismail Ünver: Ne§ati S. 52. Am Kara 1986.

(3) Osman Horata : Esrar dede. S. 5: 24 Am Kara 1998.

وله قصيدة من ذلك النمط المعروف بـ النعت أى نعت النبى ﷺ . وقد اخترنا أبياتًا متفرقة منها :

أنت كحل لعيون أبصرت وظلال القدس ها قد أشرقت
من رياض القدس ها قد هب النسيم منك يحيى ذلك العظم الرميم
وطيور القدس قد سخرتها هذه الأفلاك قد ناجيتها

إن الشاعر ينحو منحى شعراء الصوفية فى جنوحهم إلى التمثيل والتخييل إنه فى البيت الثانى يمدح النبى ﷺ ، وفى البيت الثانى يقول إن النسيم الذى يهب من القدس يحيى العظام وهى رميم يشير بذلك إلى أن المسيح أحيا الموتى . ثم يبين كيف أنه ﷺ قد عرج فى السماء فناجى الأفلاك .

ونجد لشاعرنا قولاً يتضمن ذكرًا للقدس فيه يقول :

فى الوجود ذلك الطور العظيم اعتلاه للمناجاة الكليم
وكذا بيت يقر فى السماء ثم قدس وهو معلوم السناء

هاذان البيتان ضمن أبيات ذكر فيها الشاعر القدس مع ذكره لجبل الطور ، والبيت المعمور والقرآن والإنجيل والتوراة والزبور ، وما ذكره فيه إشارة إلى أن هذا الوجود يحوى كل ما خلق الله تعالى يقول هذا ليرشد إلى ما يعرف عند بعض المتصوفة بوحدة الوجود ووحدة الوجود ترسو على أساس هو أنه ليس فى هذا الوجود بما رحب إلا إله واحد هو الله سبحانه وتعالى ولكن ليس لهذه الموجودات وجود حقيقى بل وجود اعتبارى لأنها فى حقيقتها لا تعدو أن تكون جزءًا لا يتجزء من الله أى أن الله سبحانه وتعالى هو كل شيء فى هذا الوجود ، إنه لابد آخذ عن فكرة وحدة الوجود من جلال الدين الرومى الذى عايشه فى القرن الثالث عشر للميلاد .

ولقد شاعت تعاليم طريقته فى الأناضول ومرت بسمع الأتراك على تفاوتهم فى العلم ، فأخذوا بها ، وعرفوا أن جمال الطبيعية صورة من جمال الله وأن هذا الوجود مرآة صافية تتجلى فيها صورته وحقيقته وصفاته .

أما البيت المعمور فهو بيت معمور فى السماء فوق الكعبة يطوف به الملائكة ، فيونس أمره يذكر بيت المقدس على أنه من تلك المقدسات التى حفل بها الوجود .

هذا ما وجدنا من شعر تركى قديم يتضمن ذكرًا للقدس الشريف ، فلننتقل إلى النظر فى شعر تركى حديث جاء فيه قول القائل :

عليك يا قـــدس منى الســـلام   بأرضك كـــم من نبى أقـــام
لأنت من الله نعـــــــم الهبـة   ومـا كـان فى الوسع أن نرغبـه
ســـلَامٌ أيا قـــــدس منـا لك   تقـــدست والطهـــر نورٌ بك
سلامٌ عليك سَلامٌ سلام.(١)

إن هذا الشاعـر يحيى القدس بكلام ينماز بتناهيه فى رقته وعـزوبته ويبدو عليه بكل الوضوح أن صاحبه كـان منطلقًا على سجيته فما تكلف ولا تعسف، بل كان كلامه صورة لنفس مؤمنة تنطق عما تكن لهذه المدينة من إجلال وإعظام وتنطق عن إيمانه صادق، كأنه نور مشرق. إن الشاعر قال هذه الأبيات ضمن مقال جرى به قلمه ولا نعلم فى يقين إن كان هذا كلامه أو لمن سواه، ولكن بما أنه لم ينسبه إلى غيره كما نسب من قبل كلامًا إلى يونس أمره فالأرجح أنه له. نحن لا نعرفه شاعرًا من المشاهير، ولا نعرف ما إن كان هذا الشاعر مُقلاً أو مكثرًا. وأيًا ما كان، فالقليل أمارة على الكثير، كما أن ذكرهُ للقدس على ذلك النَحو وفى ذلك التاريخ، يستدل منه على أن الأخبار تناهت إليه بما يَقع فى القدس وحولها من صدام بين الصهاينة والفلسطينيين، فذلك أمرٌ لا تخفى منه على الإعلام خافية، ولعله عرف طرفًا مما وقع، فَرَق للقدس مما تُكابده ويتنا فى مع منزلتها وطهرها وقداستها فعبر عن شعوره نحوها. وكان حسبه أن يُحييها ويعبر عن منزلتها فى نفسه ويشير إلى عاطفةِ لمسلمٍ نحوها وهى فى محنتها ونكبتها.

وما دام هذا الشاعـر من أهل العـصر الحاضر فما يجدر أن نورد رأيًا للأتراك المعاصرين فى القـدس الشـريف، يقـول نجم الدين أربكـان رئيس حـزب السـلام الوطنى: «إن مـدينة القدس الشريف إسلامية، وسوف تعود إسلامية بمشيئة الله؛ بعد تخليصها من الصهاينة المعتدين أعداء الله ورسوله ﷺ، ومساهمة منا فى قضية فلسطين الإسلامية، أعلنت تركيا استعدادها التام لفتح مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية فى تركيا، كما أننا نستنكر المعاملة الوحشية التى يتعرض لها الأخوة المسلمون فى فلسطين، ونطالب بإعادة حقوقهم المغتصبة إليهم، وردهم إلى ديارهم فى العاجل كما نستنكر حرب الإبادة التى تشن ضد المسلمين فى هذه البقعة المقدسة».(٢) وهذا من قول المؤلف وهو قول جد صريح يؤكد أن للأتراك فى يومنا هذا موقفًا فيه تأييد لحقوق العرب المسلوبة، ودعوة للمطالبة بعودة اللاجئين

---

(1) A. Haydar Haksal : Kudüs- ü §erif. Mektup Dergisi, S. 8. Kasim. (istanbul 1998).

(٢) محمد ثابت الشاذلى: الماسونية - عقدة المولد - وعار النهاية ص ٤٨١. القاهرة ١٩٩٠.

المشردين . وتعريف وتبيانا بأن الصهاينة لا يزد جرون ولا يتورعون عن ارتكاب المآثم نحو المسلمين . ويستفاد منه كذلك أن الكاتب يقصد إلى مدينة القدس ، لأنه وإن لم يشر إليها فى كلمة فإنها كذلك تعد لب النزاع والصراع ، و ذلك من قوله يمهد لذكر شعراء محدثين معايشين قالوا ذكرًا فى القدس ما أجدر أن ننظر فيه .

ونزيد الحقيقة إيضاحًا وتفصيلاً إذا ما أوردنا تصريحا لوزير الخارجية التركية جاغليا نجل فى الخطاب الذى ألقاه فى الجمعية العامة فى الثانى والعشرين من يونيو عام ١٩٦٧ خاصًا بمشكلة القدس واللاجئين فقال : «على إسرائيل أن تتلافى ما يعرف بالأمر الواقع فى القدس على الخصوص ، وأود أن أذكر هنا إسرائيل بمنزلة الأماكن المقدسة فى نفوس الشعب التركي»(١) .

ويضاف إلى ما أسلفنا ذكره فى موقف تركيا من القدس أن الحكومة التركية احتجت بشدة بالغة فى عام ١٩٨٠ على ضم إسرائيل مدينة القدس إليها ، وأعلنت أنها لا تقبل ما يعرف بسياسة الأمر الواقع . كما كان منها أن أيدت هذا من رأيها بسحبها القائم بأعمالها من تل أبيب ، و لم تبق فى سفارتها غير موظف بدرجة سكرتير ثان . وتجاوزت ذلك إلى إغلاق قنصليتها فى القدس ، ونقلت وثائقها إلى القسم القنصلى بالمفوضية التركية فى تل أبيب .

وترتب على ذلك حتما تخفيض العلاقات الدبلوماسية بين تركيا وإسرائيل إلى المستوى الأدنى . أما العلاقات الثقافية فتوقفت تمامًا بين الطرفين . وزاد الأمر سوءًا بانكماش العلاقات الاقتصادية .

ومن جهة أخرى أعيد النظر فى شأن منظمة التحرير الفلسطينية التى أنشئت عام ١٩٦٤ ، فاعترفت بها فى مؤتمر القمة العربى المعقود فى الرباط عام ١٩٧٤ ، وكان اعتراف تركيا بالمنظمة على أنها الممثل الأوحد للشعب الفلسطيني كما أقامت مع المنظمة صلات عن طريق السفارة التركية فى القاهرة .

وفى أغسطس من عام ١٩٧٥ مضى فاروق قدومى رئيس الدائرة السياسية للمنظمة إلى تركيا وذلك لبحث إمكانية توثيق العلاقات بين الطرفين ، وتأسيس مكتب للمنظمة فى مدينة أنقره . وقد افتتح ياسر عرفات مكتب المنظمة فى العاصمة التركية عام ١٩٧٩ ، وقوبل عندما زار أنقرة ثانية عام ١٩٨٦ بحفاوة عظيمة(٢) .

(١) فاخ ر ارما اوغلو : تركيا والصراع العربى الإسرائيلى ترجمة كمال شعبان ص ٢٧٣ استانبول ١٩٩٣ .

(٢) إسماعيل صويصال : العلاقات التركية العربية فى ضوء التطورات السياسية المعاصرة . ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ترجمة د. إسحاق عبيد. القاهرة ١٩٩٣ .

ونمضى لنتتبع عرضنا على موقف تركيا من مدينة القدس فنجد أن تركيا صوتت إلى جانب قرار الأمم المتحدة رقم (٣٣٧٩) نوفمبر ١٩٧٥ الذى يعد الصهيونية مظهراً من مظاهر التمييز العنصرى . كما دعت تركيا فى صراحة إلى عدم تغيير وضع القدس .

وعند إعلان دولة فلسطين فى ١٥ نوفبر ١٩٨٨م كانت تركيا الدولة الخامسة فى العالم وقبل مصر وسوريا ولبنان والأردن، والأولى من المعسكر الغربى التى تعترف بالدولة الفلسطينية الجديدة[١] .

وهذا كاف كل الكفاية فى تأكيد موقف تركيا الموالى لفلسطين كما أنه دليل واضح قاطع على مساندة الشعب الفلسطينى فى قضيته .

وللسياق أن يقودنا إلى النظر فيما قال الشعراء فى يومنا هذا عن القدس ونذكر أول ما نذكر الشاعر سزائى قرا قوج . المولود عام ١٩٣٣ ، لأسرة معروفة بالتقوى . عرف فى صدر شبابه بولوعه بالاطلاع على الأدب التركى القديم ومعلوم أنه أدب شديد التأثر بتعاليم الإسلام وأصوله وبالتصوف خصيصًا، وكان لذلك أثره فى منهج تفكيره .

ومعلوم أن تيار التغريب عصف عصفًا بتركيا المعاصرة منذ عهد اتاتورك على الأخص وكانت الدولة علمانية رسميا ولكن كان لها شأن خاص . فما كانت دولة شرقية إسلامية، ولا غربية بل ولا دولة غربية ولكن كان لها موقف خاص من الشرق والغرب غير أن ذلك لم يمنع من وجود تيار إسلامى سيطر فيها على كثير من الشعراء والشواعر وهذا ما يعنينا فى هذا المقام وإلى جانب الشعراء ظهر فى تركيا دعاة للإسلام فى طليعتهم : «بديع الزمان سعيد النورسى» وكانت له مؤلفات عن الإسلام لها قيمتها ونفاستها فتأثر بها سزائى قرا قوج . خاصة أن مؤلفات النورسى كانت غايتها معارضة العلمانية بل استئصال شأفتها والدعوة إلى الإسلام وأحكامه وتعاليمه .

وهذا الرجل مجاهد بتمام المعنى وقد شاركه فى جهاده كثير ممن جعلوا من الجهاد حركة تجابه العلمانية فى تركيا . وللكاتب الشاعر «نجيب فاضل» كتاب فى هذا الموضوع تحت عنوان «شهداء الدين فى العصر الحديث» . ولقد عايش سزائى قراقوج حركة نجيب فاضل الداعية إلى الاتجاه الإسلامى فى الأدب التركى الحديث[٢] . يقول :

---

(١) محمد نور الدين : الشرق الأوسط فى السياسية الخارجية التركية . ص ١٢٢ ، ١٢٤ ، بحث منشور فى مجلة مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق القاهرة ١٩٩٣ .

(٢) د. عبد الرازق بركات : ديوان أربعون ساعة مع الخضر للشاعر التركى المعاصر سزائى قراقوج . ترجمة وتعليق د. عبد الرازق بركات ص ٨، ١١ القاهرة ١٩٢٠م.

أقــمنا بهــا قــدسنا من زمن ... بمصــر وفى مكة من سكن
لنا دارنـــا إنهـــــا تونس ... وفى قــونيــه جـارنا مــؤنس

إنه ذكر القدس على أنها فى طليعة المدن الإسلامية العريقة التى يعيش فيها أهل «لا إله إلا الله». إنه يشير إلى أن الروابط تقطع بين المسلمين. فإن مدنًا متباعدة تتوزعهم والوحدة تعوزهم لأنه بعد أن ذكر القدس والكعبة ولهما من القدسية ما لهما ومنزلتهما فى النفوس ليست تخفى ذكر معهما قونيه ومرسيه و هما مدينتان تركيتان وذكر تونس وهى عربية كأنه يريد بذلك أن يومئ إلى هذا التباعد فى أرض الله، ويريد ليقول إنه دليل على الاختلاف وعدم التحالف والتضامن. إن الحزن يأخذه للعالم الإسلامى حين يستبين أنه لم يجتمع فى وحدة. وجعل معالم هذه الفرقة مرفأ فى الشمال والجنوب والشرق والغرب. أما الذى يعنينا فهو أنه جمع بين الكعبة المشرفة والقدس الشريف فى بيت واحد

ومن هذه المنظومة قوله:

ومن صخرة القدس قام البطل ... على ساحة الحرب ها قد أطل
وكـان السلاح سلاح الحجــر ... لهـذا الشـهـيـد وها فـانتـصـر

إنه يحدثنا عن هذا الانتفاض الذى يتعاقب فى كل يوم. ويبين لنا أنه منطلق من القدس، لأن القاعدة عند المجاهدين هى بيت المقدس. الذى يريدون الانطلاق منه لتنساح جموع المجاهدين وترده عليهم، بعد سلب الصهاينة له كما يؤملون استرجاع أرضهم، باسترجاع حقهم.

وشاعرنا يمضى بنا إلى التغنى بما للقدس من فضل لا يعلو عليه فضل. فيذكر عديدًا من الأنبياء ويراها بحق مدينة الأنبياء ويتصدى لعدد كثير من الأنبياء الذين كانوا فيها. كما لا يفوته ذكر المسجد الأقصى على أن القدس والمسجد الأقصى لازم وملزوم فيقول:

إنهــا القــدس وأرض الأنبـيــاء ... وإليــهــا كم نبى كــان جــاء
جاء عيسى وهو يمشى فى ضــياء ... جاء موسى فى سمو وسناء(١)
ولإبراهيم من نـــار وقـــــاء ... وسليـــمـــان عظيم الكبـرياء
إنما الأقــصـــى به ظل أفــــاء ... ولداود به كــان احـتـمــاء(٢)
ان للقــدس فـراشــا أخـضـرا ... كـبـســاط وهو فـتــان الرواء
وأمـام المسجد الأقصى مــلك ... فى سجود وصلاة ودعاء(٣)

(١) السناء: الرفعة. (٢) أفاء: رجع. (٣) الملك: الملائكة.

أما تخيله لوجود الفراش الأخضر فيها وبالذات على أرضها فله سبب فيه الحاجة إلى فضل إيضاح. إن هذا الشاعر التركى لابد متأثر بما اطلع عليه من شعر تركى صوفى قديم وفى الشعر الفارسى والتركى والأوردى تشبيه العاشق الصوفى بالفراش التى تحوم حول الشمعة لتحترق فيها. لأن من الصوفية من يؤملون الفناء فى الذات الإلهية. وعليه فكأن الفراش يحوم حول القدس أو المسجد الأقصى فيها. كما يحوم حول شعلة الشمعة. وبعد أن يحترق أو يكاد يهوى إلى الأرض فيجعلها بساطا أخضرا. والخضرة من الألوان التى توحى بالشعور بالمقدسات. ثم إنه لا يستطيع أن يكف عنه شعوراً بقداسة تلك المدينة فيتمثل الملائكة فيها وهم يصلون وينهى به السياق إلى أن النبى ﷺ يؤمهم قبل العروج فى السماء ليلة الإسراء.

والشاعر رمضان آلتين طاسى قوله فى القدس:

هى القدس بقلبى في السويداء دماء إنها تجرى لإحيائى[1]

فهذا الشاعر يعبر عن عاطفته نحوها تعبيراً يدل على أنها مدينة يحبها حبًا لا غاية بعده فهو يجعلها قلبه الذى يخفق به، ليحيا بها. إنه يربط بينها وبين حياته، وينسب إليها فضلها فى إحيائه ويرى أن انقطاعها عنه هو انقطاع حياته، وتلك هى الغاية فى التعبير عن المحبة.

وثمة شاعر تركى آخر «عمر لطفى» من المعاصرين يقول:

جـوانح أحـرقت عـشـقـا دمـوع أرسـلـت دفـقـا[2]
رياح إنهـا سكنـت على شفه فسحقا يالها سحقا[3]
وعـصـر الظلم يحـويهـا تزلزل مـسـجـد فـرقـا[4]

إن الشاعر يضفى على القدس الحزن فى كل صورة من صوره، فيبين أن من يعشق القدس أو من يحزن لمحنتها يرسل الدمع مدراراً عليها كما يرمز بالريح التى سكنت إلى أن القدس تحت وطأة خمود لا حراك له. وهذا ما يجزع له كل الجزع ثم يتطرق إلى وصفها وقد انتزعت من المسلمين ظلما كما يتخيل مسجدها فى وصفه الحالى بها ناقما على ذلك الوضع وهو يتزلزل غضبا إلا أنه لا يجد فى يده من حيلة.

وهذا شاعر آخر هو «طوران قوج»:

---

(١) السويداء: حبة القلب. (٢) الجوانح: الضلوع.
(٣) سحقًا: بعدًا. (٤) الفرق: الفزع.

والله لـــى وطـــــن ومن حـيـفـا لى القـمـر
أنا أمـــضى وبى ظمـــأ ومن ظمـــئى ســأندثر
ويهطل فـيك يا قـدس علـــى ويرقـأ المطــــر

إن الشاعر هنا يتوجع لتغربه عن وطنه إنه يحن إليه حنينا لا يبعده عنه ولا يدنيه منه فيحزن لقلة حيلته وانقطاع وسيلته. إنه ينظر إلى القمر وإلى المطر ويرى أنهما يعمان بالنور وبالماء كل الكون من حوله. ولكنه مع ذلك فى ظلمة الأسى وفى ظمأ الشوق. إنه يغبط المطر وهو يهطل على القدس ومنيته أن يكون فيها ليهطل عليه حتى يرتوى من حرقة الظمأ. هكذا يعبر الشاعر عن حنينه إلى القدس، وهو يذكرنا بالشاعر العربى الذى يقول:

أليس الليل يجمع أم عمر وإيانا فذاك لنا تدانى

فالشاعران يتشابهان فى تخيل لقائهما بما يريد أن له لقاءًا ولكن الشاعر العربى قانع فى تخيله ظلام الليل جامعا له بمن يهوى أما الشاعر التركى فيتخيل المطر الذى يهطل فى القدس ويود لو أنه هطل عليه ولكن سرعان ما ينقطع عنه هذا المطر، الذى يتمنى هطولا عليه فى خيال محال، وهكذا يفترق الشاعر التركى والعربى فى التعبير عن حرقة الشوق ولوعة الحرمان.

ونعود إلى سزائى قراقوج الذى يقول:

لأحـمل لقـدسى بعـيـراً أريـد وأمـضى بهـا للبعـيـد البـعـيـد
إلى مكة قـد أردت الرحـيـــل ودجلة أجـعلهـا السلسـبـيل
وأغـــسلهـــا بميـــاه الفـــرات وحناء أجـعل للخـصـــلات

إن الشاعر هنا يتحدث عن القدس حديثا عجبا إنه يريد أن يستنقذها من أيدى الأعداء، ويحملها من موضعها ويضعها على بعير ليمضى بها إلى مكة وبذلك يصفها فى أرض مباركة طاهرة. كما أنه يريد كذلك أن يمضى بها إلى دجلة ليرويها من ظمأ، كذا يغسلها بماء الفرات وبذا يكون قد مضى بها إلى أرض الرافدين كذا يتخيل على شاطئ البحر الأحمر حناء يريد ليصبغ بها شعرها. إن هذا الشاعر لطيف التخيل كما أنه يعبر عن منزلة القدس فى نفسه، فهو يريد أن يمضى بها إلى أرض تشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، فحقيقتها الدينية عنده لا تخفى. إنه يرسم لنا صوراً معجبة لها فى خياله يعبر بها عن واقع فى قرارة نفسه، وهذا شاعر يقال له «محسن إلياس صوباشى» يقول على لسان طفل فلسطيني يتيم فى قصيدة تحت عنوان: «أغنية طفل يتيم فى حرب التحرير»:

روضة القدس بها ورداً قطفت وبأرض إننى هـا قد غرست
وإلى قابيل لكنى أعود ناب مصاص الدما إنى خلعت
بحسامى رأسه حطمته ودماء الشهداء كم جمعت
قطرة من بعد أخرى جمعت وعلى هـام أعادى نثرت(١)
بالدماء رايتى إنى خضبتها رايتى الحمراء ها إنى رفعت

هذا ما يجريه الشاعر على لسان يتيم مات عنه أبوه مجاهداً والكلام الذى يجريه على لسان هذا اليتيم يستدل منه على أنه جياش الحماس تأثر ثورة عارمة على الصهاينة وفى كلامه عنف لم نعرف له مثيلاً عند شعراء الترك الذين سبق النظر فى شعرهم وربما كذا فى شعر العرب إنه يحسن فى قوله عن هذا الصبى إنه قطف من روضة القدس هذه الورود البيض ليغرسها خارج تلك المدينة فى أرضه فلسطين إنه لا ينسى القدس المحجوبة عنه بسلاح الصهاينة وبطشهم ولكنه يعدهم بالويل والثبور ويذكر قصة قابيل وهابيل ولدى آدم عليه السلام. فيذكر أن قابيل قتل أخاه ظلما. ويشبه به الصهيونى الجبار فى الأرض ويريد ليخلع نابه الذى نهش به المظلومين. ثم رمز إلى انعقاد نيته على القتال والنزال، وأنه لا يملك الصبر عن أن يهشم رأسه بحسامه كما أنه تمادى فى قتاله الذى يريد أن يشفى به غيظه من الصهاينة. إنه جمع دماء الشهداء لينثرها على هام العدا مستدلاً على أنه سيقاتل مستبسلاً، مقنعًا من يقاتلهم بأنه مستبسل. والدليل على ذلك أنه حريص على جمع هؤلاء الشهداء ونثرها على رءوس مقاتليهم. وهو يمتلئ فخراً بشهادة الشهداء، ويريد لأعدائهم أن يجزموا بأنهم يفخرون باستشهادهم فى سبيل الله. وهم حتى إذا خلت أيديهم من سلاح يحملونه سوف يتابعون القتال والاستشهاد. ولتكن دماؤهم سلاحًا يبطشون به. ثم يستبد به العنف فيقول إنه صبغ رايته بحمرة دماء الصهاينة. كما يذهب بنفسه ذهابًا ويتيه تيهًا ويقول إنه رفع رايته عاليًا عاليًا. إن هذا الشاعر مجيد فى سبك العبارة. كما أنه صادق فى تعبيره عن نفسية الفلسطينى المجاهد الذى يزود عن وطنه بكل وسيلة فى يده.

ونعود إلى سزائى قراقوج فى بيتين اثنين يقول فيهما:

اعلمن أن شيئـا سيكون ذاك فى القدس وفى بغداد تسمعون
إنه عن نفسـه لا يعلنن إنما عن مـثله لا يعـلنون

(١) الهام: جمع هامه أى الرأس.

أول ما يسترعى النظر فى هذين البيتين أنه يتجه بالقول إلى المسلمين فى كل أرض تشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . إنه يريد ليجمع بلاد المسلمين فى نسق واحد فقد ذكر بغداد مع القدس والشام . واهتمامه بذكر القدس واضح بين فما ذهل عن قدسيتها ومنزلتها عند المسلمين ، فبادر إلى وصفها وضمها إلى غيرها من بلادهم فى نسق واحد مريدًا بذلك أن يجمع المسلمين في وحدة . وكانت القدس خير مثال لتلك الوحدة وهذه قصيدة أخرى يقول فيها سزائى قراقوج :

غوثاء يا مدد الرسول	انظر إلى بلد الرسول
القدس لتنظر لها	بغداد يشملها القبول
باب السعادة مثلها	أفليس تحظى بالشمول
إن الشهيد مجاهدًا	للخلد قد رام الوصول
فى النار يمشى جاهدًا	وكأنه فى السلسبيل
ابعث وليا للهدى	لنراه من يهدى السبيل(١)

هذه أبيات من قصيدة لهذا الشاعر . وهو يدعو الله أن ينصر المسلمين فى أرجاء العالم الإسلامى . وقد عين بعضهم ببلادهم ويسأل الله أن يشملهم جميعًا برحمته وينصرهم نصرًا مبينًا إنه فيما قال من طيب الكلم ؛ إنا يريد النصر أول ما يريد أو أخص ما يريد لأهل فلسطين وعاصمتهم القدس الشريف . ويتجلى هذا بوضوح فى إشارته إلى الشهيد . لأن هؤلاء المؤمنين الذين أشار إليهم لم يكونوا فى حرب مع سواهم من غير المسلمين إن دعاءه ينسحب على كل المؤمنين عمومًا ولكن يتجلى من غرضه أنه يخص بالذكر هؤلاء المحاربين المجاهدين وعاصمتهم القدس فهو يدير كلامه على محورها خصيصًا .

إنه ذكر باب السعادة وباب السعادة من أسماء استانبول فى اللغة الفارسية ، وهو يحسن أيما إحسان حين يصف المجاهد الفلسطيني الذى يخوض الغمرات ، وكأنما يخوض نار السعير إلا أن هذه النار عنده كماء السلسبيل وهى عين فى الجنة لأنه إنما يبغى الشهادة التى تمضى به إلى جنات النعيم .

وبذلك تأتى لنا أن نورد نصوصًا من الشعر التركى المعاصر عن القدس .

---

(١) اعتمد نا فى ترجمة هذه الأشعار إلى الشعر العربى عن الشعر التركى من نصوص له فى كتاب بعنوان : القدس فى الشعر التركى المعاصر للدكتور : عبد الرازق بركات ص ٩- ٢٥ . القاهرة ١٩٨٨م .

الفصل الرابع

القدس فى الشعر الأردى

ينبغى لنا فى هذا الفصل من كتابنا أن نستفتح بموقف باكستان من إسرائيل، وهو موقف الأعداء. إن باكستان تعلن رسميًا قائلة: إنها تحرص شديد الحرص على أن تنعقد بينها وبين الدول العربية وثاقة الصلة، وهذه الصلة تعدها حجر الزاوية فى سياستها الخارجية. كذا تصرح فى صراحة لا تواريها بأن قضية فلسطين كانت وستظل فى اتصال ودوام قريبة شديدة القرب من قلوبنا. فالسلام فى تقديرنا ضرورة لا محيص عنها فى الشرق الأوسط رجاء أن يكون عالمنا عالما يسوده السلام. وفى نظرنا أن الفلسطينيين يتحتم أن ينالوا المشروع من حقوقهم. أما القدس الشريف فلا بد أن يسترد من قدسيته ما هو معلوم له. وباكستان من جانبها تساند وتعاضد ذلك الموقف الموحد الذى أخذت به قمة الدول العربية وهى عاقدة العزم على التصويت فى قمة منظمة الدول الإسلامية القادمة فى صالح قضية فلسطين. إن قضية فلسطين وقضية كشمير قضيتان لهما صفة وحكم توأمين، ولا عجب فإن أهل كشمير لهما انتفاضة هى أشبه شىء بانتفاضة أهل فلسطين وعليه فهذان الشعبان يستويان فى هذا من أمرهما، كما أنهما ضحيتان متشابهتان فى تعرضهما لبطش من يظلمونهما ويقهرونهما. إن الهندوس المحتلين تحالفوا مع الإسرائيليين فى بطشهم بهدف سحق الانتفاضة القومية فى كشمير. وبالذكر حقيق أن العلامة إقبال منذ طويل زمان حذر من تلك المخططات الهندية الصهيونية، ولقد صمدت باكستان تجاه تلك المخططات كما أنها سوف تردع وتضحد كل محاولة ضد الحقوق المشروعة لشعبى كشمير وفلسطين[1].

ومما قد لا يكون للقارئ علم به أن إقبالاً فى عودته من مؤتمر المائدة المستديرة الذى انعقد فى لندن عام ١٩٣١ قدم مصر ثم ارتحل إلى القدس مدعواً إلى المؤتمر الإسلامى العام، فلبى الدعوة وقدم القدس الشريف يوم الأحد السادس من شهر ديسمبر ١٩٣١م فاستقبل استقبالا رسميا وشعبيًا وكانت له صفة وكيل المؤتمر.

---

(١) د. حازم محفوظ : إقبال فى ذكراه الثالثة والعشرين بعد المائة ص ٢٠ (القاهرة ٢٠٠١).

كما انعقدت جلسته الافتتاحية فى المسجد الأقصى ليلة الإسراء، وألقى فيه كلمة لها وقعها قبل عودته إلى وطنه قال فيها: لست أدرى ما إذا كان يسعدنى الحظ بزورة أخرى لفلسطين، ثم أعرب عن أمله بمستقبل عظيم للمسلمين، وذكر بوحدة العرب والمسلمين، وندد بتلك القوى التى هدفها تمزيق الوحدة الإسلامية. وأثناء وجوده فى القدس الشريف جاشت شاعريته فنظم شعراً يعبر فيه عن موقفه من القدس وفلسطين[١] .

وإن دل هذا على شىء فإنه من الدليل على أن اقبالاً وهو من هو فى منزلته عند قومه فى باكستان إنما كلامه يجرى على ألسنة أهل باكستان مما يعد حجة على نوعية الموقف الذى يتخذه الباكستانيون من فلسطين وقدسها.

ولفيض أحمد فيض ديوان من الشعر تحت عنوان: «قلبى مسافر»، أهداه إلى الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات وفيه قصيدتان تحت عنوان فلسطين وقد نظمهما فى مدينة بيروت عام ١٩٨٠ وفيهما يبسط القول كل البسط فى محنة فلسطين والوضع الراهن فيها، وإهداؤه هذا الديوان إلى ياسر عرفات يدل على كثير وهو يعد صوتًا من باكستان يرتفع لنصرة العرب[٢] .

ولقد وقعنا على قصيدتين للشاعر فيض أحمد فيض[٣] ليس لهما فى ديوانه عنوان يقول فى الأولى:

كم شهيد عنك ولى واغترب ... أنا من أرضًا سواك ما طلب
ولقد قاسيت فيك البرحاء[٤] ... أنت مصباح بقلبى قد أضاء
ومعى ذكراك لكن فى دوام ... وبها يزداد فى روحى الهيام
كم رفيقٍ كان لى فى رحلتى ... وصديق طيب لى عشرتى
إننى فى هذه الدنيا غريب ... كم دليلٍ قد سألت لا يجيب
لى على أرضك مسفوك الدماء ... رايةٌ تعلو وتعلو فى السماء
من أعادٍ كم دمارٍ تشتكين ... بدمائى سوف أنت تعمرين

(١) دكتور حازم محمد أحمد محفوظ، نفس المرجع ص ٢٥.
(٢)فيض أحمد فيض، مرى دل، مرى مسافر، ٦١ - ٦٥ (كراتشى) ١٩٩٢م. شكر الله للدكتور حازم أحمد محفوظ الذى احضر إلى هذا الكتاب من لاهور واطلع على ما فيه خاصًا بقضية فلسطين، وتعاون فى ترجمة النص الأردى.
(٣) فيض أحمد فيض: مرى دل ميرى مسافر. ص ٦١، ٦٢ (كرانشى ١٩٩٢م).
(٤) البُرَحاء: ألم الشوق.

في هذه المنظومة يعبر الشاعر عن فلسطين على الأعم وعلى القدس على الأخص، فنحن نعلم أن الصلة لن تنبت عن القدس وعن فلسطين، إن حنينه إلى وطن أزعج عنه فكان غريبًا شريدًا، يتجرع غصص الأسى ويتألم لفراق يتمنى له التلاقى ولكن بعد لأى. وهذا هو الفراق الذى فيه الأمل الذى قد يلوح ولكن فى أفق بعيد. أنه يصدقنا التعبير عما يموج بين جوانحه ومنظومتة مثال رائع لشاعر يحن حنينه إلى وطنه وكلامه ينساب ولكن فى وحدة متماسكة، وله بداية هى نهايتها المتوقعة إلا أنه يعبر عن فدائيته وفدائية أبناء قومه حين يجعل من دمه المسفوك راية كل أمله أن يرفعها فى عاجل أو آجل، كما أنه يُعاهدها على أن يُعمرها من خراب ودمار بعد أن استبدبها سوء حالها، وما يفجع مما كان لها من مآل، وننتقل إلى المنظومة الأخرى فيبدو فيها أبًا رحيمًا بكل معنى للرحمة لأنه يتجه إلى صغير مات عنه أبوه بعد أن خرج مجاهدًا أو قُتلَ غيلة، يُريد ليثلج صدره، ويطيب خاطره ويشعب قلبه الصغير بالسلوان، وهذا من الشاعر يستدل منه على أنه شاعر العاطفة بحق وكلامه صورة واضحة المعالم لمأساة فلسطين وعلى رأسها القدس الشريف، إن كلامه ينماز عن كلام من نظرنا فى كلامهم من قبل بتناهيه فى الرقة.

كف عن هذا البكاء يا صغير ... نامت الأم وفى دمع غزير
احذرنَّ يا صغير من بكاء ... فأبوك قد مضى(١) فى الشهداء
وأخوك نام فى حُلم الفداء ... وله الموت شهيدًا ما يشاء
أختك الكبرى كذا قد أفنيت ... ليتها كانت عروسًا زُينت
يا صغيرى يا صغيرى ما البكاء ... ليس فى الدار هلالٌ أو ذكاء(٢)
إن من ذكراهمو كان الحزن ... ابتسم للغيب من يدريه من؟
فى غد يا ربما جاء الفرج ... ويعود ربما من قد خرج

إن الشاعر فيض أحمد فيض يضرب على الوتر الذى ضرب عليه كثير من الشعراء قبله ولكن على نحو آخر إنه يريد ليقف موقف الأب المعلم أو الواعظ من ابنه الذى فى عمر كم الزهر، إنه يذكره بأمه وأخيه وأخته الذين أوردهم الصهاينة موارد الهلكة ولا يرتضى له أن يسترسل فى البكاء، بل عليه أن ينتفض فى حميته ويثأر لأسرته وجميل منه أن يقول إن بيته خلوٌ من شمس وقمر فهذا تشبيه رائع لما آلت إليه الأوضاع فى فلسطين، إن كلامه فيه

---

(١) مضى: يعنى مات. (٢) ذكاء: الشمس.

ضعف ولطف ولكنه فى باطنه على النقيض من ذلك لأنه يهيب بهذا الصغير، أن ينجز ما عجز عنه الكبير كما أنه يمسح دمعته بيد رحمته ورقته ويريد لفمه ابتسامة من أداله الله من عدوه، ورد عليه قدسه وفلسطينه وإن غداً لناظره قريب.

وهذه شاعرة باكستانية رقيقة، وهى نبيلة إسحاق إبراهيم حزّ فى نفسها ما وقع فى فلسطين، من أعمال العنف وما عرفت من أن الصهاينة يعلنون فى صراحة عنيدة، أن القدس لهم ولا يبغون عنها حولاً، وأن هذا هو الأمر الواقع، وما شاء قائل فليقل. ولذلك تحركت شاعرية هذه الشاعرة ولم نقع على شعر لها فى موضوع آخر من قبل ولكن يعنينا من أمرها، أنها بشاعريتها واجهت الوضع الحالى فى فلسطين عمومًا، والقدس خصوصًا، فشعرها من وحى الساعة ولذا نظمت ديوانًا تحت عنوان قدس شريف[١].

تقول نبيلة إسحاق تحت عنوان «بيت المقدس»[٢] :

ظلال الأسى خيمت فى الربوع ... هم الشهداء بدو فى جموع
وما من ملاذ فيا للعجب ... لأبنائنا القتل ها قد وجب
ألا فانهضوا معشر المسلمين ... وفى القدس نار فهل من معين؟
صدور الشباب بدت فى جراح ... وعنّا فهل لليهود الرواح؟
لنا الأرض ها خضبتها الدماء ... وللقدس خزيا أبا الشهداء
ألا فانهضوا معشر المسلمين ... وفى القدس نار فهل من معين؟
فأين اتحادٌ لكم يا عرب؟ ... وعن أرضكم فاطردوا من سلب
ألا فانقذوا قدسكم من يهود ... بهذا لكم مجدكم فى خلود
ألا فانهضوا معشر المسلمين ... وفى القدس نار فهل من معين؟
فيا قدس أنت لدينا عزيز ... لك الخزى لا إننا لا نجيز
ضياعًا إذا شاء قوم لئام ... فنحن نصون ونرعى الذمام[٣]
ألا فانهضوا معشر المسلمين ... وفى القدس نار فهل من معين؟
نحرر قدسًا لنا فى أمان ... ويبقى لنا نحن طول الزمان
دم للشهيد يتيح الفلاح ... وتحريرها ذروة فى صياح
ألا فانهضوا معشر المسلمين ... وفى القدس نار فهل من معين؟

---

(١) نبيلة إسحاق محمد، قدس شريف، محفوظ.

(٢) الترجمة لكل ما قالت نبيلة إسحاق نثرًا للدكتور حازم المحفوظ وقد نقلت ما ترجمه إلى الشعر العربى.

(٣) الذمام : الحق والحرمة.

ليس من تجاوز الحد قولنا إن هذه المنظومة تموج بحماسة دافقة، وفيها دعوة صريحة أكيدة إلى استنهاض همم المسلمين أجمعين لمواجهة الوضع الحالى فى مدينة المقدس. إنها كباكستانية تعبر عن نفسها فى خصوص، إلا أن تعبيرها ضمنًا ينساق إلى المسلمين فى عموم، إنها وهى تكرر هتافها بالمسلمين عامة، أن يبادروا إلى القدس ليطفئوا نارًا فيها تجعل لكلامها عميق الوقع فى النفوس. كذا فإنها تتمثل نارًا فى القدس وتدعو إلى من يخمدها فمعنى قولها، لا يسع المسلمين أن يتقاعسوا عن إخماد النار بل عليهم أن يسارعوا إلى إخمادها جهد طاقتهم، فمن أبطأ أو تثاقل عن إخماد النار، أتت النار على كل شىء. إنها تشيد بالشهداء وتحيى فيهم الفداء وترى أنهم يأبون الضيم، وتتأذى نفوسهم بأن تكون القدس فى يد اليهود وهى للمسلمين منذ الزمان الأطول، فعلى المسلمين أن يمحوا هذا العار والشنار.

كما تتجه إلى العرب، ويحزنها ألا يتحدوا فى صف واحد وتريد لهم أن يرموا الصهاينة عن قوس واحدة، وتذكرهم بأن ذلك واجبهم الأوجب، إن هذه المنظومة لا ريب جيدة لأنها تستجمع جل أو كل ما يمكن أن يقال فى الغرض الذى نظمت من أجله.

ولها منظومة تحت عنوان «القدس الشريف» تقول:

هو القـدس قـبلتنا والطهـــور   على مـجـدنا شـاهدٌ من دهور
من القلب حبٌ له فى الصميم   من اليـــوم بل إن ذا من قـــديم
ولـكنك اليـوم رمـز الأســى   بصـبح ذكـرنا الردى والمســا
قلوب بهــا جـرحـهـا والأمل   بمر الغـمـوم كـغـــيم هطل
بخطو الرسول وجدت السناء[(١)]   ومنك عــروج له فى الســماء
فلسطـــين أمرٌ بتعميـــرها   مضى قوم موسى إلى أرضها[(٢)]
قضت إسرائيل على كل شــى   ولم يبق فى القدس للمجد فى[(٣)]
محت إسرائيل جمالاً يروع[(٤)]   فما كان حســـن ولا للـــربيع
تهـز القلوب بخـوف الفناء   وللطفــــل دومًـا دوىّ البكاء

فالشاعرة تعرض لنا صورة للقدس فتصفها لنا بصفاتها، وتبين منزلتها فى نفوس المسلمين فلا تقول إلا حقًا وصدقًا، ولكن خاطرًا يطوف بها فتذكر ما آل إليه القدس فى

---

(١) السناء: الشرف والرفعة.   (٢) الإشارة إلى ما جاء فى القرآن الكريم.
(٣) الفىء: الظل.   (٤) يروع: يعجب.

يومنا الحاضر، وهو أمرٌ لا تنقضى منه للقلوب حسرة ولا جزع، ثم تعود إلى الماضى البعيد وتستند إلى كتاب الله المجيد وتروى ما وقع لموسى (عليه السلام).

فقد انطلق موسى عليه السلام بقومه بنى إسرائيل من أرض مصر ذاهبًا إلى أرض فلسطين مؤتمرًا بقوله تعالى. قال عز من قائل: ﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقًا فى البحر يبسًا لا تخاف دركا ولا تخشى﴾[1].

وشكى بنو إسرائيل إلى موسى عليه السلام فى مصر من سوء معاملة القبط لهم، فقال لهم استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. قالوا: ياموسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا. كنا نطعم إذا استعملونا من قبل أن تأتينا، فلما جئتنا استعملونا ولم يطعمونا، فقال موسى: عسى ربكم أن يهلك عدوكم يعنى فرعون والقبط ويستخلفكم فى الأرض يعنى الشام ومصر[2].

فالشاعرة تستند فيما تقول إلى حقائق التاريخ معتمدة على القرآن الكريم، مما يشهد لها بثقافتها وخلفيتها الإسلامية. فيؤخذ مما سلف ذكره أن موسى عليه السلام مضى بقومه للتعمير لا للتخريب وأن إسرائيل جعلت تدمر وتخرب. إنها كانت موفقة فى الالتفات إلى هذه الحقيقة التاريخية وقد أيدتها بآية قرآنية وكانت على حجة منها وفرق أى فرق بين الحاضر والغابر من الوضع فى القدس وفى فلسطين.

ولها منظومة أخرى تحت عنوان «السلام على شهداء القدس الشريف» تقول فيها:

زهور لهــا لونهــا قــد نصل[3]   جــمــالٌ بهـــا إنه قـــــد ذبل
تخـــرب روضٌ بظلم اليــهــود   بظلم تجـاوز جــمــيع الحــدود
فلسطين ها إنهم خـربـــــوا   مــخــالب وحش بهــا أنشــبــوا
سلامٌ على شهداء الوطن

صباحٌ جديد، عذابٌ جــــديد   وفى القدس دمعُ جرى فى الخدود
دمــاء الشــهــيــد بكل مكــان   لأجلك يا قـــــدس ذلك كـــان
لقد زاد فى القدس هول المصاب   شـــيوخ يقاسونه و الشبـــاب
سلام على شهداء الوطن

(١) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص ٢٣٨. ١٩٣٦.
(٢) ابن اسحق الثعلبى قصص الأنبياء العرائس ص ١٠٩ القاهرة.
(٣) نصل: نصل اللون أى زال.

وفى الغد يفتح للمسلمـــين لهم مسجدٌ [1] غادر الشياطين
نطهر مسجـــدنا من دنس وتبدو لنا القدس نور القبس [2]
نُحـيى بهــا نحن تاريخـــنا ســتعلو وتبـدو لنا فــوقنا

سلام على شهداء الوطن

شبـاب فلسطين رمزٌ لهـا [3] بكم بل وللعــرب فـخرٌ بهــا
نطقتم شـهادتكم فى الجـهاد وقلتم لعـــيش نريد النفــاد
نطقـتم كـذلك باسم الرسـول إلى جنة الخُلـد كـان الوصـول

سلام على شهداء الوطن

وغـزة سكانهـــا يقـــتلون على كل شبـر بدوا يطرحـون
كست أرضـهـا جثث الشهـداء وفى كل ركـــن يدوى البكاء
ويأتى بعيد [4] الشهيد شهيد وذلك فى كل يوم جــــديد

سلام على شهداء الوطن

هذه منظومة تترحم فيها الشاعرة على شهداء فلسطين إلا أن فكرها طوف بالمسجد الأقصى على أنه لا سبيل على حال من الحال إلى بت الصلة بين فلسطين والمسجد الأقصى، ولقد أحسنت صنعًا وهى تتحدث عن الشهداء وعن المسجد الأقصى متلازمين فى ازدواج لا تنفصم عُراه وجعلت لكلامها خلفية هى و التحدث عن فلسطين وما تعاورها من محن على يد الطغاة البغاة. إنها تبدو مؤمنة موقنة، يأخذ منها الأسى كل مأخذ لما يطرق سمعها من أخبار عن فلسطين مع طلوع شمس يوم جديد ، إنها تعبر بذلك وهى باكستانية عما يشعر به المسلمون فى أرض الله الواسعة نحو فلسطين ومسجدها الأقصى ومجاهديها.

وكلامها ينساب فى عبارات متسقة تدفعها عاطفة دافقة مزاجها غيرة دينية وغيرة إنسانية وكأنها وهى غير عربية، عربية أصيلة بل نتجاوز ذلك لنقول إنها فلسطينية تعبر من قرارة نفسها عن فجيعتها فى وطنها ومواطنيها. إن منظومتها أشبه شىء بنشيد يهز القلوب هزاً ويصدقنا التعبير عن صدق يبرأ من كل غلو يتجافى عن الحق المبين.

---

(١) المسجد هنا هو المسجد الأقصى.

(٢) القبس : شعلة نار تؤخذ من معظم النار.

(٣) أى أن شباب فلسطين رمز للقدس وعظمة العرب على الدوام.

(٤) بعيد : بعده بقليل.

إنها في ذلك البيت الذى يعقب كل طائفة من الأبيات تنطق عن حركة نفسها بكل ما تريد له تبيانًا، مما يضفى على شعرها رونقًا معجبًا. إننى معجبٌ باستهلالها الذى جملته بخيالها فقد تمثلت فلسطين روضة بعد أن ذبل زهرها وسكت طيرها لأن الصهاينة عاثوا فى أرض فلسطين مفسدين وبذا خربوا بها روضةً ذات بهجة ومع تفجعها على ما آلت إليه القدس ومسجدها الأقصى تفصح عما فى خبيئة نفس المؤمن الصابر الشاكر الذى لا يخالجه شك فى رحمةٍ لله ينزلها بمنه وكرمه على المسلمين وبذا تنكشف الغمة ويعود الأمر إلى نصابه.

إنها تحث شباب فلسطين على أن يخرجوا محاربين مجاهدين لأنها تعلم حماستهم فى جزم ويقين، وكان حسبها أن تعبر عن قلبها الذى ينفطر عليهم، ولا غرو فطبيعة الأنثى لديها هو دافعها إلى ذلك الحزن الذى ران على قلب جد رقيق.

وهذا من شأن نبيلة إسحاق يورد على خلدنا منظومة أخرى تحت عنوان «أم ترثى ابنها الشهيد فى القدس»:

لتـفـد بنى ولكـن بروح　　فـداؤك فى الدار عطر يفـوح

لعينى نورك، لى أنت روح

أمنى اختـفـيت وعنى ذهبت　　لماذا فـؤادى أنت مـّزقتْ

لعينى نورك، لى أنت روح

حُملتَ وفى كـفنٍ مدرجـا　　ووجـهك فجـرٌ وقـد أبلجـا(١)

لعينى نورك، لى أنت روح

لىّ ابنٌ عليه غـزير الدمـاء　　سُعـدتُ، فـقـد نال أجـر الفـداء

لعينى نورك، لى أنت روح

بُنىّ لتـذهب إلى جنـة　　طـريقٌ لك الآن فـى زينـةٍ(٢)

لعينى نوركَ، لى أنت روح

برؤياك فـاشـهـد جـمـالاً لحـور　　بلقـيـاك هُنَّ لَقـينَ الحـبـور(٣)

لعينى نورك، لى أنت روح

لأنت شهيدٌ عظـيمُ الشـرف　　دفاعًا عن القدس ذُقت التلف(٤)

---

(١) أبلج الصبح : أشرق.　(٢) فى الأصل : إن الجنة فى انتظارك والملائكة زينوا الطريق لك.

(٣) الحبور : السرور.　(٤) التلف : الهلاك.

لعينى نورك، لى أنت روح

سـمعتُ من الغيب صـوتًا يقـول　　　شـهـيـدٌ سيَـخلُدَ لا لن يزول

لعينى نورك، لى أنت روح

وأصـــبـــحت رمـــزًا لُمر البُكـــاء　　　بكينا، يهـــودٌ فـــمنهم بلاء

لعينى نورك، لى أنت روح

بنىّ فـلا تحـــــــزننْ للألـــــم　　　لك الذنب يغـفـر ربٌ رَحِم

لعينى نورك، لى أنت روح

هذه منظومة مخصوصةٌ بالقدس وإن كانت على لسان أم تبكى ولدها بعد أن نال شرف الشهادة دفاعًا عن القدس، إنها منظومة فى الرثاء تتمثل فيها الشاعرة أمًا ثكلى ترثى وديعتها فى الثرى ولكن على نحو خاص.

إنها تحسن الإحسان كله فى البيت الأول من مرثيتها ذلك أنها تورد كل المعانى التى أرادت أن تضمنها فى وجازة، إنها تدعوه ليفدى القدس بالروح، ويسعدها إلا أنها لا يتمزق قلبها حسرة عليه، على غير المتوقع من مثلها من أم بل إنها تدعوه إلى أن يموت وتشبه موته تشبيها عجبًا لأنها تشبهه بأجمل وأرق ما يكون وهو العطر، وهنا نلحظ الخيال الآرى الذى يختلف عن الخيال السامى فالآريون مثلاً خيالهم خلاق، أى أنهم يوردون المشبه به مُشكلاً من تشابيه يخلقونها خلقًا. فكلامهم أدخل فى المعنويات منه فى الحسيات، ولا كذلك خيال الساميين كالعرب فهم يضعون شيئًا أمام آخر ومادة أمام ما يشبهها ولا يزيدون على ذلك شيئًا. إلا أن هذه الأم لا تتمالك نفسها من حسرات تتقطع بها نفسها فيغلب عليها جزعها وتتساءل لماذا فارقها بالموت، وإنها لفراقه لمحزونة. وتعرض صورة له قتيلا محمولاً على هيئة تثير الأسى، ويغلب عليها حبها له فتراه غايةً فى الجمال حتى وهو فى كفنه وكان المتوقع أن هيئته فى هذا الكفن لا تثير شعورًا بالجمال، ولكنها أكدت فرط محبتها لَه حتى وهو فى تلك الهيئة التى ينفطر لها قلب الأم، وتصدقتنا القول وهى تُخبر عن كفنه الذى اخضل بدمائه الذكية، ولكنها مؤمنة موقنة ترى أن الفداء درجة ليس بعدها درجة، ويثلج صدرها أن تكون لولدها المجاهد الشهيد، إنها تحدثنا عن حركة نفسها وهى تتأرجح بين الفرح والترح، وتعود ثانية إلى ما يلقى ولدها من حسن المثوبة وخير الجزاء لأنه كان من الشهداء، وتحسن نعته وهو فى برزخ من برازخ الآخرة

وتزف إليه البُشرى بالنعيم المُقيم فى أُخراه، بعد ما ذاق ما ذاق من عذاب أليم فى دنياه إن شأن هذه الأم التى تمثلتها الشاعرة فقدت ولدها الشهيد تورد على الخاطر شأن أم عربية هى الخنساء التى ولدت قبل الهجرة بما يزيد على خمس وأربعين عامًا وهى من قبيلة بنى سليم ولها فيها حسب ونسب وقد نشأت بين أخوين من زينة الشباب فى القبيلة هما معاوية وصخر وكان كل منهما فارسًا مغوارًا. وقد رثت زوجها وأخويها أحر الرثاء.[١] وباتت الخنساء ليلة خروج بنيها الأربعة مع جيش المسلمين لفتح فارس، فجعلت توصيهم بالصبر والثبات فى القتال، ولما عاد جيش المسلمين مظفرًا حمل إليها نبأ استشهاد بنيها الأربعة، وتلقت هذا النعى بقولها «الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته»، ثم لم تزد، ولم يذكر لها الرواة بيتا واحدًا ترثى به فلذات كبدها! بل ولم يذكروا شيئًا عن حزنها عليهم، أو حديث منها عنهم[٢].

وهذا من شأن الخنساء عجبٌ عُجاب، وهى التى رثت من رثت رثاءً يقطر دمعًا ويتصاعد نياحة فمن قولها مثلاً فى رثاء أخيها، لولا كثرت الباكين حولها لقتلت نفسها وهذا تعبير عن غاية الحزن.

ولإيضاح ذلك وتعليله نقول إنها كانت مؤمنة صابرة محتسبة حبست دمعها ورأت فى ذلك أجرًا لها عند ربها لأن أبناءها استشهدوا مُجاهدين أما زوجها وأخوها فكان مقتلهما قبل إسلامها فأظهرت عليهما فرط حزنها وما أكلت بعدها إلا خشن الطعام وما لبست إلا خشن الثياب وكان حدادها عليهما حدادًا نفسيًا دفينًا فى قرارة نفسها وحدادًا تنطق عنه وتُعلنه على رءوس الأشهاد.

وفرق أى فرق بين الأم الفلسطينية المتخيلة والأم العربية التى غلب الإيمان عليها فشرفت بموت أبنائها ودعت الله أن يجمعها بهم فى مستقر رحمته وهنا نرى الفارق واضحًا بين موقف الشاعرتين.

ثم ينتقل بها السياق إلى ذكر القدس ويسعدها أن يكون ولدها خر صريعًا فداءً لها وهو يفتديها بأعز ما يمكن أن يفتدى الإنسان به شيئًا وهو الروح، وما تنفكُ تذكر شرف الشهادة وسمو درجتها عند الله عز وجل.

---

(١) يوسف الحمادى: أم الشهداء الأربعة الخنساء. ص ٨ (القاهرة ١٩٨٩).

(٢) د. عائشة عبد الرحمن: الخنساء، ص ٥٠ (القاهرة (١٩٧٦م).

إلا أنها تتأرجح ثانية بين الحزن والفرح، ويمضى بها هذا إلى ذكر اليهود الذين سعوا فى الأرض مفسدين، وكان منهم ما كان مما تقشعر منه النفوس وتنفطر له القلوب وإن كانت من حجر، وتعود إلى التكرار الذى يُعبر فى صدق عن حقيقة حال أُم إزاء ولد لها يَحُزنها أن يمضى عنها فى جوف الثرى ولكنها مع فجيعتها فيه تفرحُ فى حسن عاقبته، وعلو درجته عند رب العالمين، إنها فى صراع بين الحزن والفرح وإن كان الحزن عليها أغلب لفطرتها كأم رءوم، وهى تحتسب ولدها عند الله، أما تعبيرها عن محبتها له فهو الصدق الذى لا يحتمل غلوًا ولا إغراقًا وكلامُها من الرقة فى أبعد غاية.

إن هذه المنظومة لهذه الشاعرة الباكستانية تُعد مثالاً رائعًا لما يمكن أن يُقال عن القدس فى صورة مُعجبة لما تثيره القدس فى نفس أبية مؤمنة لامرأة عربية.

ولَنبيلة إسحاق منظومة تحت عَنوانَ «كشَمير والقدس» وهى من النمط المعروف بالمخمس وتتألف من ثلاثة عشر بندًا تتحدث فى بند عن ذكر مأساة كشمير وفى الآخر ذكر للقدس ومأساة فلسطين وها هى ذى المنظومة بتمامها:

نجوم خبت زال لون القمر
فكشمير لم يبدو منها الأثر (١)
محوا حُسنها حَملوا نعشها
وقد حَرَّقوا وذرَّوا(٢) قشها
أكشمير شابهت أنت الجنان.

هى القدس قال اليهود لنا
وهم أطفئوا ما لها من سنا(٣)
دماء الزهور تذيب القلوب(٤)
وتبكى السماء لهول الخطوب
لنا لا لهم من قديم الزمان

---

(١) فى الأصل: ان شياطين الهندوس دمروا جنة كشمير.
(٢) ذروا: فرقوا، وأطاروه.
(٣) السنا: النور.
(٤) المراد بالزهور هنا هو الشباب من الشهداء.

سر ينكر(١) سوبور(٢) دماء ونار
هنا لك إقبال ساكن دار
يجامو(٣) وكشمير ذبْحُ الأنام
لكشميرَ مَنْ ذاك يبغى السلام
ستنعم كشميرنا بالأمان .

لنا مسجدٌ إنه فى الحُرُم(٤)
وفيه صلاة نبى الأمم(٥)
له الطهر كان بفضل عمر(٦)
ومن سالبيه صلاح ثأر(٧)
وللمسلمينَ هو القدس كان .

لدنيا الأضاحى فمن يذبحون(٨)
وأبقارهم إنهم يعبدون
وفى الظلم هم يبغلون القمم
وحتى الصغيرُ فما إن رُحِم
ويوم الخلاص أكشمير آنَ

وفى القدس مَنْ يفتدون الوطن
لهم حجرٌ فى أكف كَمَنْ(٩)
ويُحمَلُ نعشٌ وأمٌ تَنوح

(١) سرينكر : عاصمة وادى جامو وكشمير .
(٢) سوبور : اسم مكان يجرى فيه دماء الشهداء .
(٣) جاموا : وادى يذبح فيه المسلمون .
(٤) طهره عمر بن الخطاب من الدخلاء حين فتح القدس
(٥) إن النبى ﷺ صلى فيه بالأنبياء .
(٦) طهره عمر بن الخطاب من الدخلاء حين فتح القدس .
(٧) فتح صلاح الدين القدس وحرره من الصليبيين .
(٨) المسلمون يذبحون الأضاحى أما الهندوس يذبحون المسلمين كالأضاحى .
(٩) الإشارة إلى الأطفال الذين يحملون الأحجار فى يدهم يرمون بها الصهاينة .

وأخت تقول شهيد يروح[١]
ستنطلق القدس ما من عِنان[٢]

شهيدٌ له الوجه أمٌ رأت
بكت ولها كبدٌ مُزِّقت
بكشمير حريةً يطلبون[٣]
وهندوس إيا هُمُو يُحرقون
ويا ذا المجاهد سوف تعَان

ومن حرمة القدس فال اليهود
من العُرب يُقتل غير الجنود[٤]
يخافون من صولة[٥] المسلمين
قصاصٌ بأمر الكتاب المبين[٦]
سلامٌ على القدس سوف تُصان

نراهم تَعدّوا على مسلمات
فكيف الدفاع عن المحصنات[٧]
فيا بنت كشمير مثل الرجال
هلمى إلى ساحة للقتال
فإنك لا تَرهَبين الطِعان

---

(١) يروح : يمضى .
(٢) يشبهها فى تحررها بفرس ينطلق لا يمنعه عنان .
(٣) المراد بهؤلاء هم المسلمون الذين يطلبون حريتهم، إلا أن الهندوس يحرقونهم أحياء .
(٤) الأطفال هم الذين يرمون اليهود بالحجارة والأطفال ليسوا بجنود .
(٥) الصولة : صال عليه أى قهره حتى ذلك
(٦) الكتاب المبين : هو القرآن الكريم الذى يدعو إلى القصاص والشاعرة تحث المسلمين على القصاص من اليهود .
(٧) المحصنات : العفيفات .

وظلم اليهود كسيلٍ جَرَفْ
غداً ظلمهم عند حدٍّ يَقف
غداً سوف يشهد حتّى الحَجر
بمَن خلفه أمس كان استتر[1]
وسوف يَعِزُّ الذليل المُهان

مع الكافرين فما عَيشُنَا[2]
لقد دمروا كل شىء لنا
لقد أحرقونا بذا فخُرهُم
وتلك الحضارةُ ذا رأيهم
وتاريخنا فيه كل البيان
فتى القدس لا تكترث باليهود
فأنت النجيد[3] بُروح تجود
على الغرب منهم دوام اعتماد
لنا القدس لكن بُعَيْد اتحاد
وللقدس نورٌ بدا للعيان[4]

فيا أهل كشمير حثوا الهمم
فعودتنا تلك أمرٌ أمَمْ[5]
لكم بالسلاح عظيم الكيان
وكالغزنوى بحرب عوان[6]
بكشمير سوف يدوِّى الآذان.

(١) الإشارة إلى الحديث الشريف.
(٢) فى الأصل كيف يعيش المسلمون مع الهندوس عبدة الأصنام.
(٣) النجيد: الشجاع. (٤) العيان: الشخص أى أن الإنسان يرى النور فى القدس.
(٥) أمرٌ أمم: أمرٌ يسير.
(٦) العوان: الحرب العوان التى قوتل فيها مرة بعد أخرى، الغزنوى هو السلطان محمود الغزنوى صاحب الفتوحات فى الهند.

إن النظر فى هذه المنظومة يشهد بحق على أن هذه الشاعرة أثبتت قدرتها على الإبداع وتطويع كلامها لغرض تسعى إلى بلوغه. لقد جمعت فيها بين القدس وفلسطين وبلدَ كشميرى فى نسق واحد، وجعلت بنود منظومتها بالتبادل وبذلك جعلت منظومتها تتضمن غرضين اثنيَن فى إطار واحد. لقد جعلت من القدس والمدينة الكشميرية أشبه شىء بفرعين منشعبين عن أصل واحد أو صنوين لا تفرق بينهما، مُريدة بذلك أن تجعل هذين البلدين مشتركين فيما آلا إليه من مصير، وهى بذلك إنما تُعبر عن الوحدة الإسلامية فى صورة أظهر من الشمس فى ضحاها، لأنها على وعى بأن المسلمين فى تاريخهم وتوادهم وتكاتفِهم كالجوارح فى الجسد الواحد فما تتأذى به جارحة تتأذى به الأخرى.

وبعد أن نظرنا فى عدة منظومات لها فى هذا الغرض حرى بنا أن ننظر فى منظومة أخرى لها تحت عنوان «ملحمة القدس وكشمير» إن هذه المنظومة تعد امتدادًا للمنظومة السابقة الذكر ولكنها تختلف عنها بعنواها وطولها الذى يمتد إلى أكثر من مائة بيت مما يدل على أنها تتخذ من القدس موقف الجد، بمعنى أنها تريد أن تسنفد كل طاقتها وشاعريتها فى قضية القدس.

وها هى ذى تلك الملحمة بتمامها:

هو الدين دين الهدى قد ظهر	بكل البلاد كنور بهر
وللعرب فضل ولا يجحدُ	فقد فتحوا القدسَ، ذا يَحمدُ
وللعجم فضل على كاشمير	ولكن للقدس أمرًا يثيْر
نبى الهدى قدمًا قد وضع	بأرض لها فالعبير سطع
إلى القدس قد كان منه المسير	بهذا لها الشأن وهو الخطير
وفخرٌ لها إنه المسجدُ	فكان النبى به يسجدُ
وكشمير لكنها تفخرُ	فللقدس فضل هو الأكبر
وكان التمنى لكل العجمْ	وصول لآثار تلك القدمْ
ولكنهم كلهم سعداء	فذكرًا لهم دائمًا ما يشاءْ
وفى الصين قال اطلبوا علمكم	وذلك منى نصحى لكم
وطالب علم ليمض لها	بكشمير يطلب علمًا بها
لئن لم يزرها النبى مرة	لقد زارها آله زورة
له اسم تردده فى الآذان	بكشمير يسجد كل مكان

ونالت لها شعرة من شعـــور بكشمير كل بها للفخور
يزورونها كل يوم حشــودْ وبالبركات عليهم تجودْ
ولكن هنادك قـد سرقـوا فضاعت لذلك هم مزقوا
وكشمير ضاعت من المسلمين فمن عالم ضاع ركن ركين
وفى غفلـة كل ذلك كـانْ لدولاتنا لم يكن من كيانْ
وشعب لها فى انضمام رغبْ وقالوا عدوٌ بذا قد حُجبْ
هنادك خافـوا اتحادًا لنا فمنهم جميعًا فيا ويلنا
أقاموا حدودًا لكى تنفصل وكشميرُ من بعدُ لم تتصلْ
مناد بكشمير قال الجهـاد له ما استجاب رجالٌ شدادْ
والله أكبر بها يهتفون وكل بقولتهم ينطقون
ونصرٌ لنا ولـدين لنـا سيهزم من بعد أعداؤنا
ولبيك قلنا لكشميرنا لأنت كجنة خُلْد لنا
خرجنا نجاهد من يعبدونْ لأبقارهم إنهم يسجدون
خرجنا نهدم كل صنم ونجعل أبقارهم من رمم
خرجنا لنصرة إخواننا ولبيك كانت لكشميرنا
إليهم هُتاف لنا قد وصل فهز الفرائض منهم وجلْ
وبالإنجليز استغاث الكفور[(١)] من الرب فضلٌ علينا كبير
وقالوا سراعًا لتمضوا لها نرى المسلمين مضوا نحوها[(٢)]
فنحن نقدم منا المدد عليكم فلا تشفقوا[(٣)] من أحد
ولما رأيناهمو يقدمون من المسلمين أتى الوافدون
أتوا زاحفين إلى كشمير يقولون نحن النصير المجير
هم الإنجليز وكم هددوا فما إن عبأنا بما رددوا
على الرغم مما لدينا لهم أردنا بعزمٍ لهم نصرهم[(٤)]

---

(١) الكفور : الكافر.

(٢) قال الإنجليز للهنادك ادخلوا كشمير قبل أن يدخلها المسلمون بالباكستان.

(٣) أشفق خاف.

(٣) الكلام على لسان أهل باكستان.

دخلنا مغيثين للمسلمين ... فقالوا نرحب بالفاتحين
وأما الهنادك بعد اجتياح ... بكشمير رُدوا بكل سلاح
مغيرون عاثوا بها مفسدين ... فكشمير أبدت هوى المسلمين
وكشمير كانت كمثل الجنانْ ... ومن بَعْدُ أضحت غمار لطعانْ
لإقبال كانت عزيز الوطن ... ومعتركًا أصبحت للفتنْ
لَكَمْ قتّلوا الخلق من أهلها ... وليس البقاء لدين بها[1]
وذَنْبٌ لَهُمْ أنهم مسلمونْ ... وإنصافهم أنَّهمْ يطلُبونْ
نساءٌ بها إنهم قتلُوا ... وبَعْدَ التعدِّى لكم مثَّلوا
وهم أُحْرقوهن بعد اغتصابْ ... وما أدركوا أنَّ هذا يُعابْ
وحتى البنات فلم يرحموا ... على ذَبحهنَّ لقد أقدموا
مع المسلمين القتال انتشب ... فقالوا الجهاد علينا وجب[2]
وفى الدين إخوتهم أسرعوا ... لنجدتهم رمحهم أشرعوا[3]
بهذا التعاون تم انتصارْ ... على ظالم غاشم قد أغارْ
وللإنجليز دهاءٌ شديدْ ... فخانوا ومنهم خبيث الوعيد[4]
لنا الفتح سوف نراه القريب ... لنا بالجهاد فموت يطيب
تجمع حلف من المسلمين ... وقالوا لنا النصر نصر مبين[5]
لهن غياثا طلبن النساءْ ... وقاسمُ للسند من قبلُ جاء[6]
وصيحتها صعدت مسلمة ... تحرك جيش إلى المَلحمة[7]
وفى يومنا تصرخن النساء ... فمن يا ترى يستجيب النداء[8]

---

(١) يريد أنهم أعملوا القتل فى آلاف من المسلمين بها حتى لا يبقى أثر للإسلام بها .

(٢) قال المسلمون وجب الجهاد علينا لما قامت الحرب بينهم وبين الهنادك .

(٣) إن المسلمين فى باكستان خفوا البذة الكشميريين فحاربوا معهم وأشرعوا الرمح أى سددوا معهم الرمح إلى أعدائهم .

(٤) إن الإنجليز خانوا مسلمى كشمير وتدخلوا لأنهم توعدوهم بالويل والثبور .

(٥) تألف حلف من مسلمى باكستان وكشمير لإنقاذها .

(٦) يشير إلى أن الحجاج بن يوسف الثقفى أمَّر محمد بن القاسم على جيش لفتح السند .

(٧) إن امرأة مسلمة صاحت تدعو لفتح الهند فتحرك الجيش ليخوض القتال .

(٨) النساء فى باكستان يستجبن لهذا النداء .

لماذا التخـــاذل يا مسلمـــــون فكشميرنا كيف لا تنقذون؟ !
جـــراح لكشـــمـيـــرنا تنزف وكل من العـــرب ذا يعــرف ! !
وهذا نداء لحـمـــل الســـــلاح هلمـوا هلمـوا لهـذا الكفـاح[١]
وكـشـمير ليست لهـم وحدهـم بل الأرض قــالوا لهم وحـدهم
هنادك شـــــر من الإنجليــــز ومن آل صـهيون هذا نجيـز[٢]
ليــعلم عــــــداءًا له المسـلمُ من البـــعض بعضٌ لهم أظلمُ
لكشـمـيـر خطتـــــهم دبروا وفى مـحنة القــدس هم فكروا
وهذا لضعــف من المسلـــمين تناسـوا جـهـــادًا ونصرًا لدين
ومنهـــــا فنالوا نصـــيبًا لهـم حمى الإنجليز لهـم ظهرهم[٣]
نريد نقيم لهــــم دولــــــة وصـهـيـون نبغى له صـولة[٤]
قـريبًـا نريد لهـــــا بقـعـــــة وللعـرب نبغى بهـا صـعـقـةً
بأرض الحـجـاز ألا ليـتـــهـا فلن تجـدوا بقـعـة مـثلهـا
ولكــن «علىّ» أذل اليهــــــود وفى خيبر ما استطاعوا الصمود[٥]
وأهل الحـجـاز لأجل الجـهـــاد سيـذرونكم فى الهـواء الرمـاد
و«بولفـر» من قـبل ها قـد وعـــد وصـهيـون دومًا لهـذا استـعـد
وقــالوا فكونوا لنا كـالجنـــود ألا فـابذلوا عـونكم لليـهـود
وبالقـدس ها مـسـجـد المسلمين أتنسـونه قـــبلة السـاجـدين
وأرض الحجاز فليســــت لكم وقـدسًا لكم نحن لم نعطكم؟ !
وأقبل جمـع من الغاصـــــبين على القدس كانوا من الواغلين[٦]
ومـسـجـدها إنهم دخلـــــوه وأهل لهـا ذاك لم يعـرفـوه[٧]
وللإنجليـــز كـــمـــا لليـــهـود بأرض لنا الملك وهو الجـديد

---

(١) إن أعداء كشمير لا يقنعون بأن تكون لهم بل يريدون التوسع فى الفتح .
(٢) فى الأصل أن الشاعرة تقول إن الهندوس أشد عداوة للمسلمين من اليهود الذين هم أولاد الإنجليز .
(٣) فى الأصل أن الهندوس نالوا جزءاً من كشمير بعون لهم من الإنجليز
(٤) قال الإنجليز نريد أن نقيم دولة عظيمة لليهود . الصولة : القوة والقهر .
(٥) الهنادك أشاروا على الإنجليز بأن يقيموا دولة اليهود فى أرض الحجاز ولكن الإنجليز قالوا : إن على كرم الله وجهه ألحق الهزيمة باليهود فى خيبر .
(٦) الواغلين : الداخلين . (٧) لم يعرفوا ذلك إلا بعد فوات الأوان .

لهندوس بل واليهود معًا أصابوا بقدس لنا مرتعا
لهندوس ما فعلوه بنا يهود أشاعوه فى قدسنا
كبقر البطون وسبى النساء وذلك فى قدسنا اليوم جاء
وإقبال حذرنا من يهود كمثل نصيحته من هنود
ومنا لكشمير كان الجهاد وفى العرب من مثلنا قد أراد
و«هتلر» كيد اليهود علم فشاء لهم دفعهم كالرمم
وفى الدين من إنهم مثلنا فما إن حذوا مرة حذونا
لكشميرها قد صنعنا السلاح وللعرب ذلك أمر مباح[(١)]
يهود لهم صنعوا قنبلة وعرب فما حركوا أنملة[(٢)]
وأمريكا قالوا يهود لنا بنوتنا[(٣)] تقتضى عوننا
وأما التفاوض ليس بحل وما كان إلا شديد الفشل
فلسطين لكن بعهد «الرسول» لها الحل كان كخير الحلول
رباط بمصر ومن أجلها وتلك المقولة قد قالها[(٤)]
«صلاح» وعاها وجندًا جمع ليفتحها ذاك ما قد وقع
وساق الجنود إلى قدسها تمكن بالصبر من فتحها
ويدرى اليهود برأى مصيب زوالاً لدولتهم عن قريب
بهذا تنبأ خير الورى له القول صدق كل الورى
ويظهر فى فترة المنتظر لعرب تجسس حتى الحجر[(٥)]
وقال اليهود لنا غرقدُ حمانا لذا عندهم أوجدوا[(٦)]
وعند المجاهد كان الحجر كذلك كان لديه الشجر
فلسطين بيت بها من حجر على الصدق فى القول كان اقتدر

---

(١) إن الباكستانيين هيأوا السلاح للدفاع عن كشمير، فهل يصنع العرب مثل ذلك لرد عادية اليهود؟!.
(٢) الأنملة: طرف الإصبع (٣) بنوة: أبناء. (٤) أى النبى صلى الله عليه وسلم.
(٥) المراد به المهدى المنتظر الذى يظهر فى آخر الدهر ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وسوف تقوم الحرب بين العرب واليهود، وإذا اختبأ يهودى خلف حجر أعلن للعرب عنه.
(٦) سبق أن ذكرنا حديث شريف فى هذا، وفيه أن اليهود إذا اختبئوا وراء شجر الفرقد لم ينكشف أمرهم فى القتال مع العرب.

فلسطين ثورتهـا بالحـجـــر وعـــهـــدٌ سـيـــأتى للمنتظر[1]
حفـيـد الرسـول سيـأتى غـداً يخلصنا من جميـــــع العـدا
وكشمير والقدس هم حرروا إلى مثل ما فعلــــوا بادروا[2]
وها ذاك فى الغـد سـوف يكون فـحـيـوا الرسـول أيا مـسلمـون
لكشمير والقدس من جاهدوا عليهم ســـــلامٌ لهم موعدُ[3]
نبـيلة قــــالت أنا خـادمـــــة بكشـمـيـر والقـدس كـالهـائمـهْ

هذه المنظومة التى جعلتها صاحبتها تحت عنوان ملحمة القدس وكشمير تقرن فيها بين كشمير والقدس، وتشملهما بنظرة واحدة وتوردهما فى نسق، مما يؤيد أنها لا تفصل بينهما من حيث كونهما مما له الأهمية كل الأهمية عند المسلمين.

ولها منظومة تحت عنوان «القدس الأسير» تقول فيها:

على القـدس من أنزل الصاعـقة ودنيـا بصمـــــت لها زاعـقه[4]
هو الصـمت كـان بكل مكـــــان مـشاهـد يحرق منهـا الجنان[5]
نسيمُ الربيعِ كـمـا العـاصـفـة وكم من قلوب بهـا واجـفـة[6]
يموج عـبـيـر بهـا فى الفـضـاء وفى يومنا أشبــــهت كـربلاء
بمسـجـدها يُقـتل السـاجـدون وأجـر الشـهـادة هم واجـدون
نصــارى يعـــادوننا من قـــديم يهـــود لهم إنهـم عــابدون[7]
هو القـدس يرفع منه النــــداء فـهل من مـغيـث وغـوثًا يشـاء
بأقـصى ألوفٌ أذيقــوا الحـمَـام وكل الذى قـيل هـذا حـرام[8]
ألا إنهـا قـبلةٌ كـالأســــــيـر وكلٌ تبـسم، مـا من مـجـيـر

---

(١) إن المهدى المنتظر من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم وحين سيأتى سيخلص العرب وكل الخلائق من كيد اليهود.
(٢) تهيب الشاعرة بالمسلمين أن يعملوا مثل ما يعمل أحفاد الرسول فى سبيل الله القدس وكشمير.
(٣) فى الأصل الدعوة إلى السلام على كل المجاهدين من المغرب إلى الصين.

(٤) زاعق: صائح. (٥) الجنان: القلب. (٦) قلوب واجفه: قلوب مضطربة فى القدس.
(٧) أهل أوربا منذ عهد الصليبيين يعادون المسلمين وكذلك غرهم فى يومنا هذا، واليهود يمشون فى ركاب هؤلاء الذين يعادون المسلمين.
(٨) قتل الآلاف فى المسجد الأقصى وما ترتب على ذلك أن قال الناس: هذا حرام!.

هُمُ المسلمون بدا ضَعفُهم   وأما اليهود فذا عُنفهُم
وحدد قول الرسول السبب   فمن خيفة الموت هذا وجب
علينا أطلَّ لنا مسجدُ   وقال فمن لى بمن يرفدُ[1]
ويعلم خُلدًا له فى يقين   دمًا هو يبكى على المسلمين
وساءل فى طيْبة[2] مسجدًا   فقال بقاؤك هذا غدا
سلامٌ على القدس والمسجد   وحزنى أنا إنه موقدى[3]
تقول نبيلة للمسلمينَ   لتنزل بكم رحمة المؤمنين[4]

إن الشاعرة تتمثل القدس أسيرًا يتمنى لو وجد من يفكه من إساره وهو يصيح وصيحته صرخة فى واد ونفخة فى رماد وهذا ما يأخذها بُمر الأسى. وتشير إلى أن اليهود فى كراهيتهم للمسلمين كالصليبيين الذين عادوا المسلمين فى قديم الزمن وتلك حقيقة تاريخية ووجه الشبه واضح بين الماضى والحاضر. كما تتخيل المسجد الأقصى يسأل المسجد النبوى عن مصيره فيطمئنه المسجد النبوى ويقول بأنه سيكون له البقاء إلى يوم القيامة.

وفى تخيلها القدس أسيرًا يطلب من يخلى سبيله، وأن المسجد الأقصى يتجه إلى الحرم النبوى بالسؤال عما يمكنه أن يكشف الغمة ويفك الكرب، فهذا خيال رائع لأنها تؤيده وتؤكده بحديث شريف تجد منه ما يعينها على أن تناشد أهل «لا إله إلا الله» أن يخفوا إلى نجدة القدس وفلسطين. إنها تستوعب التاريخ الإسلامى لا تكاد تبقى ولا تذر من حقائق، ونحن نذكر فى منظومتها تحت عنوان «ملحمة القدس وكشمير» أن امرأة كشميرية صاحت بالمسلمين مهيبة بهم إلى مجاهدة أعدائهم من الهنود، وهنا نقف وقفة لابد منها لأن ذلك يذكرنا عند العرب بإمرأة صاحت قائلة «وامعتصماه» وكان هذا حثًا للمعتصم على أن يجاهد الروم فى عمورية، وهنا نجد كيف أن التاريخ يعيد نفسه، وأن المسلمين سواسية فى موقفهم من أعدائهم مستندين إلى ما أرشدهم إليه دينهم الحنيف. ولا يغرب عن خاطرنا أن لنبيلة إسحاق منظومة يدور فيها الكلام على محمد إقبال وموقفه من القدس وفلسطين، وهى القائلة فيها :-

---

(١) يرفد : يُعين.

(٢) طيبة : هى المدينة المنورة. والمراد هنا أن المسجد الأقصى سأل عن مصيره وبقائه المسجد النبوى فرد عليه بأنه سيبقى خالدًا.

(٣) موقدى : مُحرقى.   (٤) أى لتنزل بكم الرحمة التى ينزلها الله على المؤمنين

من القدس للعرب كان الأم وذلك كان كذا للعجم[١]
تغنى بذكرلها شاعرون بتمجيدها إنهم يحبرون[٢]
أرادوا بذلك ذكر الرسول سماء إليها وكان الوصول
وفى يومنا جاءها من يهود من الإنجليز لديهم وعود
وإقبال كان يحب العرب ولم ينس قدسًا لهذا السبب
فحذر لكنه من يهود يريدونها فى عناد شديد
إلى مصر جاء بشد الرحال من القدس كان أراد الوصال[٣]
به رحبوا إنهم يعلمون رسالته تلك للمسلمين
حفاواتهم تلك فى مسجد وفى غيره الأمر لم يعقد[٤]
ووجه إقبال قولاً لهم ولم ينس من قوله مثلهم[٥]
وقال أيا قدس إنى الفداء وفى صوته نبرة للبكاء
فصاح الجميع وقد كبروا لذلك نصر لنا أكبر
من الإنجليز ألا فاحذروا ونصر اليهود ألا فاذكروا
وقال الغياث وللمسلمين بقدس وفى غيرها أجمعين
وإقبال كان يقول لهم «فللعرب أندلسٌ حقهم»[٦]
وقال ولكن قبيل الشتات أريد الرجوع قبيل الممات[٧]
وبالقدس أوصى وبالمسجد ثواب لكم ذاك لم ينفد
لإقبال عمر وكان النفاد ومن ناره قد تبقى الرماد[٨]
نبيلة رأيا لها رددت نبيلة قولاً لها خلدت

---

(١) الأم : القرب ، والمقصود أن العرب كان لهم فرط اهتمام واعتزاز بالقدس ، ولشأن كان كذلك عند غير العرب من المسلمين .

(٢) تشير الشاعرة إلى أن كثيرًا من شعراء الأردية قالوا شعرًا فى القدس ، ويحبرون : يشيرون ويسعدون .

(٣) الوصال هنا يراد به أن أراد أن يحض إلى القدس مشتاقًا ، كالعاشق الولهان .

(٤) انعقد فى المسجد الأقصى مؤتمر إسلامى رأسه إقبال ولم يعقد فى موضع آخر .

(٥) إقبال وجه كلامه إلى عرب فلسطين كذلك إلى المسلمين كافة .

(٦) قال إقبال ردًا على ما يدعى اليهود أن لهم الحق فى القدس وفلسطين إن للعرب الذين لبثوا فى الأندلس ثمانية قرون الحق فيها .

(٧) الشتات : الفراق ، كان إقبال يقول لهم أملى أن أعود إلى القدس إن كان فى العمر بقية .

(٨) تقول إن إقبال مات أما رسالته وما أشبهها بالنار فقد خمدت اليوم ولم يبق فيها إلا الرماد .

إن نبيلة فى هذه الطائفة من الأبيات، إنما رددت على الحقيقة بحذافيرها ما سبق أن ذكرناه خاصًا فيما يتعلق بموقف إقبال من القدس والقضية الفلسطينية بعامة. وظل من بعد يدافع عن حق العرب فى فلسطين ويندد بالمخطط الاستعمارى الغربى والصهيونى الذى يهدف إلى إجلاء العرب عن فلسطين لتقوم دولة لليهود فيها. (١)

كما أنه يشدد النكير على الإنجليز المستعمرين الذين يؤيدون الصهاينة ويقول إنهم ضالون مضلون ويذكر أن المسلمين يكشفون عن خبيث مقاصد الصهاينة ومن وراءهم مهما حاولوا ذر الرماد فى العيون، وفى ديوانه الأردى «ضرب الكليم» يقول:

فلسطين إن تك حق اليهود فأندلسٌ إنها ما نريد
وللإنجليز خفى المُراد بهذا لدينا رسوخ اعتقاد

إن إقبالاً يتحدث بلسان المسلمين قاطبة ويفضح مكائد الإنجليز المستعمرين ويذكر بحقيقة تاريخية يعرضها عرضًا يدل على منطق سليم. وله قوله:

يَمُر الزمان ويُذكى الضَرَمْ(٢) وبين الضلوع اللهيب اضطرم
دواءٌ بلندن؟ ما من وجود وعرق الفرنجة جسٌ اليهود
نجاةٌ لنا إنها باتحاد بهَذا ننال لنا ما يراد(٣)

إن إقبالاً كان عليمًا بشتى التيارات السياسية وبواطنها، ولقد استجمع فى هذه الأبيات رؤيته وأوضحها. إن فيها فواتح الخير وخواتمه. وما ذاك إلا إننا نشهد اليوم ونَعِى مصداقها.

فأهل الحل والعقد ومن بيدهم مصائر الشعوب فى الغرب يتنسمون أخبار فلسطين وما يعصف بها من هزاهز وأهاويل ينفطر لها قلب الإنسانية، وهُم على مهاد الراحة، ولا يحركون ساكنًا رجاء إحقاق الحق وإبطال الباطل. وذلك منهم مردود إلى أن الصهاينة يُسيطرون عليهم ويوجهون منهج تفكيرهم من طرف خفى أو جلى، لقد كان إقبال على الصواب الأصوب حين أوضح، عن رأيه قبل ستين عامًا أو يزيد.

إنه لم يذكر القدس فى تلك الأبيات التى أوردناها له، ذلك أنه حين قَدِمَ القدس مرتين فى سالف الأيام لم تكن القدس فى حوزة إسرائيل، ولم يكن لدولة إسرائيل من وجود. ولو امتد به

---

(١) د. حازم محفوظ: مجلة اللواء العربى العدد ٢٢٥ ١٨ إبرايل عام ٢٠٠١م.

(٢) أذكى الضرم: أشعل النار

(٢) إقبال: ضرب كليم (كليات إقبال) ص ٦٦٨ و٦٧١ (لاهور ١٩٩٥م)

الزمان إلى يومنا الحاضر، لقال فى القدس المطرب المعجب. لقد قَدمَ القدس وأشار إلى أن اليهود لم يكونوا على الحق فهم ليسوا على الحق ولا وجه بحال لقولهم إن لهم الحق فى امتلاك جزء من المسجد الأقصى وبهذا يترجح ما نذهب إليه من أنه لو كان حيًا لقال من الشعر فى القدس وأطال.
ولنا أن نقول ما كان للقدس وفلسطين فى يومنا الحاضر إلا إقبال ولا علم لنا بمن يخلفه اليوم فى قولته وفى رؤيته.

* * * *
* * *
* *
*

مصادر البحث

المصادرة الشرقية

أولاً: العربية:

* د. إبراهيم خليل: معجم البابطين، القاهرة ١٩٩٥م.
* د. إبراهيم شتا: المعجم الفارسي الكبير، القاهرة ١٩٩٢م.
* أبو داود: كتاب الملاحم، سنن أبي داود. القاهرة.
* ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، بيروت ١٩٩٥م.
* ابن الجوزى: زاد المسير فى علم التفسير، دمشق ١٣٨٤هـ.
* ابن كثير: قصص الأنبياء، بيروت ١٩٨٥م.
* إحسان حقى: مأساة كشمير المسلمة، القاهرة ١٩٩٣م.
* أحمد تاج الدين: نزار قبانى والشعر السياسى، القاهرة ٢٠٠١م.
* د. أحمد تيمور: آهات القدس، القاهرة ٢٠٠٠م.
* أحمد شلبى: معجم البابطين، القاهرة ١٩٥٥م.
* أحمد فتحى عامر: يا قدس جريدة الأهرام، القاهرة ٢٠٠٠م.
* أحمد فهمى خطاب: يا أمة الإسلام، جريدة الأهرام، القاهرة ٢٠٠٠م.
* إسحاق موسى الحسينى: عروبة بيت المقدس. القاهرة ٢٠٠٠م.
* إسماعيل صويصال، ترجمة: د. إسحاق عبيد: العلاقات التركية العربية فى ضوء التطورات السياسية المعاصرة. القاهرة ١٩٩٣م.
* الزركشى: إعلام الساجد، القاهرة١٣٨٥هـ.
* الشاذلى زوكار: للعشق... للوطن، تونس ٢٠٠٠م.
* المقريزى: إمتاع الأسماع، القاهرة ١٩٤١م.
* أنيس المقدسى: تطور الأساليب النثرية، بيروت ١٩٣٥م.
* بديع الزمان النورسى، ترجمة: إحسان قاسم الصالحى: كليات رسائل النور، وأنقرة ١٩٩٢م.
* بطرس البستانى: محيط المحيط، بيروت ١٩٩٣م.
* د. حازم محفوظ: مجلة اللواء العربى، القاهرة ٢٠٠١م.
* د. حازم محفوظ: إقبال فى ذكراه الثالثة والعشرين بعد المائة، القاهرة ٢٠٠١م.
* د. حسن ظاظا: القدس، القاهرة ١٩٧٠م.
* حسن عبد الله القرشى: ديوان حسن عبد الله القرشى. القاهرة ١٩٩٩م.
* د. حسين مجيب المصرى: من أدب الفرس والترك، القاهرة ١٩٥٠م.
* ديوان القدس، أضواء على القدس، القاهرة ١٩٨٦م.
* ستانلى لين بوول، ترجمة: فاروق أبو جابر، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس القاهرة ١٩٩٥م
* سزائى قراقوج، ترجمة: د. عبد الرازق بركات: ديوان أربعون ساعة مع الخضر القاهرة ١٩٩٢م.
* د. سيد فرج راشد: القدس عربية إسلامية، القاهرة - ٢٠٠٠م.
* الشافعى المقدسى: كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، القاهرة.
* طه الولى: المساجد فى الإسلام، بيروت ١٩٨٨م.
* د. عائشة عبد الرحمن: الخنساء، القاهرة ١٩٧٦م.
* عارف باشا العارف: تاريخ القدس، القاهرة ١٩٩٤م.

* د. عبد الحميد زايد : القدس الخالدة، القاهرة ١٩٧٤م.
* عبد الحميد الكاتب : القدس، القاهرة ١٩٩٨م.
* عبد الستار الهانى : جريدة الشروق التونسية، تونس ٢٠٠٠م.
* عبد العزيز محمود عبد الدايم : بيت المقدس فى العصر الأيوبى، القاهرة ١٩٨٩م.
* د. عبد الغفار حامد هلال : ياقدسنا، الأهرام، القاهرة ٢٠٠٠م.
* عبد المعطى البيومى : القدس فى العلاقات المملوكية الفرنجية، القاهرة ١٩٩٩م.
* عبد المنعم عواد يوسف : ديوان «عيون الفجر»، القاهرة.
* عدنان برازى : يا قدس . . كلنا سواء، الأهرام، القاهرة ٢٠٠٠م.
* عزت عبد الله : القدس هانت، القاهرة ٢٠٠٠م.
* د. على السيد على : القدس في العصر المملوكى، القاهرة ١٩٨٦م.
* عمر الصاوى : فلسطين فى القلب، القاهرة ٢٠٠١م.
* غادة أصلان : درة القدس، القاهرة ٢٠٠٠م.
* فاخر ارما اوغلوا، ترجمة كمال شعبان : تركيا والصراع العربى الإسرائيلى، استانبول ١٩٩٣م.
* فاروق جويدة : فى الذكرى الخمسين لاغتصاب فلسطين، الأهرام، القاهرة ١٩٩٨م.
* فاروق جويدة : رسالة إلى شارون ، الأهرام ، القاهرة ٢٠٠٠م.
* فتحى أحمد عامر : مجلة الكتاب، بغداد ١٩٧٥م.
* فؤاد إبراهيم عباس : موسوعة بيت المقدس، القاهرة ٢٠٠٠م.
* كارين ارمسترونج، ترجمة د. فاطمة نصر، د. محمد عنانى : القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، القاهرة ١٩٩٨م.
* كمال رشيد : القدس فى العيون، القاهرة ١٩٩٠م.
* محسن عبد ربه : مجلة الهداية، تونس ٢٠٠٠م.
* محمد إبراهيم أبو سنة : تأملات فى المدن الحجرية، القاهرة ١٩٧٩م.
* محمد التهامى : الأقصى، الأهرام، القاهرة ٢٠٠٠م.
* د. محمد حامد الحضيرى : الأعمال الشعرية الكاملة (الحضيريات) القاهرة ٢٠٠١م.
* محمد حسين هيكل : حياة محمد، القاهرة ١٣٥٤هـ.
* محمد عبد العزيز شنب : حدثنى القدس الشريف، الأهرام، القاهرة ٢٠٠٠م.
* محمد نور الدين : الشرق الأوسط فى السياسة الخارجية التركية، القاهرة ١٩٩٣م.
* محمد هاشم موسى غوشه : فتح بيت المقدس، القدس ١٩٩٥م.
محمود ثابت الشاذلى : الماسونية، عقد المولد، وعار النهاية، القاهرة ١٩٩٠م.
* محمود عبد الغنى عاشور : جريدة صوت الأزهر، القاهرة ٢٠٠٠م.
* د. محمود على السمان : يا قدسنا، الأهرام، القاهرة ٢٠٠٠م.
* مسلم : صحيح الإمام مسلم، القاهرة.
* مصطفى زقزوق : صرخة القدس، الأهرام، القاهرة ٢٠٠٠م.
* نور الدين صمود : صموت أغنيات عربية، تونس ١٩٨٠م.
* هاروق هاشم رشيد : المسجد الأقصى ، مجلة أخبار الأدب، القاهرة ٢٠٠٠م.
* ياقوت الحموى : معجم البلدان، بيروت.
* يوسف الحمادى : أم الشهداء الأربعة الخنساء، القاهرة ١٩٨٩م.
* د. يوسف القرضاوى : القدس قضية كل مسلم ، القاهرة ١٩٩٨م.

ثانيا : الفارسية

* د. رضا زاده شفق : تاريخ ادبيات ايران ، تهران ١٣٢١هـ.
* د. سيد جعفر حميدى : تاريخ اورشليم ، تهران ١٣٦٤هـ.
* على اكبر دهخده : لغت نامه ، تهران ١٣٣٤هـ.
* معين أحمد تيمور ، ترجمة : على منتظمى ، بيت المقدس دراسلام ، تهران .
* ناصر خسرو : سفر نامه ، تهران ١٣٥٦ش .

ثالثا : التركية

* أبو الضيا توفيق : نفعى ، استانبول ١٨٨٧م .
* كوبريلى زاده محمد فؤاد : تورك ادبياتى تاريخى ، استنابول ١٩٢٤م .
* Ahmed Cavu§oglu : Yahya Bay Diuaminden Seçmlelr (Ankara 1983.
* A. haydar Haksal: Kudüs-ü §erif, Mektup Dergisi (Istanbul 1996).
* A. Haydar Haksal: Mektup Dergisi (Istanbul 1998).
* Faruk Kose: Mescid-i Aksa Davasi (Istanbul 1996).
* Feyzi Habci : Mevlâna (Konya 1983).
* Islam Ansiklopedisi (Istanbol 1977).
* Ismail Ünver : Ne§ati (Ankara 1986).
* Nedim Digemli: yarali sehir kudus, Mektup Dergisi (Istanbul 1996).
* Osmen Horata : Esrar dede (Ankara 1998).
* Sadeddin Nüzhet Ergün: Bekta§i Sairleri ve Nefesleri (Istanbul 1944).
* Serap yavuz : Mektup Dergisi (Istanbul 1996).
* Vasfi Mahir kocaturk : Turk Edebiyati: Tarihi (Ankara 1964).

رابعا: الأردية:

* اقبال : كليات اقبال - اردو (لاهور ١٩٥٥م) .
* فيض أحمد فيض : مرى دل مرى مسافر (كراتشى ١٩٩٢م) .
* نبيله اسحاق محمد : قدس شريف (مخطوط) .

المصادر الأوروبية

فى الإنجليزية :

Arnold : The Preaching of Islam (landon 1935).

Patrik Hanks : Encycloppedie World Dictionary (Beirut 1974).

فى الفرنسية :

Le Bon : Les premierés Civilizatons (pares).

فى الألمانية:

Von Hammer Purgstall: Geschichte der osmenichen Dichtkunst (pesth 1870).